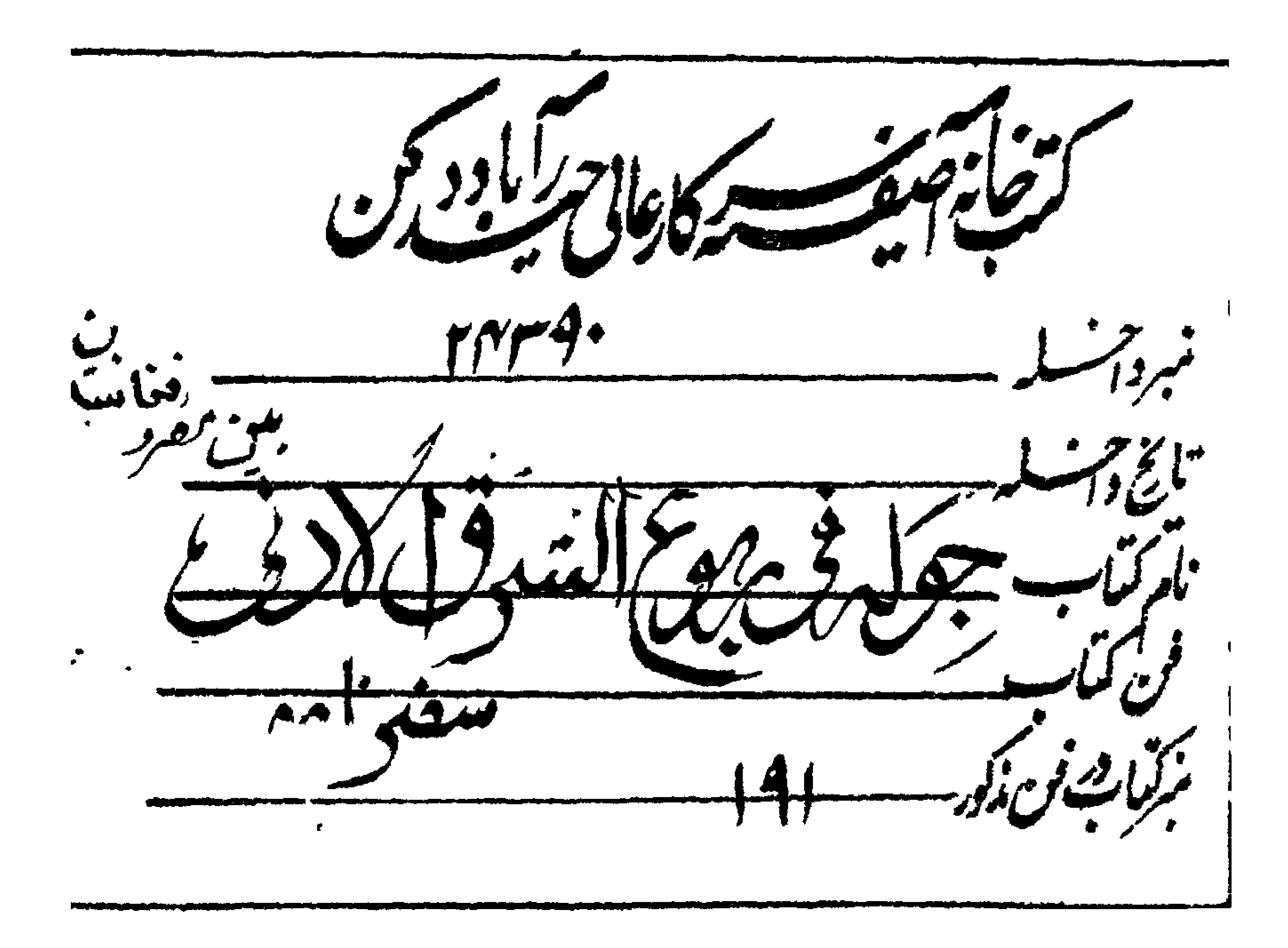
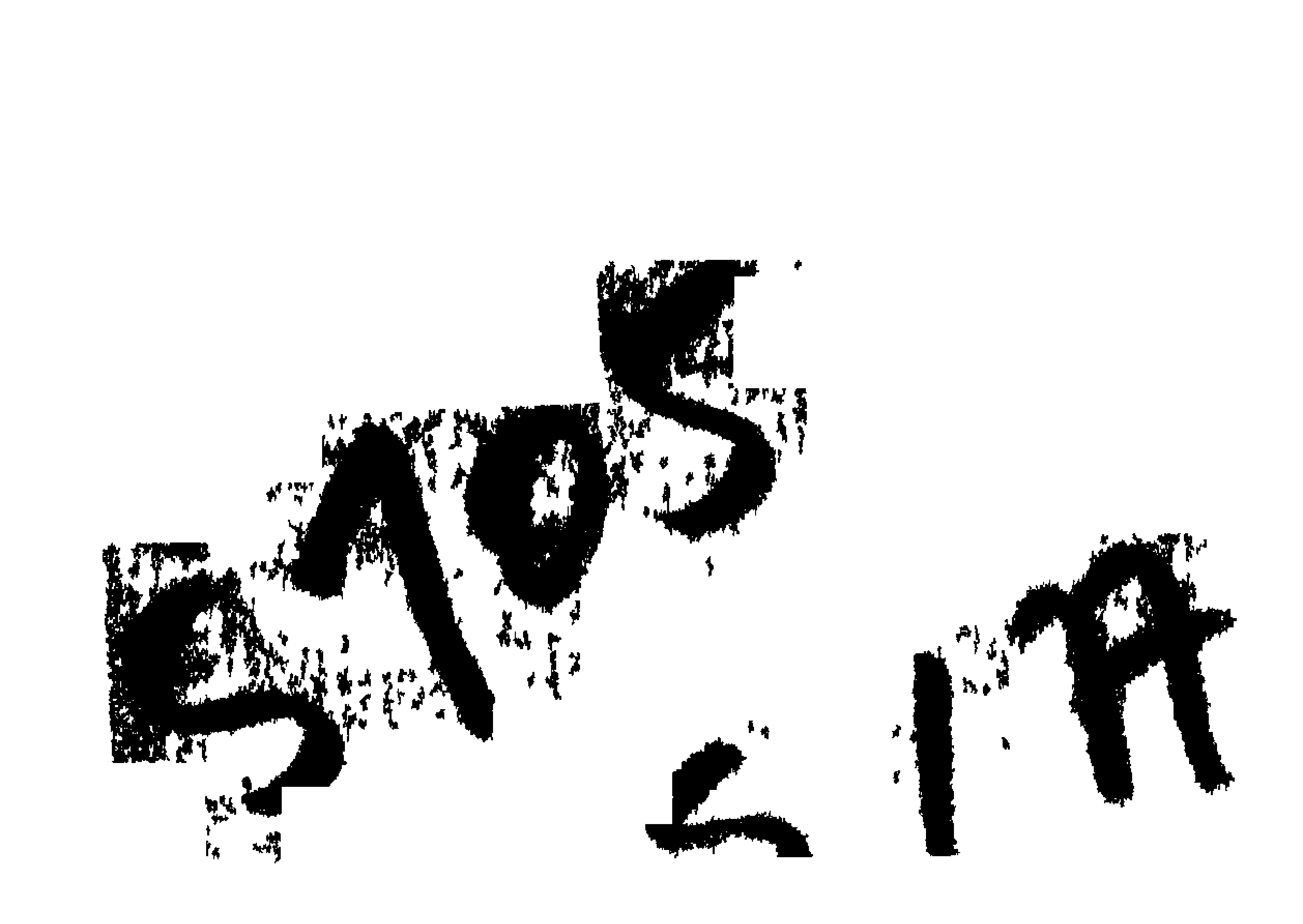




جولة في ربوع الشرق الأدنى

بين مصر وافغانستان



من مشاهدات سائح مصرى

محمد ثابت

مدرس أول العلوم الاجتماعية بمدرسة القبة الثانوية

الناشر : مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة

« الطبعة الثانية »

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٥٤ — ١٩٣٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كانت جولتى هذا العام فى ربوع الشرق الأدنى ، تلك الأقطار التى تربطنا بها روابط ونقتها أواصر التاريخ والاجتماع والدين ، وزادتها رسوخاً صلة رحم قديمة وإخلاص عميق ، وعطف متبادل . تذكى ناره رغبة مشتركة فى النهوض ، وطموح متأجج للخلاص بأوطان مهددة ظلت ولا تزال تئن تحت أخطاء أبنائها ، وبهم الطامعين فيها .

حست أرجاءها فى حوله عاحلة كانت أحدر بالمقام الطويل والدرس العميق لكى ، رغم ذلك ، قد وقفت من أمرها على الكثير مما يروقنا شأنه ، ويهمنا حره . ولقد لمست بعض معانى التأخر الذى طالما عيرنا به الغرب حتى أضحى لديهم الشرق مثلاً فى التدهور والامتهان ، مما كان ينغص علينا عيشنا ويزهدنا فى الحياة . لكى ألفيت خلال ذلك قبساً من نور النهوض ترفعه فى تلك الظلمات يد قيضها الله الكثير من نواحى هذا الشرق ، فبدأت تعمل على تبديد ظلم الأحنبى ومحو سيطرته السياسية والمطامع التى كانت ولا تزال تتآمر على إخماد عناصر التقدم فيه . ثم تعود فتعيره بأنه ماتىء تعوزه الكفاية فى القيام بشئون نفسه ، وتفرض عليه ما ترى من نفوذ وسلطان هو آيل به لا شك إلى زوال القوميه ، والبقاء به حيث هو من جمود ذكر ، وجمود عقل ، وقناعة بقليل .

فأشد ما كانت دهشتى وإعجابى لما تأتيه كل من تركيا الناهضة وفارس الناهضة من معجزات التقدم والطفرة بالبلاد إلى العلا من جميع نواحيه رغم ما يحوطها من

عوز شـديد ، وفقر مقيت . لـكن هو الإخلاص للوطن ، والاعتزاز بالقومية ، وإنقاذ البلاد من الدخيـل . كل أولئك أخذ بناصر القوم ، فعدوا إلى النهوض سراعًا . وإنك لتدهش لمدى التطور الذى تم فى تلك الفترة الوجيزة فى الثقافـة والعمران . وأنت لا تراهم يعنون بالمظاهر الجوفاء ، تاركـين لباب الأمر ، بل ينهضون بالصميم منه ، رغم ما قد يبدو خلال ذلك من نقص فى الدقة ، وحسن فى الطلاء . وعندى أن العجلة واجبة فى الخطوات الأولى من التقدم كى تـكسب الشعب قوة الدفع اللازمة والتشجيع الذى لا بد منه ، حتى إذا ما تذوق للنهوض معنى انتعشت فيه الناحية المعنوية ، واضطلعت نفسه بمـا أعدت له . أما الأخذ بسنة التدرج الوئيد ، والعناية بالعرض دون الجوهر ، فتلك لا تتفق وحركة العصر الحاضر العاجلة ، وروحه المادى الوثاب

حقاً هى ظروف تهيأت فتحينها القوم وكانت لهم نعم العون : استغلوا خيرها خير البلاد . وتساندوا تحت إمرة نفر قليـل ممن رجحت عقولهم ، وأسـلموا لهم القيد مصـحين مؤيدين فى غير تحيز لنقد ، ولا أهبة لهدم . كنت كلما حادثت نفراً منهم تـكلم فى نغمة المعتز بقوميته ، القوى بإيمانه ، لا يقبـل فى حق وطنه غمزاً ولا هوادة . فهل لنا — ونحن بنفرنا أعز ، ومالنا أوفر ، وعلمنا أوسـع ، وماضينا أمجد — أن نترسم تلك الخطى الموفقة ، ونقيل بلادنا ممـا تتعثر فيه يومًا بعد يوم ، دون عبرة بما فات ، أو عدة لمـا هو آت ؟

الله أسأل أن يهدينا فى أمرنا سبيلاً رشداً ؟

مقدمة الطبعة الثانية

لقد كانت رغبتى الأكيدة ، يوم بدأت جولاتى . فى ربوع الدنيا ، أن أدرس شعوب العالم ، وأتدسس إلى الصميم من حياتهم ، لأخلص إلى ما يسود بينهم من الأخلاق والعادات ، وقد كنت أصدر عقب كل « جولة » كتابا يضم مشاهداتى عن البلاد التى زرتها .

وكم كان سرورى عظيما أن تهافت أبنائى البررة وزملائى الكرام على اقتناء هذه « الجولات » ، حتى نفدت الطبعة الأولى ، وهأنذا أحقق اليوم رجاء الكثيرين ممن لم تسعد « جولاتى » بشرف اقتنائهم لها ، فأقدم الطبعة الثانية بعد أن أعملت فيها يد التهذيب ، وأضفت إليها من مذكراتى بعض ما كنت قد أغفلت نشره فى الطبعة الأولى .

وإنى لسعيد إذ أرى « مصر » تسمو بدراسة الجغرافيا إلى العناية بوصف الشعوب وحياة الإنسان ، تلك الناحية التى قصدت إليها جولاتى هذه .

ولقد زادنى غبطة مالاحظت من أن كثيراً من الإخوان تتجه عنايتهم إلى الرحلات ، حتى لقد تحدّث إلىّ فى ذلك غير قليل من حضراتهم ، ولعلهم يحرصون على تدوين مذكرات ينشرونها بعد عودتهم ، حتى نستطيع بجولاتهم وجولاتى أن نزف إلى أبناء هذا الوطن العزيز ، بلغته العربية « كتاب الدنيا » يطالعون فيه أحوال شعوب تقدمت ركب الأمم ، وأخرى تخلفت ، وعسى يكون لنا من هذه أحسن العبر ، ومن تلك أجمل الأثر .



قطعنا خلال سفرنا زهاء خمسة عشر ألف كيلو متر نصفها بالسيارات أو بريد

في ربوع الشرق الأدنى

الى فلسطين الأرض المقدسة

كنا فى القنطرة السادسة مساء وعبرنا قناة السويس فى سابحة بخارية صغيرة أعدتها الشركة ليعبر الناس عليها القناة إلى أرض طور سيناء ، وفى القنطرة الشرقية أقلنا القطار فى منتصف الليل وأوغل بنا فى الصحراء . وفى باكورة الصباح تفتحت عيوننا على :

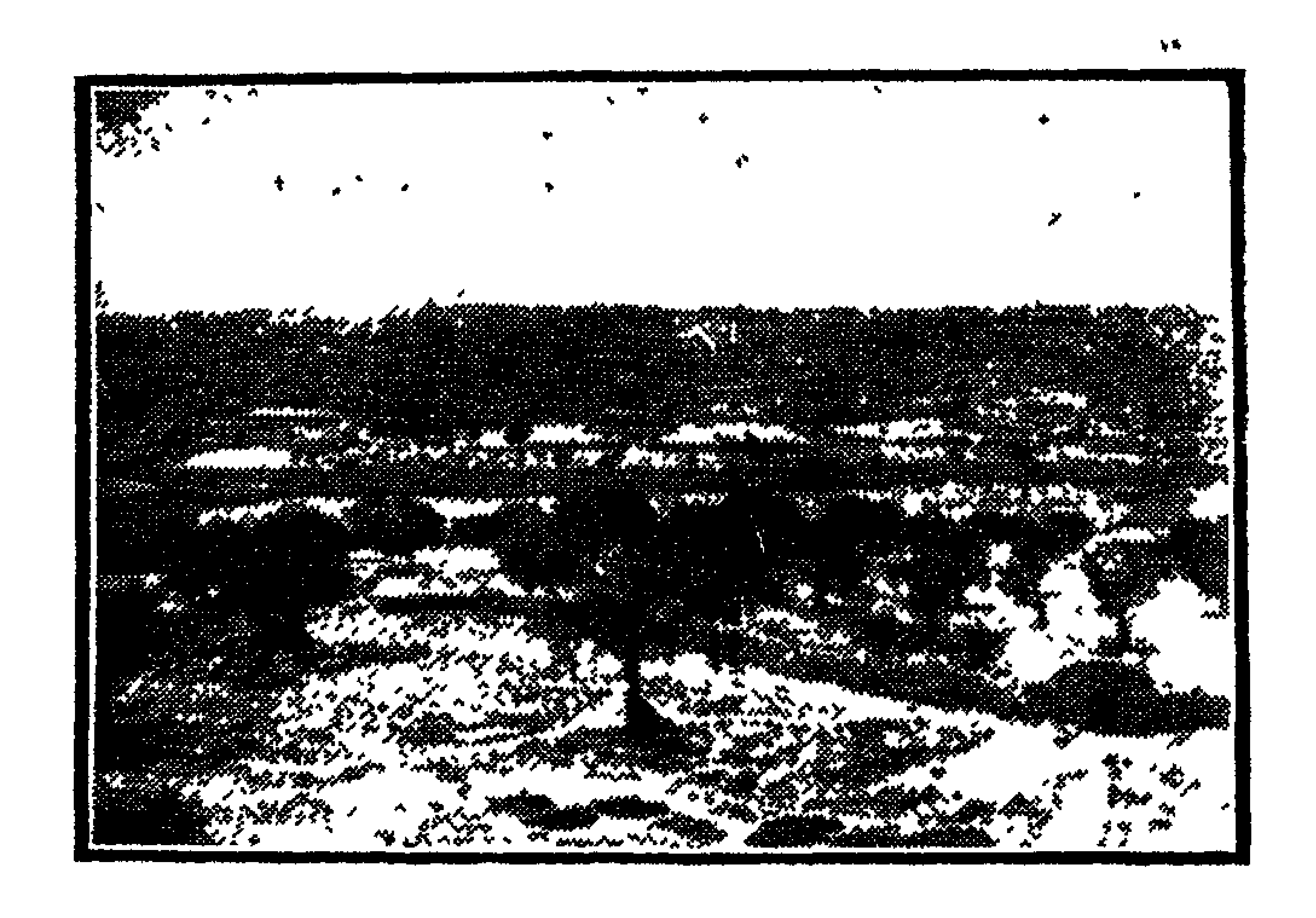
غزة : مولد الإمام الشافعى وهى بلدة صغيرة قامت حولها بعض المزارع الفقيرة ، ثم أخذ الزرع يتزايد فى بقع متناثرة فى الصحراء حيث تكثر العيون وخصوصاً على المنحدرات التى كان يكسوها شجر الفاكهة فى صفوف منسقة بديعة تمر خلالها مجارى الأسمنت للرى . وقد كانت كثرة الشجر خير مؤيد لما نعرفه من شهرة المكان بالفاكهة . ثم وصلنا محطة :

اللد : وكان الشجر حولها وفيراً وهنا غيرنا القطار الذى قام بنا صوب القدس فأخذنا نوغل فى وديان ملتوية معقدة آخرها بالغ الامتداد غير ذى زرع . وكان القطار يجد صاعداً خلال كل أولئك فى جهد كبير ، وقد زود بقاطرتين معاً . وفى منتصف العاشرة دخلنا :

بيت المقدس : فأويت إلى نزل (أوليفيت) الجميل يديره صاحبه الوطنى الذى شراه من الانجليز ويقوم عليه خير قيام . أما القدس فبلد كأنه أقيم على مجموعة تلال فى ارتفاع ٢٤٠٠ قدم . طرقه نسير فى ليات عجيبة ونهوى آناً وتصعد آناً فى منحدر وعر ، وقد يرتقى الواحد من طريق إلى آخر بدرج مرتفع يناهز الخمسين سلماً . والمدينة جد نظيفة وساعد على ذلك أن تربتها صخرية محدبة

لا تكاد تجد أثراً للتراب فى أرضها و بيوتها من صخر الجير يبدو فى ألوان طبيعية أبيض وأحمر وأخضر ، وللقوم مهارة خاصة فى نحته واقامته بحيث يبدو فخماً جذاباً رغم أنه لا يغشاه فى ظاهره ملاط ، وغالب المساكن من طابقين إلا بعض المنشآت الحديثة . وكم كان يدهشنى اختلاف الأزياء والأجناس بكثرة لم أعهدها فى أى بلد آخر مما أيد أن ذاك المكان المقدس أضحى بلداً عالمياً ، فالناس من مذاهب شتى وديانات مختلفة ولكل زيه الخاص . فالعربى القح يلبس الصوف وعلى رأسه العقال وسواد الناس يلبسون الطربوش وسراويل تحبك حول الساق وتنتفخ حول العجز ، والبعض يلبس القفطان وعليه الحزام المعوج الجذاب نساء ورجالاً ولعل أعجب الأزياء تبدو فى طائفة من اليهود الرجعيين فتراهم يرسلون لحاهم وشعر رؤوسهم و يدلون منه ذؤابتين طويلتين أمام الأذنين فى شكل يسترعى الأنظار ، والنساء يخرجن وعلى وجوههن قناع أسود ثقيل . ومن أخص ما ترى فتيانهم الذين يحملون وراء ظهورهم سلالاً كبيرة تكاد تخفى قامة الغلام منهم و يسيرون على غير هدى علهم يجدون مرتزقاً فى حمل متاع الغير فى تلك السلال ، ونغمة الحديث عجيبة قد تثير الضحك إذ يميلون الحروف و يمدونها و يتصرفون فى حروف الجر تصرفاً مدهشاً و بخاصة (الباء) فيقولون مثلاً إن فلاناً نزل بيافا ، وسمعت أحدهم يقول لرجل زلت قدماه أمام حانوته : (ليش بتوقع بيمكن العمى بيصيبك) فى مد عجيب فتقبلها المخطىء ومضى فى سبيله لأنى لاحظت أنهم لا يميلون إلى النزاع والمشاكسة ، وهم كرام النفوس وديعون مؤدبون فما سألت أحدهم شيئاً إلا وحاول أن يهدينى فى رغبة و بشاشة فإن قلت (متشكر) أسرع قائلاً (أستغفر الله) ، وهم يودون المصريين و يذكرونهم بخفة الروح حتى سمعت أحدهم يقول لجاره : (أين خفة الدم المصرى يجتمع إلى الجمال الشامى) .

نبذة تاريخيه : فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد هاجر إبراهيم من كالديا أو العراق موطنه إلى أرض كنعان ، كما روى التوراة ، ولكى يحسم النزاع



(شكل ١) منظر عام للقدس من جبل الزيتون

الذى شجر بين آله و بين قوم لوط خير لوطاً أن ينتقى لقومه البقعة التى يريد ، فاختار أرض الأردن الخصبة فهاجمه أهل البلاد وأسروه فسارع ابراهيم إليه ونجاه ولما عاد إلى معسكره قدم له حليفه الكنعانى ملك سالم (أو أورو سالم أو جيرو سالم) الخبز والنبيذ ، وقد ورد ذكر أورو سالم فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد فى ألواح خطت بالبابلية عثرنا عليها فى تل العمارنة ، وفى سنة ١٢٥٠ ق م احتل بنو إسرائيل القسم الأكبر من أرض الميعاد أو (الأرض الموعودة) ، وفى ١٠٥٠ ق م اغتصب القدس داود من الكنعانيين وهم أجداد السور يين الحاليين واتخذها عاصمته ومحا اسمها الكنعانى وأسماها مدينة داود ، وقد زاد فى تجميلها سليمان ، و بنى فيها معبداً فاخراً بمساعدة صديقه (حرام) ملك (صور) وغزاها شيشاق فرعون مصر سنة ٩٧٠ ق م . ثم تتالت الغزوات وحملت كنوز المعبد إلى بابل وأسر ملك القدس ، وفى ٧٢٢ ق م دمر ملك بنى إسرائيل هناك ، وفى ٥٨٦ ق م حوصرت القدس ودمر المعبد وأخذ اليهود أسرى إلى بابل بأمر بختنصر و بذلك انتهى ملك يهوذا .

ولما هزم كورش الفارسى بابل أعاد لليهود أملاكهم سنة ٥٣٨ ق م . و بعد

هزيمة دارا أمام الإسكندر الأكبر اجتاح جيش مقدونيا سوريا ، وكتب الإسكندر لقساوسة القدس يدعوهم إلى تقديم الطاعة فرفضوا لكنه لما تحرك نحو القدس لاقاه شيخ القسس فيها محتفلاً مرحباً فدخلها فاتحاً و بعد موت الإسكندر ظلت الثقافة الأغريقية هي السائدة زمناً ، وحلت اللغة الآرامية — وهي لغة السوريين الأقدمين — محل العبرية ، وما لبث ملك سوريا أن باغت المدينة سنة ١٦٨ ق م ودمرها ودنس المعبد لأنه ألزم اليهود أن يذبحوا الخنزير في المذبح المقدس . فأهاجت تلك الإهانة اليهود ، وحفزتهم أن يثوروا على سادتهم ملوك سوريا . وكان قائدهم يهوذا الذي هزم جيوش سوريا سنة ١٦٤ ق م .

عاود السوريون الحصار بعد ذلك . ولما جاء يوليوس قيصر في طريقه إلى مصر أقام من قبله ملكا عربياً على أرض يهوذا فقتل ، ثم أعقبه ابنه (هيرود) ففتح القدس بمعاونة الروم . واشتهر بمبانيه العظيمة ، و بخاصة لما أعاد بناء المعبد وفي عهده بلغت القدس أوج عظمتها ، لذلك سمي (هيرود الأعظم) ، و بينما كانت القدس تتيه فخراً تحت ملكها العربي وضعت مريم المسيح بمعجزة في فندق حقير من بيت لحم . وكان ذلك سنة ٤ ق م في الثالثة والثلاثين من ملك هيرود الأعظم . ولما ذهب عقلاء القوم يقدمون خضوعهم لذلك المولود غضب هيرود ، وأمر بجميع الأطفال أن يذبحوا ليتخلص من المسيح ، فأوحى إلى يوسف أن يهرب بالطفل وأمه إلى مصر . فظلوا بها حتى مات هيرود . وفي سنة ٣٠ م حوكم المسيح أمام خيفة هيرود الذي قضى عليه بالصلب .

لبث الروم يقاتلون القدس مراراً ليقمعوا ثورة اليهود بها . وكان أشد حصار وقع زمن تيتوس حتى قيل إن الحاجة دفعت بالأمهات أن يأكلن أطفالهن ، ولما دخلها تيتوس دمر المعبد أولا والمدينة كلها تدميراً تاما ، فحقت كلمة المسيح فيها : (لن يستقر حجر على حجر في القدس الخبيثة) ، وفي سنة ٣٣٠ م . لما أن أصبحت النصرانية الدين الرسمي لروما ، بنى

قسطنطين كنيسة فى مكان كنيسة القيامة ، وأخرى فى مكان الصلب ، وثالثة فى بيت لحم ، و بعد ذلك حاول اليهود إعادة معبدهم لكنهم فشلوا ، وأصبحت القدس مزار الحجاج من المسيحيين . وفى سنة ٦١٤ م فتحها كسرى وذبح تسعين ألف مسيحى . لكنه هزم ووقع فى الأسر ، وما لبث أن داهمها الإسلام فى واقعة اليرموك ، وأمن عمر النصارى ، و بنى مسجد الصخرة ، وسمى البلدة بيت المقدس .

(شكل ٢) سور القدس
ونرى باب الخليل وتحته باب يافا أو برج داود
وفى مكانه كان يقوم قصر هيرود

وفى عهد عبد الملك بن مروان أقيم المسجد بشكله الحالى (سنة ٦٩١) لينقص من نفوذ مزاحمه عبد الله خليفة مكة : ولا يزال المسجد يحمل اسم عمر . أعقب ذلك نفوذ الفواطم الذين قسوا على المسيحيين ثم جاء بعدهم السلاجقة ثم العباسيون ، وفى ١٠٩٣ عاد الفواطم واستبدوا بالنصارى فكان ذلك سبباً فى بدء الحروب الصليبية .

ولما انتصر النصارى فى الحرب الأولى اقتسموا الغنائم ، وكان آخرها كنوز المسجد والصليب الأول ، وفى الثانية نغلب بطل الإسلام صلاح الدين وأسر النصارى بشهامته وحسن معاملاته . وفى الثالثة هلك من خيرة شبان أوروبا وملوكها وأمرائها نحو نصف المليون أمام المسلمين ولم يستطيعوا انتزاع القدس من صلاح الدين . ولعل أغرب الحروب الصليبية حرب الأطفال . وفيها شحن الأوروبيون سبع سفن كبيرة بالأطفال . أقلعت من مرسيليا سنة ١٢١٢ إلى

الأراضى المقدسة لـكن خمساً منها رست على الإسكندرية فأخذ الأطفال أسرى واثنتان كسرتا وغرق من فيهما .

وفى الحرب السابعة كانت خسارة النصارى بالغة ، إذ أسر ملك فرنسا نفسه فى مصر .

وفى ١٥١٧ خضعت بلاد الشام ومصر لسليم الأول سلطان تركيا ، وظلت القدس ملكاً للأتراك إلى سنة ١٩١٨ حين فتحها لورد اللنبى فأضحت إنجليزية ، فكأن الحكم الإسلامى ساد البلاد بين ٦٣٦ ، ١٩١٨ .

وفلسطين اليوم قسمان : شرق الأردن وعاصمته عمان وهى فيلدلفيا القديمه ، ويحكمها الأمير عبد الله . وفلسين ويحكمها مندوب سام ، وعاصمتها القدس التى يبلغ سكانها نحو الخمسة والستين ألفاً . ومجموع سكان البلاد كلها دون المليون ، منهم ٦٧٠ ألفاً من المسلمين . و ١٧٥ ألفاً من اليهود ، و ٩٠ ألفاً من المسيحيين ، أما سكان شرق الأردن فدون ثلث المليون ، رغم أن مساحتها ضعف مساحة فلسطين وأغلبيتهم الساحقة من المسلمين .

فى القدس : بدأت زيارتى بباب الخليل وهو أجمل أبواب أسوار القدس وسمى كذلك لأن الطريق إلى الخليل يبدأ منه ، وقد كتب على مدخله (لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله) وكان يسمى قديماً : باب المحراب ، أى محراب داود ، ويعتقد الكثير أن المسيح الدجال سيهزم ويذبح تحت هذا الباب . وبعد أن جزت الباب سرت فى دهليز حجرى منحدر كثير الليات يسمونه (سوق البازار) ويحكى أسواق الغورية عندنا إلا فى أرضه الحجرية المدرجة ومنه عرجنا على :

طريق الآلام : وفيه حمل المسيح الصليب الكبير وقطع به الطريق كله وقد أعياه ثقله فوقف اثنتى عشرة مرة متوجعاً ، وقد عرف القوم تلك النقط ووضعوا علامات تميزها ، وفى الموقف الرابع قابلت العذراء ابنها المسيح وهو يسير إلى القتل ، وفيها أقام الأرمن كنيسة ، وفى المحطة السادسة تقدمت

القديسة فيرنوشيا تمسحت عرق المسيح وفازت بطابع وجهه المقدس على منديلها ، وفى الثامنة خاطب المسيح بنات القدس قائلاً : لا تبكوا علىّ بل ابكوا ضحايا القدس من الشباب ، وفى الحادية عشرة أمر المسيح أن يخلع ثيابه قبل الصلب ، ثم وثق إلى الصليب ودقت فيه أطرافه ، وفى الثانية عشرة رفع الصليب ونبت فى الحائط بثقوب رأيناها واضحة وإلى يسارها شق طويل ملىء بالنحاس ويقولون أنه من أثر الزلزال الذى هز العالم عند ذاك ، وفى الثالثة عشرة



(شكل ٣) وسط طريق الآلام حيث سار المسيح عليه السلام يحمل الصليب

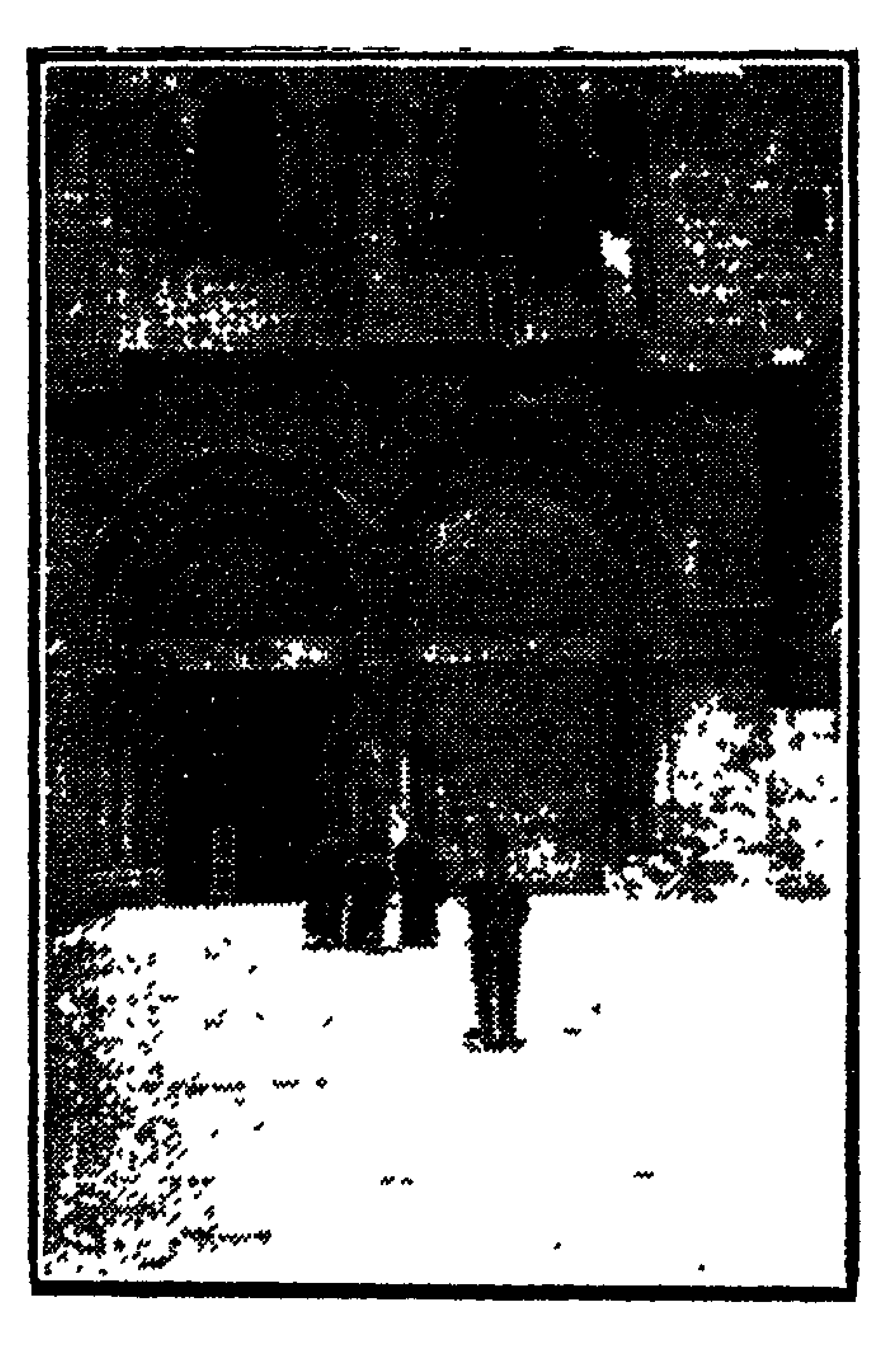
أنزل الصليب وتسلمت مريم جثة ابنها وآخر النقط وهى الرابعة عشرة فى قلب كنيسة القيامة حيث دفن المسيح ، ومدخلها ناعم زلق من كثرة ما لمسها من أرجل الحجاج على كر السنين وحارس الأبواب مسلم بيده مفاتيحها ليحسم النزاع بين الطوائف المسيحية المختلفة التى تنازعت الأمر طويلاً ، وقد شاهدنا داخل الكنيسة الصخر المقدس الذى غسلت عليه جثة المسيح ، وفى مقصورة إلى جواره يضيئها خمسة عشر مصباحاً من فضة حجر الرخام الذى كان يغطى القبر فدفعته الملائكة إلى مكانه هذا وإلى يمين المقبرة يغطيها حجر يستخدم الآن مذبحاً للقرابين ، وثم هيكل النشور الذى تجلى فيه المسيح ومما راعنا منظر مغارة غائرة يسمونها : سجن المسيح قيل إنه سجن فيها وأجلس فوق صخرة بها نقبان أدخل الفخذان منهما ووثقا ، ثم شحذ الذراع إلى نقبين رأيناهما وراء ذلك وبعد تلك

لمغارة مغارات عدة سجن فيها أتباعه وكلها مرطوبة مظلمة رهيبة ، وهناك هيكل السخرية . سخر الجند عنده من المسيح وتوجوه بتاج من شوك تهكما وتقريعاً .
ويزين المدينة :

الحرم الشريف : أو مسجد عمر . أقيم على أنقاض معبد سليمان فوق تل زيون الشهير وفوق أطلال قصر هيرود الأكبر ، والمسجد فى متسع ذرعه ١٤٥ ألف متر مربع على جبل (موريا) الذى كان ملكاً لأروانا ، ومنه شراه داود . وهنا شرع إبراهيم فى ذبح ابنه ضحية على الصخرة الموجودة هناك ، وقد بنى الهيكل داود بأمر سليمان و إرشاده حوالى سنة ٩٦٦ ق م ، واستحضر له المهندسين والأخشاب من لبنان وتم بناؤه فى سبع سنوات ونصف وقيل إنه كلف خمسين مليون جنيه ، وفى سنة ٥٨٨ ق م خربه بختنصر ، لكن اليهود أعادوه لما أن عاد لهم الأمر سنة ٥٢٠ ق م . ثم حوله جستنيان إلى كنيسة وأقام المسلمون عليه بعد ذلك المسجد الأقصى . ولما دخل عمر القدس كان موضع المعبد أطلالاً مطمورة . فأزاحها وأقام مسجداً مؤقتاً للعبادة أعقبه مسجد الصخرة . وللحرم الشريف سور يطوقه (١٦٠١ قدم فى ١٥٣٠ فى ١٠٢٤ فى ٩٢٢) . وفى داخله رأينا ثلاثة أبنية رئيسيه : قبة الصخرة وقبة السلسلة والمسجد الأقصى ، وهناك كثير من الأسبلة والمصاطب والمحاريب والقباب منثورة فى غير نظام .

قبة الصخرة : تقام على مثمن قطره ١٧٧ قدما ولها سبعة أبواب تولى شطر الجهات الأربع . والغربى منها يسمى باب الجنة و يصلى على الأموات فيه عادة . شيده مروان خليفة دمشق ليظهر على خلفاء مكة منافسيه سنة ٦٩١ . وقيل إنها كلفته سبعة أضعاف خراج مصر . أما صفحات ذلك المثمن من الخارج فيكسى نصفها الأسفل بالرخام المجزع والنصف الأعلى بالقيشانى فى ألوان عدة أظهرها الأزرق والأخضر فى ابداع دونه كل وصف ، وتزين الأعلى آيات الذكر الحكيم بالخط الكبير و بخاصة سورة (يس) ، وقد جمل ذلك القيشانى سليمان

القانونى . وأقام القبة نفسها الحاكم بأمر الله سنة ١٠٢٢ من خشب مرصع علوه ٩٦ قدماً وقطره ٧٥ وتكسى من خارجها بالرصاص وترفعها من داخلها أعمـدة تيجانها ورؤوسها بيزنطية ونوافذها مخرمة فى أشكال هندسية جذابة يغشاها الزجاج بألوان تبهر النظر تتجلى من الظلام الرهيب الذى يسود داخلها ، وفى جانب منها كتب بالخط الكوفى أن مؤسسها هو هرون الرشيد سنة ٧٢ هجرية مع أنه حكم بين سنتى ١٩٧ و ٢١٨ ولذلك



(شكل ٤) أمام كنيسة القيامة

ظن أنه محا اسم مروان بانيها الأصلى ونقش اسمه وعفل عن التاريخ

والصخرة المقدسة ذات شكل غير منتظم طوله ٥٨ قدماً وعرضها ٤٤ ، ويقال أن النبى لما عرج إلى السماء على البراق من فوق تلك الصخرة التصقت بحوافر جواده وأخذت تصعد معه حتى جاء جبريل ودفعها إلى الوراء ، وقد أشار الدليل إلى موضع أصبع جبريل واضحاً هناك وإلى جوارها صخرة عليها طابع قدم الرسول وفوقها شعرتان من لحيته ، وبجوار ذلك سيفه وعلمه وعلم من أعلام عمر . نزلنا تلك الصخرة فبدا جوفها كأنه مغارة مظلمة فى تجويف وسط الصخر يرن عالياً إذا ضرب باليد ويخال القوم أن ذاك المكان ملتقى الأرواح بعد الموت ، ومن ثم أسموه بئر الأرواح

وبناء قبة الصخرة فوق مرتفع من الصخر نعلوه بدرج محيط بها من جميع نواحيها ، وفى أعلى كل درج أقواس الموازين . ويقولون إنه فى اليوم الآخر

ستعلق الموازين فيها لتزن أعمال الناس جميعاً ، فمن رجحت موازينه فهو فى عيشة راضية .

أما قبة السلسلة فتجاور قبة الصخرة بناها مروان كأنموذج للقبة الكبرى ، وهى تقوم على سبعة عشر عاموداً رتبت فى دائرتين متحدتى المركز بحيث يمكن أن ترى كل الأعمدة فى وقت واحد ، ويقولون إن سليمان الحكيم علق فى هذا المكان سلسلة لكشف شهود الزور الكاذبين ، فالصادق يستطيع أن يمسك بها ، أما المزور فلم يكن يمكنه ذلك ، ومن ثم سميت قبة السلسلة .

وذاك النجد الذى أقيمت فوقه القبتان لا شك كان موضع ضرب الغلال (لاروانا) وفوقها أقام داود مذبحه وأعقبه سليمان ، وهى مقدسة عند اليهود والمسيحيين والمسلمين معاً ، وقد شراها داود بخمسين (شكلا) من فضة من أروانا الجبوسيتية ، والجبوسيت أول قوم حلوا القدس ، وقد بنى داود مذبحه فوقها شكراً لله الذى دفع عنهم شر طاعون كاد يودى ببنى إسرائيل ، وقد أرسل سليمان إلى حيرام ملك صور فأمده بمهندسين من فينقيا وزوده بالأحجار وخشب الأرز ، وأقام أول معبد ثابت لليهود كان آية فى الفخامة يمثل حقاً عظمة سليمان ، وظل حتى كانت سنة ٥٨٦ ق . م حين أغار على القدس ملك بابل بختنصر فأحرقها ودمر المعبد عن آخره ونقل نفائسه غنيمة إلى بابل ، وممن أسر من أنبياء بنى إسرائيل (عزقل أو ذو الكفل) ، وبعد خمسمائة سنة سمح كورش لليهود أن يعودوا إلى القدس ويحملوا نفائس معبدهم القديم ويقيموه من جديد ففعلوا ، وفى سنة ٤٠ ق م جاء هيرود ملكا على أرض يهوذا من قبل أنطونيوس وأقام المعبد ثانية إرضاء لليهود ، واستغرق إتمامه ثمانين عاما ، وفى سنة ٦٦ م قامت ثورة هائلة فى القدس ، وفى سنة ٧٠ أحرق المعبد ودمر عن آخره فى نفس اليوم الذى دمر فيه معبد سليمان من قبل

المسجد الأقصى : إلى جنوب قبة الصخرة زرنا قبة أخرى دخلناها فى

بهو من أعمدة عظيمة الامتداد أدى بنا إلى قبة فاخرة مزركشة تحتها محراب هو آية فنية . ويسمونها المسجد الأقصى لأنه أقصى مكان وصله الرسول بالبراق ، وصعد إلى السماء وافداً من مكة إلى الأراضى المقدسة ليلاً ، وذاك المحراب مطعم بالعاج ترصعه اللآلىء أقامه السلطان نور الدين سنة ١١٦٨ وجمله صلاح الدين وإلى جانب من المنبر قبلتان : واحدة للمسيح ويظهر فيها أثر قدمه . والثانية لموسى عليهما السلام ، وعلى كل جانب من مدخل المنبر عمودان قريبان كان

(شكل ٥)
المسيح عليه السلام داخل كنيسة القيامة

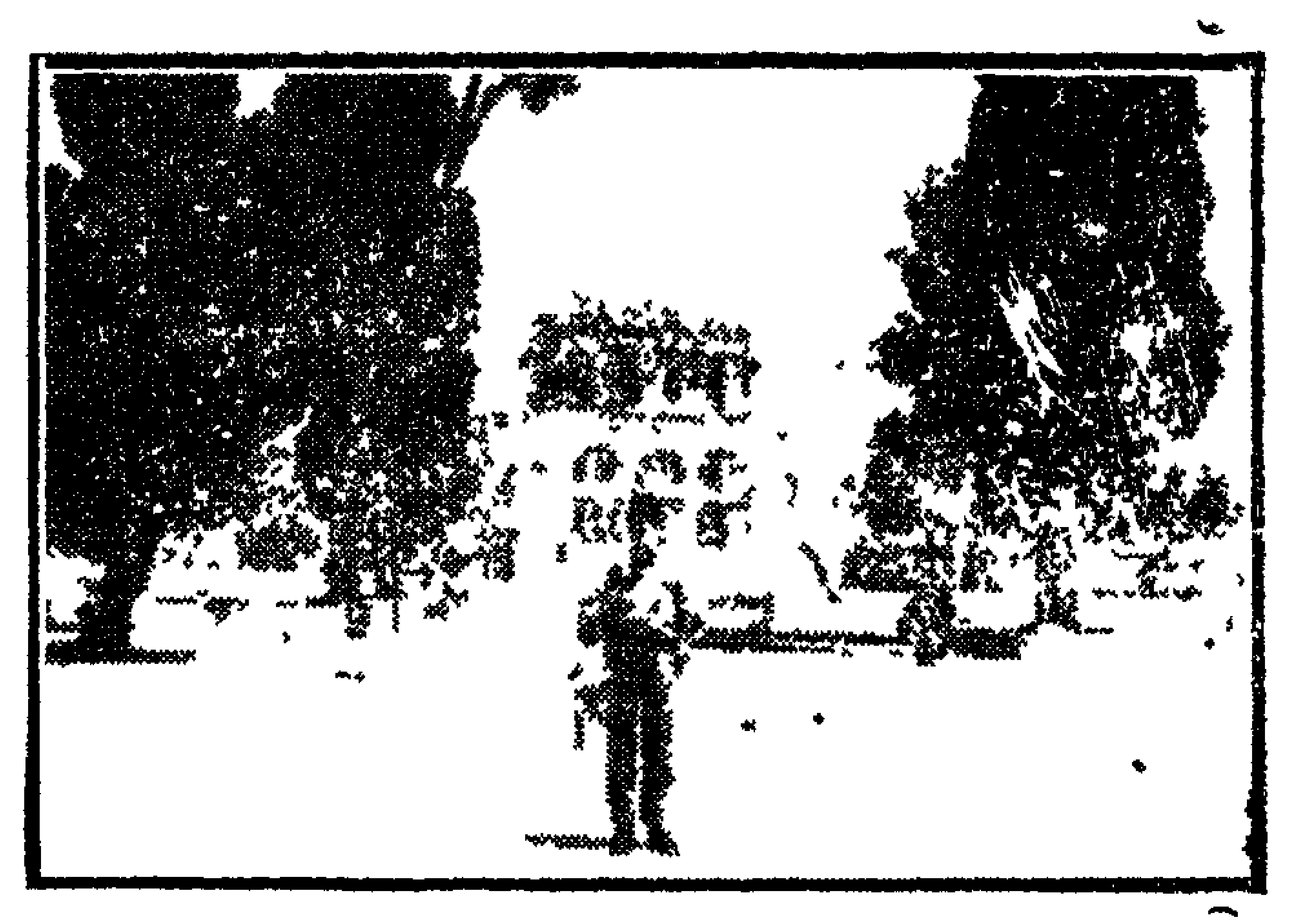
يعتقد الناس أن من يمر بينهما يدخل الجنة وإلا فهو من أهل الجحيم . وحدث مرة أن جاء رجل بدن كبير الجثة وحاول المرور من بين العمودين فحشر ومات ، ومن ثم سد ما بين الأعمدة ليمتنع وقوع ذلك .

وإلى جوار الأسوار فى الجنوب الشرقى اسطبل سليمان نزلناه بدرج تحت أرض الحرم وإذا به مجموعة من أبهاء وأقبية تقوم على أعمدة كان سليمان يربط خيله فيها ، وقد قلده الصليبيون ففعلوا ذلك فيما بعد . ويقال البعض أن البناء من عهد هيرود الأكبر ، وفى غرفة مجاورة مهد المسيح قيل إن مريم عرضت ابنها فى المعبد عليه ، وإلى جانب الاصطبل فيما جاور قبة الصخرة : الباب الذهبى أو محبس الجن ، كان يحبس سليمان فيه الجن متى شاء ، ويظن أنه أقيم فى مكان باب شوشان الذى بناه هيرود . ولقد سده المسلمون لأن هناك خرافة تقول بأن

النصرى سيغزون الحرم يوما و يدخلون من ذاك الباب . و يجاور ذلك عرش سليمان الذى كان يجلس عليه ، وقبلته من الخلف جبل الزيتون الذى كان يأوى إليه المسيح للتعبد بين أشجار الزيتون . و يقول الناس إن السراط سيمتد يوم القيامة بين هذا المكان و بين قبة الصعود قبالته فوق جبل الزيتون . وسيمسك النبى بطرف السراط من فوق صخرة رأيناها بارزة على سور الحرم ، والطرف الثانى للسراط سيمسكه المسيح ثم يمر الناس جميعاً من فوقه فمن جازه نجا و إلا فالويل لمن هوى .

مبكى اليهود : و يسمونه أحياناً البراق . حائط هائل خارج الباب الأوسط للحرم الشريف ، أقيم من كتل الصخر الكبيرة ، ينبت العشب خلال شقوقها ، وهو الحائط الوحيد الذى بقى من معبد داود القديم ، لذلك يتخذه اليهود مبكى لهم يأوون إليه . و بخاصة يوم السبت والجمعة عند الغروب ، وكذلك فى أعيادهم . و يقف الرجال فى ركن والنساء فى الآخر وهم يبكون و يرتلون ويندبون ملكهم القديم الزائل ، و يسألون الله أن يعيده إلى مجده السالف ، ومنظرهم وهم خشوع رهيب . و يزيدهم رهبة أن غالب القوم يلبسون قبعات من و بر أسود فاحم كأنها حلقات غليظة . وتتدلى شعورهم من رؤوسهم ولحاهم فى جدائل تسترعى النظر . و يقف جندى البوليس هناك ولا يبرح المكان لا ليلاً ولا نهاراً لأن الحائط منبعث نزاع متواصل بين المسلمين واليهود ، إذ كل فريق يدعيه لمذهبه و يقدسه .

بيت لحم : ثمت إليها فى سيارة لأرى قرية المسيح التى ولد فيها هو وسيده داود . أهلها جلهم من النصارى الذين يفاخرون بأنهم يمتون بصلة القرابة إلى المسيح نفسه . و بيت لحم قرية صغيرة وسط الجبال ، تقوم بيوتها من حجرة بعضها فوق بعض . و أقدس مكان بها كنيسة مريم أقدم كنائس الدنيا مدخلها وطىء لا يكاد يسمح بالدخول إلا فى انحناء شديد وذلك اتقاء هجمات العرب والأتراك الذين طالما دخلوها بخيلهم ودوابهم ، وفى قلبها مغارة تجانبها



(شكل ٦)
قبة الصخرة الشريفة ومنها كان معراج النبي عليه السلام

صخرة مثقوبة فى شكل نجم كبير وتضيء من فوقها المصابيح أبداً وهو مكان ميلاد المسيح عليه السلام ويراقب هذا الموضع حارس مسلم ليمنع تعدى الطوائف المسيحية بعضها على بعض إذ كثيراً ما يشجر النزاع بينهم . هنا عطرنا القسيس بماء الورد المقدس الذى تبركنا به وانعشنا فى ذلك الحر اللافح ، وإلى جانب المكان بئر كانت تستقى منها العائلة المقدسة ويقولون ان النجم الذى هدى مريم إلى هذا المكان هوى إلى تلك البئر ! وإلى اليمين رأينا درجاً نزلناه إلى هيكل الأبرياء حيث ذبح هيرود أطفال بيت لحم جميعاً . وإلى اليسار الغرفة التى تلقى فيها يوسف الوحى ليهرب بالمسيح إلى ديار مصر .

وفى طريقنا إلى بيت لحم زرنا مقبرة راحيل أم سيدنا يوسف الصديق التى سرقها اليهود من المسلمين وهى المكان المقدس الوحيد الذى ظل فى أيدى اليهود إلى اليوم .

وعلى بعد عشرين كيلو متراً من بيت لحم بلدة الخليل ، وفيها مدفن ابراهيم الخليل وزوجه وأولاده ويوسف الصديق وكثير غيرهم من الأطهار ، على أن البلدة ألفيناها قذرة مترِبة ، ومدفن ابراهيم داخل المسجد الذى لم يكن يدخله غير المسلمين إلى أمد قريب لكنهم اليوم أباحوا للنصارى الدخول مقابل رسم يدفعه الزائر قدره نصف جنيه . أما اليهود فممنوعون من دخوله رغم أن البلدة كلها من بلادهم المقدسة .

جبل الزيتون : أحد الجبال التى تحيط بالقدس . ويقع شرقها ويبلغ علوه ٢٦٨٠ قدماً كان المسيح يتريض فيه ويخلو بنفسه ليتعبد ويناجى ربه ، ومنه دخل المقدس يمتطى حماره فانتصر وتوج ملكاً . وفى حدائق الجبل خرج عليه تابعه (يهوذا) ودل اليهود على المسيح سيده ، ومن ذروة هذا الجبل صعد المسيح إلى السماء . سرنا إلى ذاك الجبل المقدس صعداً على أقدامنا ، وفى طريقنا إليه زرنا مقبرة مريم أم المسيح فى مغارة سحيقة نزلنا إليها بدرج عظيم رهيب ، وقد أقيمت فوقها كنيسة ، وقد شربنا هناك من مياه بئر مريم الطاهرة . ثم مررنا بعد بمقابر الثلاثة آلاف جندى بريطانى ماتوا فى الحرب الكبرى ، وبعدها زرنا كنيسة ألمانية فاخرة حديثة البنيان ، وفى ذروة الجبل وصلنا إلى مسجد صغير إلى جواره قبة تحتها موطىء قدم المسيح يوم صعد إلى السماء من هذا المكان وتصف خارج القبة مذابح متعددة للطوائف المسيحية المختلفة يتسلم مفاتيحها حراس مسلمون خشية النزاع الطائفى ، وفى هذا المكان يقيم النصارى شعائر (تقديسهم) وينصبون خيامهم فى الموسم ويقيمون فيها حول القبة أياماً ولن أنسى مشهد مدينة القدس كلها من خارج تلك القبة ، ومن قمة مئذنة المسجد إذ تجلت فى رواء وروعة دونها كل وصف . وفى أسفل القبة على منحدر الجبل بستان ناجى فيه المسيح ربه وتعبد بينما كان صحبه نياماً ، وهنا قبض عليه اليهود وتكاد تكسو الجبل غابة من شجر الزيتون العتيق المتفرق ، وقد وقفنا تحت شجرة منه يقولون عنها أن عمرها يزيد على تسعمائة سنة وتسمى شجرة الآلام ، وفوق الجبل عدة كنائس فاخرة لم يتح لى الوقت زيارتها

الى البحر الميت : أو بحر لوط . أقلتنا إليه سيارة الأمنيبوس فأخذنا نسير فى طرق ملتوية تعلو وتهبط فى مهاوى مخيفة ، وكانت تحوطنا الربى المجدبة إلى الآفاق وبعد أكثر من ساعة ونصف بدا البحر الميت على بعد تحده من شرقه جبال (مواب) المقدسة . تجلى فى بساط أملس من الماء الأزرق القاتم ،



(شكل ٧)   الباب الذهبي أو محبس الجن بجواره عرش سليمان الحكيم وبينه وبين جبل الزيتون قبالته سيمد السراط يوم القيامة

وكان الاغريق والرومان يسمونه بحر الأسفلت لكثرة ما أمدهم من تلك المادة ، امتداده ٤٨ ميلاً وعرضه عشرة بحيث يعادل فى مساحته بحيرة جنيف ومستوى مائه دون مستوى البحر بمقدار ١٣٠٠ قدم ، فهو بذلك أحط منخفضات العالم أجمع ، وأعماقه سحيقة تبلغ فى بعض جهاته ٢٣١٠ قدم . ويصب فيه من جنوبه نهر الأردن ويسميه الناس (نهر الشريعة الكبرى) ورغم أنه يغذيه بنحو ستة ملايين ونصف مليون طن من الماء فى اليوم فإن أملاحه آخذة فى الزيادة السريعة لشدة البخر حوله حتى بلغت نسبة الملح فى مائه ٢٥ ٪ ، ومن هذه الأملاح ٣٤ ٪ من ملح الطعام ، و ٦ ٪ كلورور البوتاسا ، و ١ ٪ بروميد المغنزيوم . وقد حسب مقدار ما يحوى من أملاح وقدر بنحو ثلاثين ألف مليون طن منها ١٥٠٠ مليون طن من البوتاسا ، ومن ثم عدت فلسطين من أغنى بقاع الدنيا بتلك المادة ، ولما ذقت ماءه كنت وكأنى وضعت فى فمى حفنة من ملح . وملمس الماء لبك . ولقد أخذت امتياز استغلاله شركة من يهود الإنجليز ، وقد مهدت النقل إليه بالأوتوبيس وأقامت هناك مقصفين ومسبحين . وهى تعد نزلاً

فاخراً . نزلت البحر لأسبح قليلاً فكان يصايقنى ملح الماء جداً ، إذ كان كأنه مادة كاوية فى العين والفم وكلما حاولت الغوص لم أستطع بل كان يدفعنى الماء إلى سطحه ، ولما شحذت جسدى لبثت طافياً فوقه زمناً طويلاً وكلما حاولت السباحة مالت رأسى إلى الغوص وظل الجسد طافياً . وهذا خطر السباحة فيه ويحق لهم تسميته بالبحر الميت لأن الحياة لا تكاد توجد به قط ، فبمجرد دخول السمك من نهر الشريعة إليه يموت و يجده القوم طافياً ، ونهر الشريعة ينبع من جبال لبنان و يدخل فى طريقه بحيرة جايلى ثم يخرج منها ليصب فى البحر الميت وفى هذا النهر عمد يوحنا المعمدان المسيح عايه السلام ، و يوحنا هذا هو المعروف عندنا باسم يحيى بن زكريا عليهما السلام .

وماؤه كدر اللون مبيض حتى بعد ترشيحه وطعمه لا بأس به سقانا غلام المقصف منه ماء مثلوجا ، وقد أقمت على ضفاف ذاك البحر ، وفى جوار نهر الشريعة نهاراً كاملا استمتعت خلاله رغم شدة القيظ ووهج ضوء الشمس المحرقة حوله فهو من أشد بقاع الدنيا حرارة فى الصيف .

عدت إلى القدس وقد عرجت على مدفن داود فى مقبرة غائرة تحت الأرض وسط مسجد داود الذى لا يدخله إلا المسلمون . و يقال أن سليمان مدفون معه ، وقد نقشت حول القبر الآية الشريفة (ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض) .

ومن أعجب ما أذكره للقدس شح مائها وندرته فأهم مستمد الماء هنالك أحواض يستقبل فيها مطر الشتاء لامداد البلدة . فاذا ما أقبل الصيف نصبت تلك الأحواض ، فكان المستمد الوحيد (برك سليمن) إلى جانب بيت لحم نطلق منها المياه مرتين فى اليوم لتسير فى أنابيب تؤدى إلى صنابير الطرق فى القدس ، وكنت أدهش لتزاحم القوم حولها قبل ميعاد فتحها بساعات و بيد كل منهم (تنكه) ينتظر ليملأها بثمن يكاد يفوق ثمن النبيذ الرخيص هنالك ، وكثيراً ما سمعتهم يقولون إن النبيذ أرخص لديهم من الماء العذب ، وفى كل بيت تجد موضعاً



(شكل ٨)   جماهير الأتقياء من اليهود يبكون إلى جوار الحائط المقدس

لادخار ماء المطر ستاء . وفى البيوت الكبيرة يبتاعون الماء بسعر المتر المكعب ثمانية قروش ، لذلك اعتاد القوم الشح الشديد فى الماء وعدم الاسراف فيه حتى أن متوسطيهم لا يغتسلون إلا مرة فى كل شهر مما جعل رائحة سوادهم منفرة .

الى يافا : أقلنى إليها الأوتوبيس فى نحو ساعة ونصف أو يزيد فسرنا فى طرق معبدة جميلة تلتوى فى صعود وهبوط لا يكاد يتصوره العقل : والطريق رغم طوله الهائل والياته التى تكاد تكون معقوفة على بعضها فى مواضع عدة كله بالأسفلت وجوانبه بالحجر ، وله حواجز بالبناء مما يشهد للانجليز بالفضل الكبير والعناية الفائقة فى تعبيد الطرق فكأنهم الرومان فى زمانهم حين عرفوا أن الطرق خير وسيلة ترتبط بها أطراف امبراطوريتهم و بخاصة فى زماننا التى سادت فيه السيارات ، ولما أن قاربنا جانب يافا كثرت منابت الزيتون والفاكهة و بعض الغلال كالذرة والشعير الذى يرويه القوم من مياه الأمطار والينابيع . وكنا نشاهدهم يدرسون الغلال على الطريقة المألوفة عندنا ، وكانوا أحيانا يسوقون طائفة من البهائم تدور حول الجرن وهى تدوس السنابل بحوافرها .

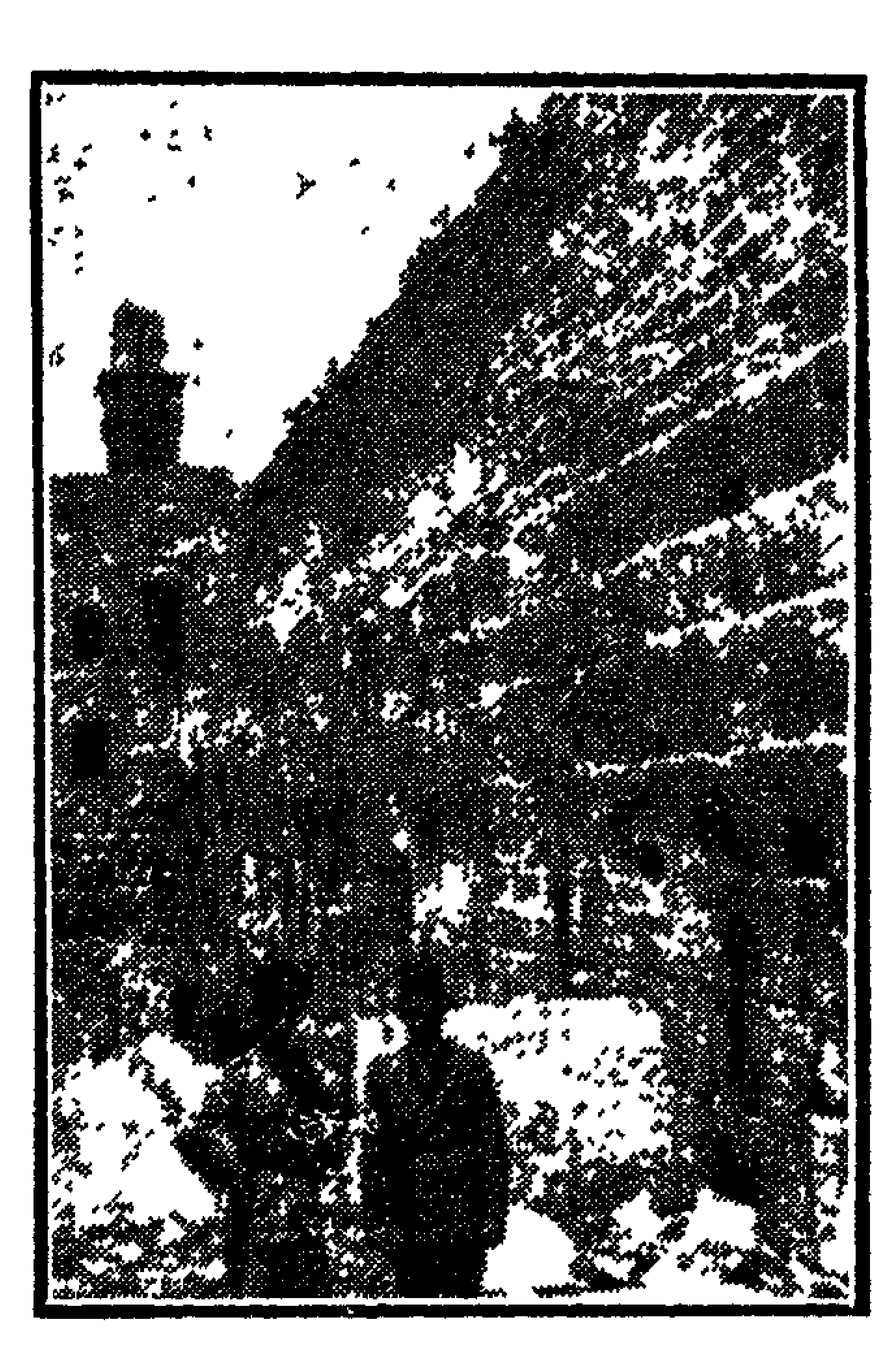
واسترعت أنظارنا بلدة (الرملة) الكبيرة ، اسمها القديم (أرام) و يقال إنه

مدفون بها ثلثمائة من الأنبياء والصديقين ، و بعدها غصت المزارع بأشجار البرتقال فى كثرة هائلة أيدت شهرة يافا به ، وأخيراً دخلنا المدينة و إذا بها ر بوة مشرفة على ميناء آمن لكن تعوزها النظافة والجمال ورغم قدم البلدة لم يبق الزمن بها من أثر ، وهى فى الأقاصيص المكان الذى ابتلع فيه الحوت سيدنا يونس ، وهى التى وهبها انطنيوس لكايوباترة دليلا على حبه لها ، وكان لها شأن مع صلاح الدين وقلب الأسد ، وكذلك مع نابليون بونابرت .

وجل سكانها من المسلمين ، وتجاورها ضاحية جديدة تسمى « تل أبيب » فى فلات أنيقة ، وتؤدى طرقها فى منحدر خفيف إلى البحر حيث أقيمت الحمامات وكل سكانها من اليهود ، ولقد طنطنوا فى وصفها فخلتها جنة نادرة المثال ، على أنى ألفيتها عادية .

ولقد استرعت نظرى حركة هجرة اليهود إلى أرض فلسطين ونشاطهم فى إقامة مستعمرات فى كل مكان هنالك حتى بلغ عددهم اليوم هناك مائة ألف نفس مع أنهم منذ مائة سنة لم يزيدوا على ثمانية آلاف ، ولقد نبتت فكرة الوطن القومى لديهم منذ ذاك الحين ، فأخذت الهجرة تزيد إلى فلسطين من جميع الآفاق وساعدهم كثير من مموليهم أمثال رتشلد على شراء متسعات من الأرض الزراعية حتى زادت مساحتها اليوم على مائة وعشرين ألف فدان فى الريف ، لكن لا يزال سوادهم فى المدن الكبيرة ، ففى القدس ٣٥ ألفاً وفى يافا ٢٠ ألفاً ، وكثير منهم فى حيفا وطبرية وصفد والخليل ، وفى تل أبيب وحدها أكثر من عشرة آلاف ، على أن اليهود لا يكونون أغلبية إلا فى القدس فقط أما فى سائر البلاد فهم أقلية بالنسبة للمسلمين ، وانجلترا اليوم جادة فى خدمتهم ومعاونتهم على جعل البلاد وطناً لهم ، لكن ذلك دفع المسلمين والمسيحيين أن يتضامنوا لمقاومة ذلك وكانت روح الكراهية والأهبة للقتال بادية لنا هناك ؛ وقد تجلت لنا فى معاكسة اليهود للمعرض العربى الذى أقيم هناك ، وكانوا معتمدين على الحراب الإنجليزية

لذلك لم أعجب لما قرأته عن الانفجار الأخير الذى رج البلاد وهدد بمتابعة الثورة حتى توقف حركة اليهود ، لكنها سياسة التفريق والتظاهر بمعاونة الأقلية هى التى تلعب دورها فى الشرق الأدنى كله ، خصوصاً وأن أمل انجلترا معقود على المقام فى فلسطين بعد أن بدا الضعف فى مركزها بمصر والعراق ، فقامت تشيد الحصون ، وتقيم المين للأساطيل وبخاصة فى حيفا ، وتحرض اليهود على الهجرة إلى هنالك لأنهم أطوع لها من الأعراب الذين أوتوا من العصبية وروح المقاومة شيئاً كثيراً . ولقد اتبعت



(شكل ٨)
تقف إلى جوار البوليس الذى يحرس مبكى اليهود صباح مساء

الحكومة خطة إجلاء الأعراب عن أملاكهم بالقوة ، وهم يبيعون أطيب الأراضى لليهود بثمن بخس . وكانت تلك المستعمرات تبدو فى حدائقها ومزارعها اليانعة طيلة طريقنا إلى شمال فلسطين ، والحكومة تأتمن اليهود وتطمئن لهم فى غالب الوظائف والشئون الحربية ، وهى لا تتوانى فى منحهم كثيراً من الامتيازات المالية والتجارية وساعدهم على ذلك كثرة أموال اليهود واستعدادهم لإنفاقها فى هذا السبيل ، لكن المسلمين والنصارى حانقون جد الحنق على ذلك والحكومة تحاول إغراء العرب أن يتوطنوا فى شرق الأردن ، تلك الجهات المجدبة التى هى إلى البادية القاحلة أقرب .

الى دمشق الشام : قمت إليها فى سيارة قطعت بنا ٣١٥ كيلو متراً فأخذنا نسير فى طرق معبدة جميلة وسط الربى اللانهائية . وقد وقفنا زمناً فى نابلس

تلك البلدة ذائعة الصيت فى صناعة الزيوت والصابون بفصل كثرة أشجار الزيتون التى بدت لنا كالغابات حولها وكذلك لأن تربتها غنية بالصودا ، وهى بلدة كبيرة تقوم مبانيها بالحجارة كسائر مبانى فلسطين ، والمدينة إسلامية بحتة إلا أن بها طائفة من اليهود هم :

السامريون : ويدعون أنهم من نسل يعقوب ، ولهم مذهب خاص ولغة عجيبة يؤدون بها صلواتهم فوق جبلهم المقدس (جريزيم) فى جنوب نابلس وهم يعتقدون أن سيدنا ابراهيم قدم ذبحه فوقه ولذلك يقدمون الذبائح من سبعة حملان ذات لون أبيض وعند سلخها ترش بالملح لأن القرابين لا تقبل فى زعمهم دون أن تكون مملحة وتشوى شاة فوق البقعة التى قدم فيها ابراهيم الخليل ذبحه وهم يحرمون الأنصاب والصور التحريم كله ، والعجيب أن عددهم لا يزيد على مأة وخمسين ، وقد لبثوا محافظين على شخصيتهم ومذهبهم من عهد سيادة مملكة بنى إسرائل منذ ٢٥٠٠ سنة ولعلهم أقدم الفرق الدينية فى العالم ، وقد أبوا أن يختلطوا بالمصاهرة مع غيرهم من اليهود فحفظوا سحنهم الخاصة التى رأيناها فى شوارع نابلس . وكاد يؤدى بهم ذلك إلى الانقراض وهم يقولون بأن مدينة القدس هى نابلس ولا يعرفون حرمة لبيت المقدس ولا يعظمونه ، ولهم توراة غير التوراة التى بأيدى سائر اليهود ويبطلون كل نبوة كانت فى بنى إسرائيل بعد موسى ويوشع عليهما السلام فيكذبون بنبوة داود وسليمان مثلاً ولا يقرون بالبعث البتة وهم لا يستحلون الخروج من الشام أبداً وهم يزعمون أن التوراة التى بأيدى سائر اليهود محرفة . أما تلك التى بأيديهم فأصلية على أنهم لا يخرجونها للناس أبداً ويقولون بأن الله أمر داود أن يبنى بيت المقدس فى جبل (عريم) أو جبل نابلس وهو لديهم الطور الذى كلم الله فيه موسى فخالف داود الأمر ويقولون بأن التوراة نزلت بلغتهم وهى قريبة من العبرانية . ثم نقلت إلى السريانية

عرجنا بعد ذلك على الناصرة وهى البلدة التى مضى فيها المسيح طفولته لذلك



(شكل ١٠)   قبر راحيل أم سيدنا يوسف الصديق فى الطريق إلى بيت لحم

كانت مقدسة عند المسيحيين ، وكثرت فيها الكنائس . وكان سواد سكانها منهم ، وبعدها أخذنا نتسلق ربى كانت تشرف على البحر الجليلى العذب ، وفيه يصب نهر الشريعة من جانب ويخرج من الآخر وهو النهر الذى عمد فيه المسيح عليه السلام . هوينا إلى ذاك البحر ويسميه بعضهم بحر طبرية ، ودخلنا بلدة طبرية التاريخية التى تقع عليه ، وهى مدينة رومانية أقيمت على تلك البحيرة . وغالب مبانيها من الحجر الأسود الذى يكثر حولها ، وكانت من الحواضر الرومانية وبها قلعة قديمة رأيناها مشرفة ، ولقد تناولنا الغداء على ضفاف ذاك البحر التاريخى المقدس . ثم قمنا مودعين أرض فلسطين تلك البلاد المقدسة التى لا يكاد يمضى فيها أسبوع بدون أن تقام بها حفلة دينية للمسلمين أو المسيحيين أو اليهود وبعض تلك الأعياد مشتركة ، أذكر من بينها زيارة النبى موسى الذى يحج أهل جميع الأديان إليه فوق التلال شمال البحر الميت حيث مات سيدنا موسى . والبلاد لا تكاد تخلو يوماً من الغرباء الذين يحجون إليها من كافة الأديان حتى عون ذلك كثيراً على ماليتها الفقيرة . وأول ما عرف الإنسان تلك البلاد كانت تحمل اسم

(بليشيت) فى نطاق ضيق بين جبل الكرمل (غرب حيفا) والساحل وحدود مصر ، وكان يقطنها شعب غير سامى اسمه فلشتم أو فلسطين ، ثم أطلقت الكلمة على البلاد التى نزلها اليهود .

اجتزنا نهر الشريعة عند منطقة الحدود بين فلسطين وسوريا ، والنهر يحيل ماؤه ضحل جلسنا على ضفافه حتى فتشت أمتعتنا وفحصت جوازاتنا وبعدها كنا نسير فى أرض سوريا شبه الصحراوية التى كانت تنتثر بالحصى الأسود ولا يكاد ينبت بها زرع ، لذلك بدا الإقليم أكثر جدباً من سابقه ، وهنا أخذنا نجوز تلال حطين التاريخية ثم تلال :

الدروز : وتزينها قراهم الفقيرة وهم قوم شداد البأس غالبوا الفاتحين وآخرهم الفرسيون . ويقال أنهم يعبدون الشمس ، ويعتقدون فى تناسخ الأرواح ، وأن روح القتيل تدخل جسد غيره ، وهذا ما شجعهم على لقاء الموت . وقد حدثنى القوم أنهم كانوا يهاجمون المدافع ويمسكونها بأيديهم مستهينين بالموت ، وهم لا يحزنون عند موت أحدهم لاعتقادهم فى بقاء روحه ، ويقول البعض أنهم يعبدون الحاكم بأمر الله ؛ ويرون أن الله خلق عدداً محدوداً من الأرواح الآدمية تحل بعد الموت أجساد المواليد الجديدة ، ولا يشربون إلا الماء واللبن ، ولا يأكلون إلا ما ينتجونه من أرضهم وقطعانهم ، ويلبسون من غزل أيديهم ، وهم يتعبدون خفية فلا يراهم أحد . وينتشرون فى قراهم الممدودة بين جبل الكرمل والبحر الجليلى .

بدا الطرف الجنوبى لجبال لبنان فى ربى جافة مغبرة وقد لمحنا بقعاً منثورة من الثلج الأبيض فوق الذرى وهو الذى يغشى الجبال كلها فى الشتاء ، ومن مصهور الثلج لاقينا جدولا نحيلا كأنه الثعبان فى لياته المعقوفة ، وهنا بدأت الخضرة وعمت المزارع ثم باغتنا منظر دمشق إلى شرق الجبل وكأنها غابة مغلقة فى وهدة تقوم من حولها النجاد الجافة وبخاصة من الغرب .

دمشق : دخلنا الشام كما يسمونها وهى أقدم مدن الدنيا إذ لا يعرف متى بدأت ويرى القوم أن عاداً أول من نزلها ، وأنها إرم ذات العماد ، ومنهم قائل بأن منشئها نمروذ أو دمشاق بن كنعان و بعضهم قال ان أول من بناها دمشقس مولى الاسكندر ، و بعضهم ينسبونها إلى الروم وهذا يكذبه ورودها فى التوراة على لسان موسى الكليم على أنها قديمة صحبت ملوك كنعان والروم وآل جفنة و بنى أميـــة وقد هدم أبو جعفر كل مخالفاتهم فيها فلم يبق إلا النادر .

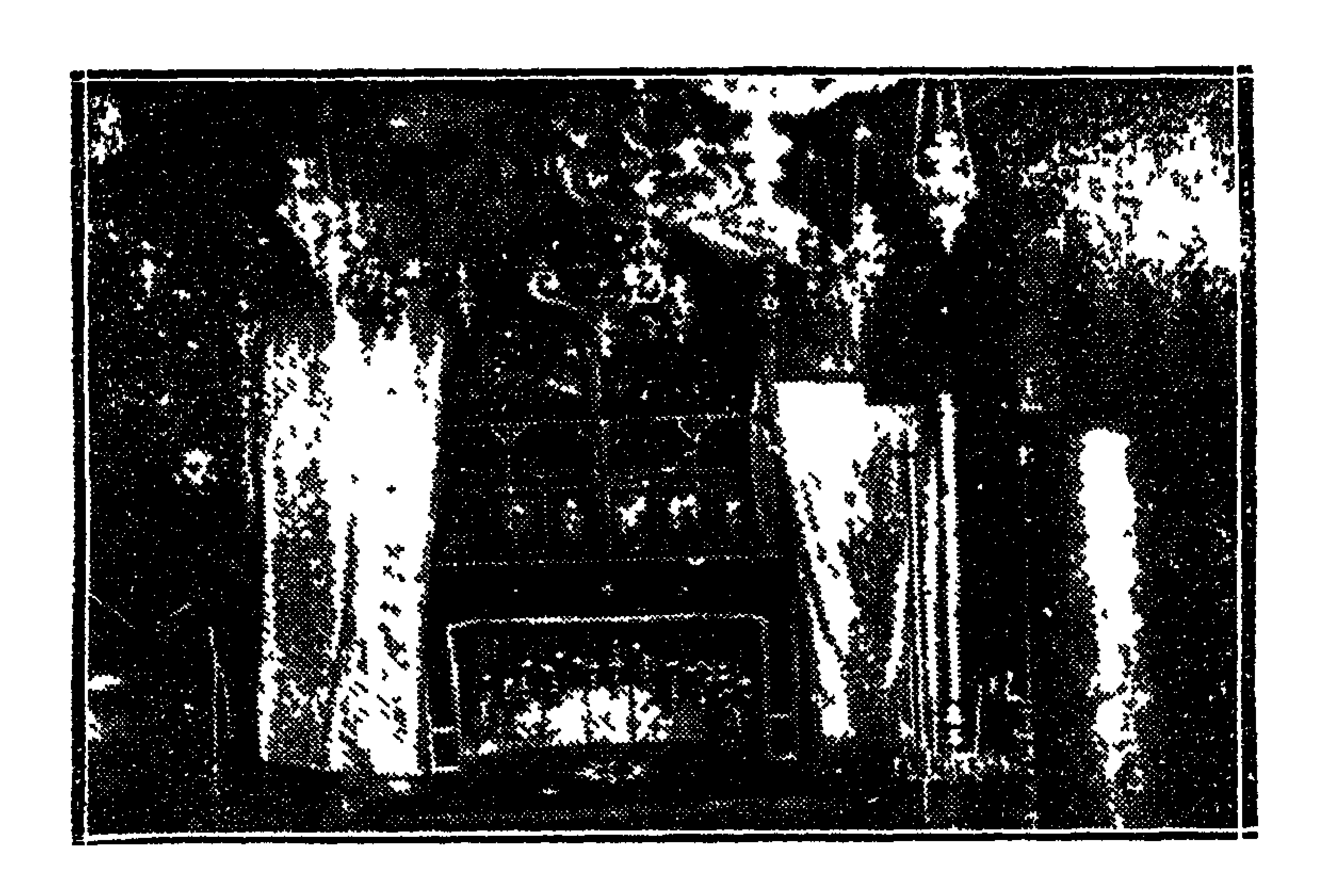
(شكل ١١) لا نزال محتفظ بيت لحم بالقديم فى الطرق والأبنية والأزياء

وأول ما استرعى أنظارنا فيها كثرة المعسكرات الفرنسية التى تحوطها هــذا إلى كثرة أنواع الجند وفضلا عن أبناء البلاد رأينا جنود الفرنسيين والسنغاليين والمغاربة مما يشعر بأن فرنسا لا تزال قلقة على مركزها فى تلك البلاد المضطربة يؤيد ذلك ما علمناه مراراً من أن فرنسا تفكر فى التنحى عن الانتداب لأن بقاءها يكلفها كثيراً فأغلبية البلاد الساحقة تقاوم الانتداب ولا ترغب إلا فى الاستقلال . ولقد انفجرت البلاد فى سنة ١٩٢٢ محاولة طرد الفرنسيين فأعمل الفرنسيون قنابلهم فى البلاد وهدموا منها الكثير ، وفى دمشق حى كامل متهدم يسمى (الميدان) كان مخبأ الدروز والمسلمين ، وقد اتفقوا على محاربة الفرنسيين ، وظلوا يقاومونهم

أربع سنين كلفت فرنسا مائة ألف جندى ومبالغ طائلة من المال ، وقد قص القوم على عجباً فى مقاومة الدروز لفرنسا . حدث مرة أن القائد الفرنسى قام بعشرين ألف جندى ليؤدب الدروز فى جبالهم فلم يرجع من الحملة جندى ولا دابة ولم تستطع فرنسا أن توغل فى البلاد بعض الشىء إلا باستهواء طائفة من المرقين وجلهم من غير المسلمين ، وأخذت تساعد على نشر الملاهى ، وتستميل القوم بالمال والنساء ، ولقد حدثنى شيخ عن مبلغ الفساد وانتشار الرشوة ، وقال بأن صاحب الحاجة لايقضى طلبته إلا بأحد أمرين : المال والنساء وقد لاحظت كثرة المراقص ودور الملاهى الفرنسية فى كل أرجاء البلاد .

والشبان مندفعون فى تيارها وتلك طريقة لاشك تنال من الأخلاق كثيراً وتنسيهم واجبهم القومى . ولقد بدا الفرق عظيما فى تلك الناحية بين دمشق والقدس ففى القدس لايباح التبرج ولا البغاء مطلقاً ، ودهشت مرة لما رأيت دلالا فى سوق البلدة يطوف (بفنوغراف) ليبيعه فاستوقفه رجل البوليس وخبره أن ادارته فى الطريق غير مباحة فى ذاك البلد المقدس .

حللت نزلا وسط الميدان الرئيسى لدمشق يسمونه (ميدان مرجه) يتوسطه عامود تذكارى وإلى جنب منه نهر صغير بشق البلدة ويسمونه بَرَدَى أو (أبانا) ماؤه ضحل آسن ولا يلبث النهر أن يختفى بمائه الضئيل منسابا تحت أرض المدينة وشوارعها مسافات طويلة وقد رصفت جوانبه الظاهرة بالحجارة وأطلت عليه أفخر المبانى وبخاصة الحكومية ، والميدان يعد مركز حركة النقل من ترام وغيره ، وإلى ورائه شارع النصر . وكان اسمه من قبل شارع جمال باشا يتوسطه متنزه مزدوج تصف فيه المقاعد . ويؤدى أحد طرفيه إلى سوق الحميدية ، ولعله أجمل نواحى المدينة ، وأكثرها حركة يحكى الموسكى عندنا ، وسقفه مقبى فى بوائك من حديد يكسوها الزنك وقد عرجت هناك على فرع بنك مصر لأصرف بعض النقود والسوق ينتهى ببعض البوائك الأثرية فى الهندسة البيزنطية التى أدت بنا إلى :



(شكل ١٢) فى مكان تلك النجمة الوضاءة التى تضىء فوقها المصابيح صباح مساء ولد المسيح وحول البقعة تقوم كنيسة مريم أقدم كنائس الدنيا

المسجد الأموى . دخلته فراعتنى فخامته وفسيح أبهائه ودقيق نقوشه فهو حقاً مفخرة إسلامية تتوسط فناءه الرئيسى نافورة أنيقة للوضوء ، وفى جانب منه مدفن رأس الحسين تجاورها شعرتان من لحية الرسول ، وخارج الحجرة طاقة من فضة مزركشة يسمونها خزانة يزيد بن معاوية ، وما أن دخلت الليوان الرئيسى الداخلى حتى وقفت مبهوتاً من عظمة ما رأيت : بوائك شاهقة تتوجها أقبية أخرى صغيرة كسيت بالقيشانى الأزرق البديع ، تمتد إلى قصارى مسارح النظر ، وتزين الجدران نقوش يحار فيها اللب ، أما المحاريب والمنبر فمن مقصوص الرخام المطعم فى إسراف كبير ، وفى وسط كل هـذا مدفن سيدنا يحيى ، والمسجد أصله معبـد رومانى حوله المسيحيون كنيسة مارى حنـا ، ثم جاء المسلمون فأقاموه مسجداً تزينه عدة منارات مختلفة الهندسة ، وكان ذلك فى خلافة الوليـد بن عبـد الملك كلفه ١٤٤ قنطاراً من الدنانير أى نحو عشرة ملايين دينـار ، وكان المتولى على النفقة عمر بن عبد العزيز قبـل أن يلى الخلافة ، وكان فى ذلك

المسجد ستمائة سلسلة من ذهب تعلق فيها المصابيح ، وزينت جدرانه بالفصوص والذهب الخالص وقد كتب عليه بالذهب على اللازورد : (ربنا الله لا نعبد إلا الله . أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التى كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين فى ذى الحجة سنة سبع وثمانين) و يقولون إن الصلاة فيه بثلاثين ألف صلاة .

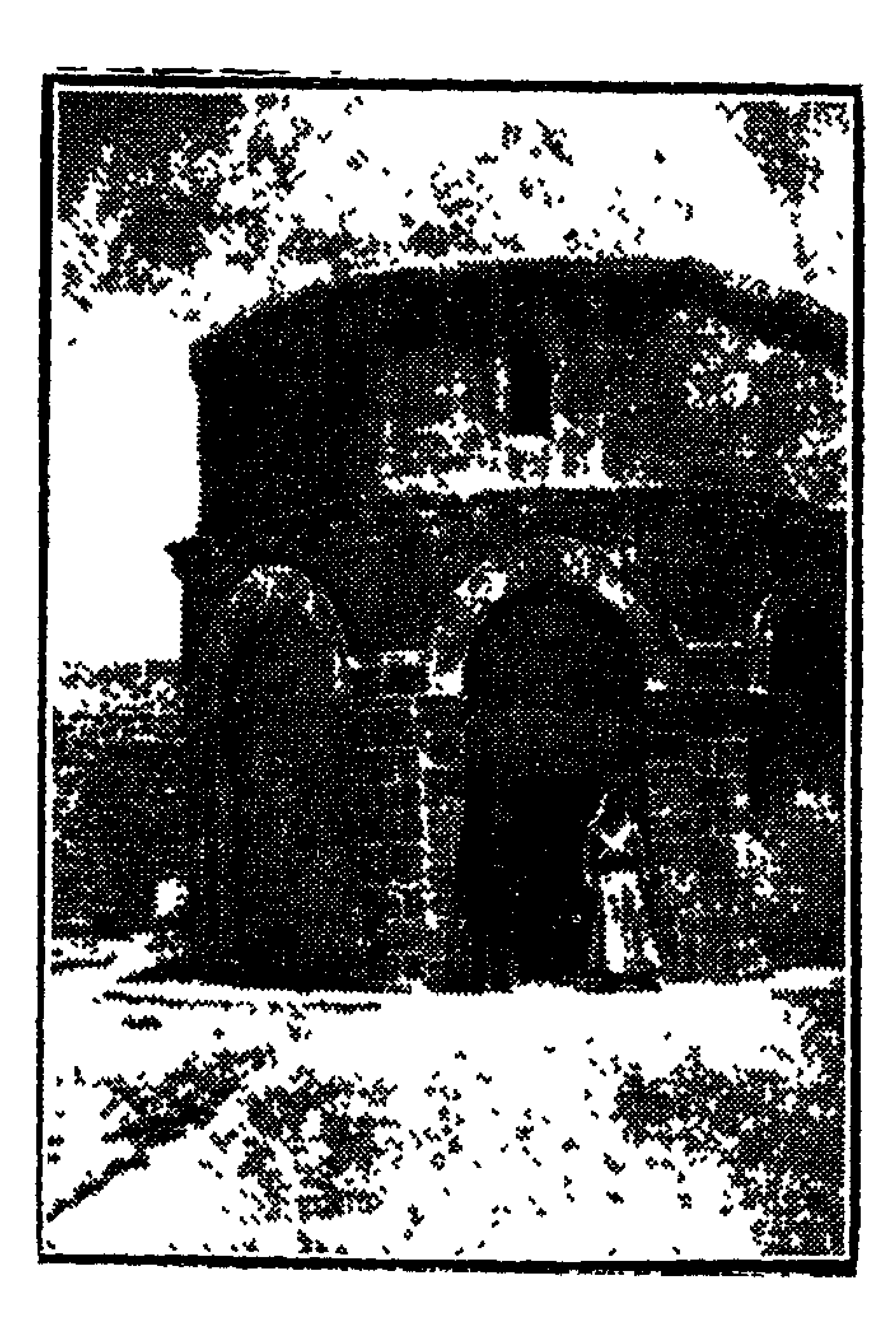
قبر صلاح الدين : فى ناحية منزوية من الحى الذى يجانب المسجد الأموى ، قادنى الغلام وسط أزقة حقيرة إلى قبة غير ذات بال حولها مجموعة من شجر فى غير تشذيب لا تكاد تسترعى نظر المارة قط وقال : هنا مقر صلاح الدين بجانبه قائده نور الدين ، فوقفت خجلاً مبهوتاً وقلت فى نفسى : أهذا الضريح يناسب مقام بطل الإسلام الذى اعترف له بالفضل حتى ألد أعدائه وضربوا المثل بعظمته وشهامته ؟ إنها والله لوصمة عار فى جبين الإسلام أن يكون جزاء حاميه هكذا . وممن يدفن فى دمشق معاوية نفسه

المتحف : و إلى جوار المسجد الأموى دار قديمة أقيم بها متحف الآثار وهو على صغره مقسم إلى ثلاث غرف : الأولى للآثار العربية و بها مجموعة قيمة من أسلحة وأحجار ، ولعل أجمل ما بها مجموعة النقود التى أهداها تيمور المصرى وتحوى نماذج من أغلب نقود الخلفاء كلهم ، وقد استرعى أنظارنا دينار هرون الرشيد وصلاح الدين وعبد الملك بن مروان ، وأعجبها دينار فيصل الذى سكه يوم حكم سوريا وظن أن ملكه سيدوم ولم يظهر من هذا الدينار سوى أحد عشر فقط ، إذ لم يدم ملكه أكثر من ستة أشهر .

وفى الغرفة الثانية مجموعة من الآثار الاغريقية والرومانية ، وفى الثالثة خليط من آثار بابل وأشور والكلدانيين وغيرهم ، وأمام المتحف دار الكتب العربية ، و بها مجموعة قيمة من المخطوطات رتبت فى صنوف مختلفة من التفسير والتوحيد

والحديث والجغرافيا والكيمياء الخ ، وبها حجرات أعدت لمن أراد الاطلاع من الناس جميعاً .

وفى المدينة كثير من البيوت الأثرية القديمة على الطراز العربى والتركى أجملها دار العظم ، فناؤها فسيح تتوسطه نافورة جميلة ، وتطل عليها حجرات وليوانات من رخام رصع فى نقوش عربية ساحرة .



(شكل ١٣)
على باب قبه الصعود فوق جبل الزبود
وفيها (تقدس) المسيحيون

ومن الطرق التى تروق السائح كثيراً الشارع المستقيم ، سمى كذلك لأنه يمتد وسط البلدة القديمة كلها من باب الشرق ، وهو جزء من السور القديم إلى ما يجاور سوق الحميدية ، ولكنك تدهش إذ تجده ملتويا وفى غير استقامة ، و يسميه الناس أحياناً شارع مدحت باشا ونصفه المجاور لسوق الحميدية شبيه بالسوق فى تقوس سقفه وانتظام المتاجر حوله ، أما باقيه فأزقة لاشأن لها ، على أنه يروقك ما فيه من بيوت قديمة وصناعات يدوية دقيقة ، وفى آخره زرنا مصنع النحاس (للنعسان) وهو أشهر مكان فى دمشق فى أشغال النحاس المثقل بالفضة فى نقوش ومخطوطات جميلة ، وتلك شهرة لدمشق من قديم ، وغالب طرق البلدة ترصف بالحجارة الصغيرة التى تؤلم الأقدام فى السير وهى حجارة من بازلت أسود عظيم الصلابة يكثر مستمده حول المدينة .

وفى دمشق خمسة خطوط للترام واحد يؤدى إلى الميدان ، وهو اليوم مكان خرب من أثر قنابل الفرنسيين وآخر إلى ناحية يسمونها (دوما) على بعد خمسة

كيلو مترات نصفها الأخير بساتين يانعة ممدودة ثمارها دانية تتوسطها المقاهى ، ولك أن تتناول من الفاكهة ما طاب لك بدون حساب أو رقيب ، وكان شجر المشمش إذ ذاك مثقلا بثمره فى أنواع قد تفوق الاثنى عشر فى حلاوة ومذاق شهى ؛ ولعل أجمل ناحية : (المهاجرين) وهى على ربوة تشرف على دمشق كلها فيبدو المنظر ساحراً ، هناك جلست على مقهى فأسرع الرجل إلىّ يقدم كوب ماء مثلوج وإلى جانبه كأس صغيرة (بيشة) فى قرارها قطرات من القهوة (السادة) وتلك من آدابهم فى تحيـــة القدوم ، ثم طلبت الشاى الذى أنعشنى وسط تلك الجنة الخلابة ، والحى مسكن الطبقات الراقية كله بيوت مشيدة من الأحجار فى جمال وجدة ، والمـارة يسيرون فى وقار ، والنساء محجبات بقناع أسود ثقيـل ويرتدين ملاءات على النظام المصرى السابق ، والرجال مختلفو الأزياء : المتقدمون فى السن مطربشون يلبسون (القفاطين) عليها (الجاكتة) ، والشـبان فى حللهم الغربية بعضهم بالطرابيش والبعض بالقبعات ، والعامة فى سراويلهم الثقيـلة المنتفخة ، والأحزمة العريضة ، والـكل مؤدبون ، وهم أهل كرم وميل إلى اللهو وخصوصاً يوم السبت والأحد حيث لا يشتغلون إلا بالمجون والتهتك وتلك سمعة البـلدة من قديم حتى منذ عصرها الذهبى ، وهو العصر الأموى فهى كانت عاصمتهم ، ولمـا انغمس أولئك فى ملاذها دالت دولتهم على يد الوليد بن يزيد .

وهم يحبون المصريين إلا أن فى حديثهم شيئاً من الجفاء ، فمثلاً سألت أحدهم عن ترام جهة خاصة وكان قريباً فنظر إلى مقطباً وقال : هيك بتشوف الرقعة ! بتشوف الرقعة ! فى نغمة آلمتنى .

ومظهر دمشق بل وبلاد الشام جميعاً إسـلامى بحت ، إذ أغلب القوم من المسلمين وقد تجلى هذا المظهر ليلة مولد النبى ، فلقد قصدت المسجد الأموى لصلاة العشاء فكان غاصاً بالناس على سعته ، وبعد الدعاء خرج الجميع فى مظاهرة تتقدمها الشباب يحملون السيوف والأعلام والعصى ، وكان بعضهم يصيح بالأدعية



(شكل ١٤)
على شواطىء البحر الميت أوطأ منخفضات الدنيا وأملح بحارها

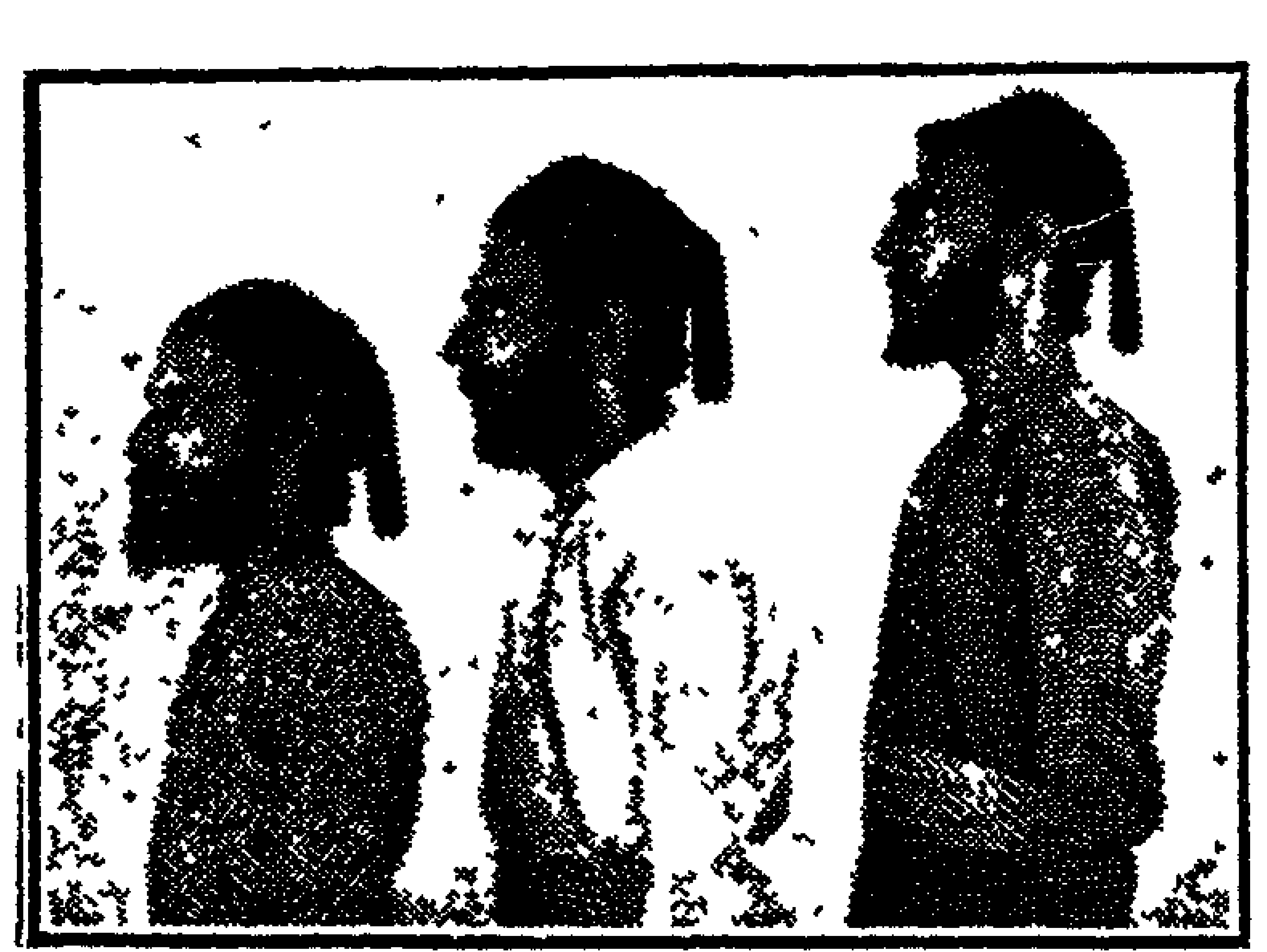
الدينية والبعض بالنداءات الوطنية مثل (ابن سوريا مايهان ! الحرية والاستقلال!) وانتهوا إلى ميدان مرجة ووقفوا يهتفون طويلاً أمام دار الشرطة ثم ساروا إلى دار مجلس الوزراء وهتفوا طويلاً ولم يتدخل البوليس حتى انصرفت المظاهرة بسلام ، وكانت تزين أضواء الكهرباء دور الحكومة كلها ، وتطوق أبواب المتاجر أقواس من أغصان الشجر وسطها الثريات وتكسى الجدران كلها بالبسط (السجاد) فى كثرة تسترعى النظر ، وفى التاسعة مساء آويت إلى النزل وإذا فيه مهرجان لقراءة قصة المولد ، وكان يحضره حفل حاشد . وتلك عادتهم فى كل بيوتهم وغالب فنادقهم ، فأعجبنى ذاك المظهر الإسلامى وشدة محافظة القوم على تقاليدهم أكثر مما نراه عندنا ، وفى آخر الحفلة طافوا علينا يرشون ماء الورد ويقدمون أكياس الحلوى .

ومن المسلمين هناك أقليات غير سنية . وبخاصة طوائف الشيعة الدينية رأيت بعضهم هناك ، وعلمت أن جلهم يقطنون قرى الجبال الغربية ، وجلهم من فلول طائفة الاسماعيلية . وهم من غلاة الشيعة قاموا هدم الإسلام فى فرس . وامتدوا

إلى جميع العالم الإسلامى ، أساس مذهبهم أن الغاية تبرر الواسطة ، وأن كل شىء مباح ، و يرون أن روح الإنسان من روح الله العليا و يشكون فى وجود الله ، وكان الاغتيال المنظم مرماهم يدبرون لقتل الخلفاء وذوى النفوذ والسلطان من المسلمين ، وهم الذين نظموا طائفة (الباطنية) نسبة إلى الامام الباطن المستور وفئة (الفدائية) يلقون فى افهام بنيهم أن الدين يأمر بالاستهانة بالحياة نظير المتاع الكامل فى الآخرة فكانوا يربون الأطفال على المخاطرة والقتل فى غير خوف ، وكان لهم معاقل فوق رءوس الجبال يحوطونها بالحدائق الغناء بشلالاتها وجداولها وقطوفها وزهورها ، ويدعى الفتيان إلى حضرة شيخ الجبل . وهناك يسقون الخمر والمخدرات ، فإذا ما غاب لبهم نقلوهم إلى تلك الحدائق ومقاصيرها التى زودت بالرياش الفاخر ، وهناك تشجيهم أنغام الموسيقى ، فإذا ما أفاقوا لمسوا نعيم الجنة فى القطوف الدانية والكؤوس الذهبية والغيد الحسان . و بعد أخذهم بقسط من هذا المتاع يسقون المخدر ثانية فتغيب عقولهم ثم ينقلون ثانية إلى حيث أتوا ، و يوهمون أنهم لم ينقلوا من مكانهم ، وأن ما رأوا طيف الجنة التى وعد الله بها من ضحى بنفسه ، ولقد قال البعض بأن الذى كانوا يسقونه هو (الحشيش) يزرعونه بكثرة فى تلك الجهات . ولقد أطلق الأوربيون على تلك الفئة من السفاحين الذين كان لهم شأن فى الحروب الصليبية فئة الحشاشين (Assassins) ولا تزال منهم بقية فى جبال الشام ، ومعنى تلك الكلمة الأفرنجية اليوم (السفاحون) .

والمعيشة فى بلاد الشام رخيصة ، ولعل الأجنبى يلاحظ ذلك أكثر من ابن البلاد . لأن الجنيه الانجليزى كان يساوى ٤٣٠ قرشاً سورياً ، أى نحو أربعة ليرات سورية وربع . ووجبة الطعام التى كنت أدفع فيها عشرة قروش مصرية من أفخر الأكلات الشهية ، حدث مرة أنى اشتهيت (الكباب) فدخلت أحد المطاعم وجاء الغلام يقول : طلبك خيو . فقلت : كباب وكفته ، ولعل الكفتة عندكم شهية . قال : إكتير طيبة ! قلت : هات لى نصف رطل ، فوقف الرجل

دهشاً ، فكررت عليه الطلب ، فجاءني يكدس أمامي مقداراً هائلاً من اللحم هو رطلان ونصف ، فقلت : ما هذا كله ؟ قال : نصف رطل خيو ! وعلمت أن الرطل السوري يقارب خمسة أرطال مصرية ، فأكلت ما يقارب أوقية على



(شكل ١٥) قسس السامريين

حسابهم وتركت الباقي وهو ثلاثة أرباع ما قدم لي . ولم يكن ثمن كل هذا كبيراً إذ طلب مني إثني عشر قرشاً مصرياً .

وفي مطعم آخر قرأت قائمة الأطعمة . فتخيرت الأسماء الغريبة التي لا أعرفها كي أجربها ، فكان الصنف الأول (مألوبي شامي) ، أي مقلوبة شامي ، فجاءني الرجل بطبق من الرز أغرق في لبن حامض ، وفي وسط ذلك نثير اللحم ، فذقته وإذا به منفر ، وكان الصنف الآخر (بقلي) ، وإذا بها الباقلة الحمقاء : (الرجلة) التي لا أحبها ، فوليت صوب الحلوى وطلبت صنفاً اسمه (بوظة شامي) ، فاسفرت عن (دندرمة) من الفستق والشمام والبطيخ مختلطة ، فكانت منعشة نوعاً ، ولو أني لا أشتهي (الدندرمة) كثيراً ، فقلت في نفسي : كفاني فأنا اليوم غير موفق في الطعام فلأطلب بعد اليوم من الأصناف ما أعرفها .

غادرت دمشق تلك البلدة التي تموج بنحو ربع المليون من السكان في أزيائهم المختلفة ، وسحنهم الجميلة ، وإن أفسد من هذا الجمال منطق منفر ممطوط وروح تعوزها الرشاقة والخفة . قمنا صوب :

بعلبك : مسيرة مائة وعشرين كيلو متراً بالسيارة سلكناه في طرق ملتوية واسترعى نظرنا في الطريق قبر (العظم) من قواد السوريين الذين قتلوا في الحركة

الوطنية فى هذا المكان ، هنا دخلنا حدود لبنان الكبير ، وفرنسا تقسم إدارة البلاد قسمين : سوريا وهى جمهورية لها رئيس وطنى تحت إشراف فرنسا ، وتلك خطوة أرغمت عليها فرنسا لما رأت من شدة مقاومتهم لحكمها . أما الثانى فلبنان وعاصمته بيروت ، وتلك ولاية فرنسية لم تعط من المنح ما أخذته سوريا ، وفى أكثر من نصف الطريق مررنا بزحلة إحدى المصايف الهامة ، وكانت تكثر حولها المزارع الوفيرة الثمر ، فأرجأنا زيارتها حتى نعود وأخيراً دخلنا

بعلبك : آخر الآثار العظيمة لروما الوثنية ، وعلى مقربة من نهر العاصى وهى قرية قديمة ليست بذات بال اتخذها الروم محلة لأن موقعها صحى إلى جانب نبع ماء كبير يتفجر من تحت شرفات الصخر فى غزارة هائلة ، فيجتمع فى نقيعة ممدودة أقيمت عليها المطاعم التى تناولنا فيها الغداء الشهى ، واستمتعنا بهوائها البارد المنعش العليل ، لأن البلدة تعلو البحر بنحو ١١٢٠ متر تقريباً ، وأجل ما يزوره المرء بها الآثار الرومانية التى أقاموها فى هندسة خليط من الرومية والبيزنطية ، ويقولون إن الذى بنى المدينة فى الأصل سليمان بن داود ، ولما جاء الروم جددوها ، وكان (بعل) معبوداً فيها من الصابئة الذين بنوا هذا الهيكل ليدلوا على قتدارهم ، وهو الذى يقول الله تعالى فيه : « أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين » ولما ظهرت المسيحية وأيدها الروم أخذوا فى تخريبه مخافة أن يفتن النس به لأنه كان أفخم من كنائسهم ، رأيناه فراعتنا فخامته و بخاصة معبد (جبتر بعل) بقى من عمده الأربعة والخمسين ستة فقط تشمخ فى الجو فى علو ستين قدماً ، ومحيط تيجانها ٢٢ قدماً ، وقد نقلت صخورها من محاجر البلدة التى تبعد عن المكان بنحو كيلو متر ، وهناك بعض أعمدة من رخام استحضرت من مصر مما أيد مبلغ جبروت القوم وتقديسهم لآلهتهم . وكم قاست المعابد من مغيرين حاولوا تدميرها ، وزلازل أوشكت أن تدكها ، لكن ما بقى من تلك الآثار يؤيد صمودها لمختلف الديانات التى تعاقبت عليها فى أزمنة كانت العصبيات الدينية

آخذة من الناس كل مأخذ ، ولقد أشـار قدماء المصريين والأشـوريين إلى بعلبك فى آثارهم وأسموها (بلبيكى) مقر عبادة (بعل) ، وجاء الأغريق وألفوا بين الإله بعل وآلهتهم (هيليـوس) وأسموها : (هليوبولس) ، ولما تملكها الروم ألفوا بين (هيليوس) ، (جو بتر) ، ومن ثم خصوا المعبد الرئيسى بجوبتر آله هيليو بولس



(شـكل ١٦)

السامريون يقيمون صلاتهم فوق جبلهم المقدس

وانتشرت عبادته حتى فى إيطاليا نفسها ، والذى شاد تلك المعابد التى أثارت إعجابنا هو (أنطونيوس بيوس بين ١٣٨ ، ١٦١ م) ، ولقد أذكرتنى تلك الآثار الشامخة بمخلفات أجدادنا التى نطاول بها الأمم ، ففى جدران البناء رأينا صخوراً هائلة طول الواحد ٦٤ قدما رفعت إلى علو ٢٣ قدما ، فعجبنا كيف أمكنهم رفع هاتيك ، وفى المحاجر المجاورة للبلدة رأينا صخراً قُد فى الجبل كأنه المسلة العظيمة ، لكن لم يتم القوم استخراجه كالمسلة التى رأيناها فى محاجر الجرانيت بأسوان ، وطول هذا الصخر سبعون قدماً ، وزنته ألف طن ، ولما جاء العرب أقاموا بالمدينة عدة مساجد من الصخور والأعمدة التى انتزعوها من تلك المعابد ، ولا يزال جانب من المسجد الكبير يرى ببوائكه وأعمدته إلى جوار تلك الآثار ، وفى قرية بجوارها اسمها (كرك نوح) قبر سيدنا يعقوب .

زحلة : مدينة أنيقة من أشهر مصايف لبنان تحل مأزقاً من وادى تحوطه الجبال وتتدلى منها سيول الماء فى كل مكان ، وتقوم على المنحدرات التلات البديعه

سفوحها الحمراء المنحدرة ، ويتوسطها النبع الرئيسى ، وقد قدت فى الجبال طرق ملتوية بعضها يعلو البعض حتى يبلغ بنا الذرى ويكاد الشجر والنبت يسد الوادى سداً ، وأينما سرت أو جلست أطربك خرير الماء وراقك منظر هداراته ، ومن النبت البرى ما له زهور جذابة ، ورائحة عطرية ، واسترعى نظرى شجر الجوز الضخم عريض الورق . فكان يحكى شجر المطاط ، وكان يحمل وثقاً ثقيلاً ، وإذا نضج أزاح القوم قشره الخارجى لتتخذ منه الأصباغ ، وما بقى هو الجوز الذى يباع فى أسواقنا ، ولورقه رائحة عطرية هادئة تعطر اليد إذا لمسته ، وتعبق المكان إذا وضعت فيه ، وقد نسق القوم جوانب الوادى وضفافه وأقاموا عليها الأنزال التى يبلغ عددها أربعة عشر . والمطاعم والمقاهى التى لا يحصيها العد ، وتفننوا فى حبس الماء الدافق وتحويله إلى قنوات تسير يمنة ويسرة ، فأينما جلست كانت المساقى تنساب تحت قدميك وطعم مائها لذيذ كأنه مثلوج ، وأنت تشرب منه المرة تلو الأخرى دون أن تشعر بامتلاء . ويقولون أنه مصلح للمعدة لما حوى من المركبات الجيرية المفيدة ، وكم أعجبنى نشاط القوم وعصبيتهم . فكل المشروعات فى أيديهم ، قاموا بحبسوا الماء فى جهات عدة وأداروا به الهدارات المولدة للقوة بعضها يستخدم لطحن الغلال . والبعض للإضاءة الكهربائية ، والبعض لعمل الثلج ، والبعض للسقى ولا تكاد ترى وسطهم أجنبياً ، وقد كان الوادى مهملاً ، وهو من أملاك اليسوعيين شروه بجنيهات قليلة . لكنهم اليوم يستغلونه إستغلالاً مدهشاً فإيجار فندق واحد قد يناهز ألف جنيه فى العام ، وغالب سكان البلدة من المسيحيين ، والتعليم فى أيدى المبشرين . وجو البلدة منعش أميل إلى البرودة ، حتى كنت أشعر وكأنى فى شتاء مصر . لأن علو البلدة فوق تسعمائة متر ، والمعيشة فيها رخيصة . فلو أنى رغبت فى مقام هادئ لما آثرت على رحلة غيرها لما فيها من طبيعة عنبة وهدوء شامل وجمال ساحر وهواء منعش وماء شاف سلسبيل . ولو واد نخال هناك محل عظيم . فالتسلق غرام لا يقدره إلا هاو به . علمت بأن



(شكل ١٧) بعض الدروز يملأون جرارهم من أحواض الماء

النبع الرئيسى للجدول (ويسمونه أم العين) يهوى فى شلال علوه ٢٤٠ متراً فقصدته وإذا المرتقى إليه وعر يكاد يكون عمودياً ، لكن منظر الماء وهو يهوى ويتعثر على نواتىء الصخر فى شلال هائل أغرانى أن أصعد وبعد لأى كنت فى ذروته ، وإذا به يخرج من قلب الصخر السماوى فى اندفاع مخيف .

الى حلب : غادرنا زحلة بالقطار الساعة العاشرة صباحاً صوب حلب فوصلناها فى ثمان ساعات ، وكانت الطريق أشبه بسهل جاف إلا فى بقاع نادرة يزرع القوم فيها الغلال وبخاصة الشعير والقمح ، وأكبر البلدان التى مررت بها حمص : وهى مدينة كبيرة متحضرة بها مسجد عظيم بناه خالد بن الوليد ، والسهل حولها خصب كثير المنابت ، وبجوارها قبر خالد بن الوليد . ثم تبعتها فى الأهمية : حما : وتقع على نهر العاصى الذى يصب فى البحر الأبيض عند انطاكية ، وقد بدا جدولاً صغيراً كان يتلوى أمامنا فى ليات عجيبة ، وقد أقيمت عليه النواعير التى تدور بدفع التيار لرفع المياه إلى الأراضى المجاورة ، ويرجع بعضها إلى زمن الرومان وفى المساء دخلنا :

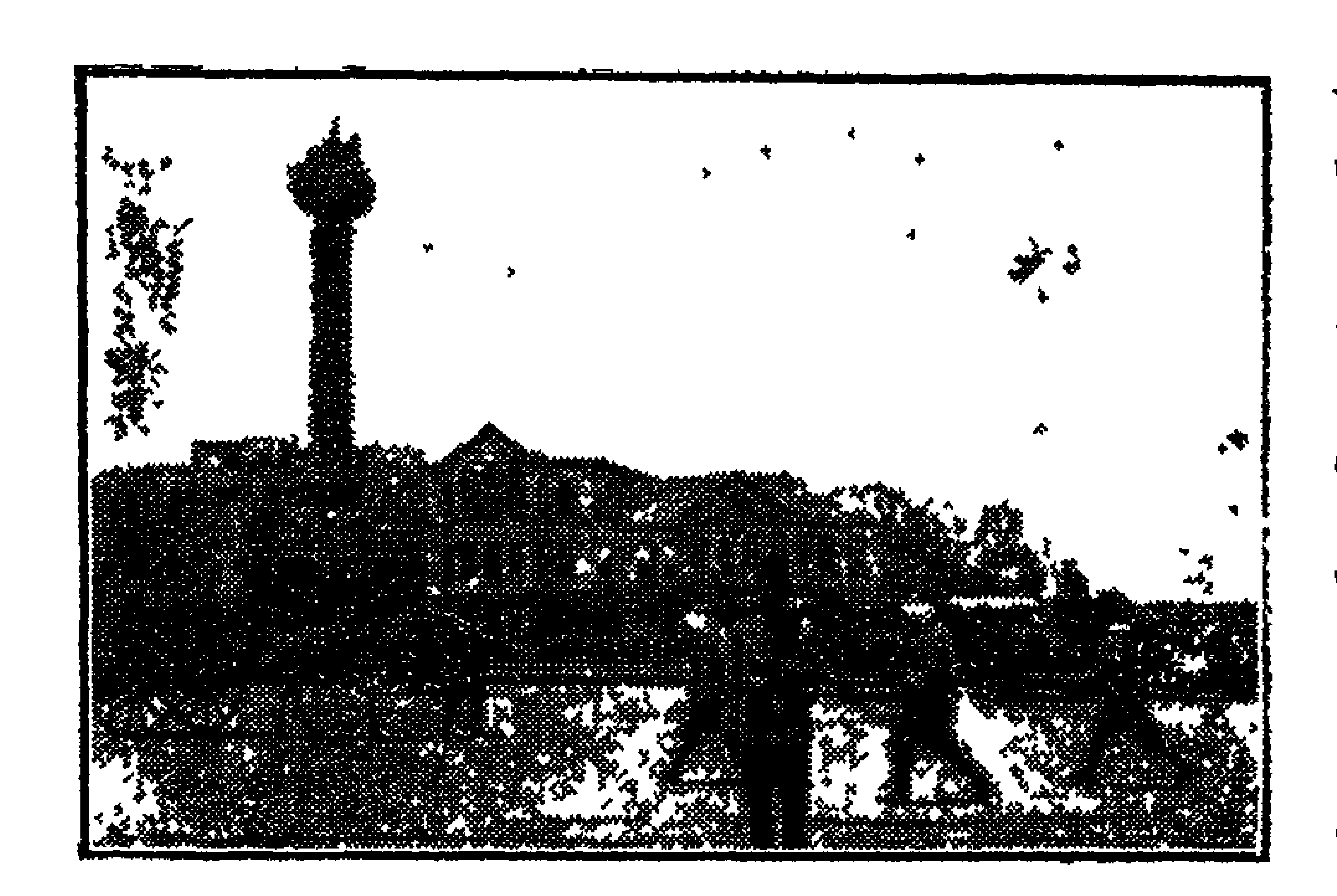
حلب : جبت بعض أرجائها فبدت مدينة كبيرة ، صبغتها إسلامية بحتة ، بمساجدها المتعددة غالبها على الطراز التركى بمنائره الدقيقة ، وقبابه المتكررة .

وقد زرت من بينها المسجد الجامع ويعدونه المسجد الخامس فى الشرق الأدنى وهو عظيم الامتداد ترصف أرضه بألوان الرخام المنسقة ، وتحوطه البوائك ، ويضم رفات سيدنا زكريا أبى يحيى عليهما السلام ، وأعجب ما فيه مئذنته المربعة ، ويرجع عهده إلى بنى أمية .



(شكل ١٨)
نهر الشريعه حيث عمد المسيح عليه السلام
وعند القنطرة الحد الفاصل بين فلسطين وسوريا

وبالمدينة قلعة قديمة تشرف من ربوة شاهقة بنيت فوقها من أحجار ضخمه وحولها حفرة كأنها الخندق العظيم تجتازه بقنطرة ، ويحتل القلعة جنود فرنسا ، وفى أقاصيص العرب أنها أقيمت على ثمانية آلاف عمود ، ولعل أعجب شىء فى البلدة أسواقها فهى واطئة مغلقة تحت قباب حجرية كأنها السراديب المشعبة ، وهى قلب المدينة النابض من الناحية التجارية إلا فى بعض الحوانيت الحديثة التى صفت على جانبى الشارع الجديد . وهو يصل المدينة بمحطة الشام ، وهو أكبر الشوارع وأجملها ، وكثير من الدور أقيم على النمط التركى يبدو كالمساجد ، وتطل منه المشربيات العديدة . ومياه حلب رديئة شحيحة غالبها من الآبار تباع بسعر قرش (للتنكة) ويشق البلدة نهر جاف تقوم عليه القناطر العدة ، وكان غامراً بالماء ابان حكم الأتراك ثم قطعوه اسوم عن البلاد وحولوا ماءه إلى بلادهم ، والمدينة



(شكل ١٩) وسط ميدان مرجة الرئيسى فى دمشق

عاصة بالمقاهى ودور اللاهى فى قسمها الجديد ، وغالب الملاهى مراقص بعضها عربى ، والبعض فرنسى ، شهدتها ، فكان الرقص شائناً ، تكشف الراقصة عن فخذيها وصدرها فى شكل ينافى الآداب ، والشعب يهتز لتلك السخافات و يهتاج . و يظهر أن موارد البلاد محدودة لدرجة أن الحكومة توقفت قليلاً عن دفع المرتبات أول هذا الشهر (يوليه) على الرغم من أن أنواع الضرائب كثيرة متعددة ، ومن أعجبها ضريبة المتعة وهى ليرة وربع فى العام على كل راشد بين ١٦ و ٦٠ سنة فقيراً كان أو غنياً ، وكذلك ضريبة النشر فكل إعلان يخرج للناس يلصق عليه طابع الضريبة حتى اعلانات السينما ترى طابعاً بربع قرش سورى عليه ! فانظر كيف يحصلون على الأموال ونحن فى مصر لا نستطيع تحصيل شىء من الضرائب ونتساءل فيقال الامتيازات البغيضة فهلا تكاتفنا على إلغائها فنوفر مبالغ طائلة ننفقها فى رفع الأمية ونشر الثقافة فى البلاد ؟

و يظهر أن العصبية الدينية شديدة هنالك فكل طائفة تحاول الاضرار بغيرها ، وهم متفرقون يكيدون لبعضهم ، على أن العنصر الإسلامى هو السائد ، وفى البلاد حركة للتخلص من كل ما ليس سورياً فى الوظائف ، والأعمال الحرة ، والجرائد ناشطة فى الكتابة تشجيعاً لتلك الناحية ، ولو أفسدها إنهاء كل حرب الآخر بالتعصب ، وقدماً كانت بلاد الشام نكدة الحظ رغم كثرة خيراتها ، وذلك لأنها

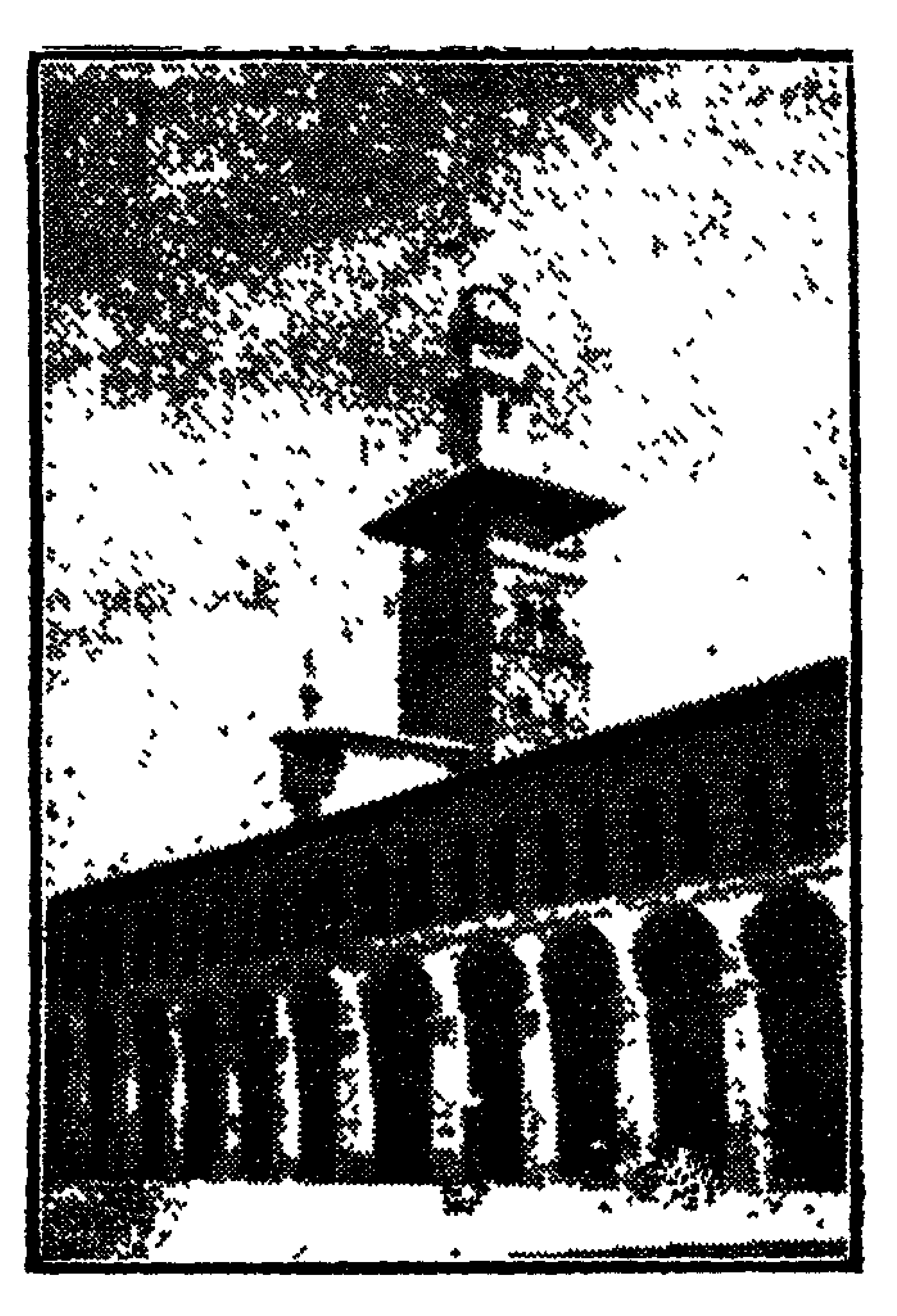
عرصة للغارات بين الشرق والغرب ، وهذا ما يقوض من عمرانها ويزيد تدهورها ماهم فيه أبداً من شقاق وتحزب فكأن ظهور المرسلين فيهم هو الذى دعا إلى هذا التحزب المقيت .

الى الأناضول : قمت مبكراً فى قطار ٦٫٤٠ صباحاً إلى أنقرة فسار بنا القطار وسط سهول ممدودة غالبها صخرى شبه صحراوى مهمل ، ولما دخلنا الحدود التركية بدأت الجبال والربى المعقدة وأخذت تتلوى سكة الحديد ، ودخلنا أنفاقاً لا حصر لها ، وكلما واصلنا السير أخذنا فى الصعود لنغالب ليات الجبال وارتفاعها المتزايد وأخذت تكسوها الشجيرات ، ثم أوغلنا فى تيه من الانفاق ، بعضها كان القطار يستغرق فى اختراقه ربع الساعة وكانت المناظر حولنا ساحرة ؛ خصوصاً كلما فاجأتنا الوديان السحيقة تتلوى فى قيعانها الغدران النحيلة ، أما الأهلون فنادرون فى تلك البقاع ، فلا يكاد البصر يقع على القرى إلاَّ الصغير النادر ، وتلك هى مجموعة جبال طوروس بصخورها الجيرية ، وبين آونة وأخرى كانت طيات الصخر تبدو فى ألوان قاتمة أو براقة مما يشعر بقدم الصخر ، وكثرت رقائق الشيست ، ولذلك لم نعجب لما سمعناه عن كثرة المعادن هناك مثل : الحديد ، والنحاس ، والفضة ، والكروم . والميكا .

وحوالى الرابعة مساء دخلنا سهولاً اختفت من حولها الجبال ، وزاد النبت ، وكثرت مسايل الماء على أن ماءها كان ضحلاً شحيحاً ، فكان المنظر شبيهاً بمصر المحبوبة . وفى وسط هذا السهل وقفنا على :

أدنا : من كبريات مدن جنوب تركيا ، وبعدها عادت الجبال وأنفاقها ومناظرها الساحرة ، والحق أن سكة الحديد هناك تدل على مبلغ جبروت القوم فى مغالبة القوى الطبيعية الهائلة . ويفاخر الأتراك أن هذا الجزء المعقد كله أقيم بمجهود أبنائهم . ولم يكن للأجانب فيه دخل قط . وسكة الحديد كلها بيد

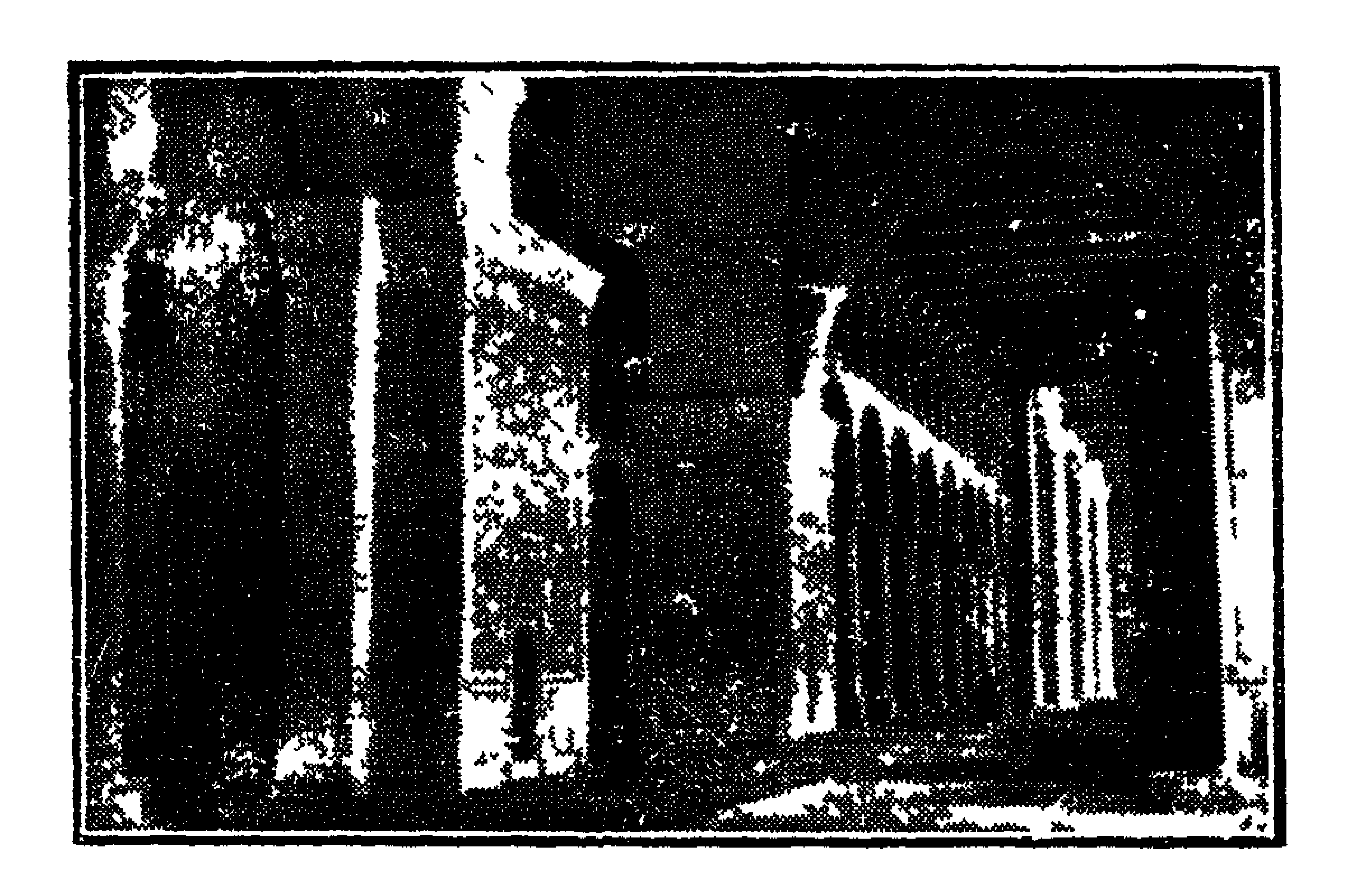
الحكومة التركية ، بعد أن كان جلها لشركة فرنسية ، وقد شروا كل المشروعات الأجنبية فى سائر بلاد الأناضول فأضحت تركية بحتة . ظل القطار فى صعوده ولياته وأنفاقه حتى أقبل على سهل فسيح تتوسطه قونيه ، وكان وقوفنا بها الثانية صباحاً فبدت مدينة ممدودة هائلة تحكى إحدى البنادر الرئيسية عندنا ، وكانت أضواؤها الكهربائية منثورة وضاءة ، وقد علمت أن فيها مدفن أفلاطون الحكيم ، وقبر جلال الدين الرومى



(شكل ٢٠)
مئذنه المسجد الاموى فى دمشق

المعروف بمولانا ، وإليه تنسب طريقة (المولوية) ، ولبثنا نسير فى تلك السهول الغنية طويلاً ، وهى تزرع على المطر ، ويعوزها المران المصرى الزراعى كى تغل أضعاف ذلك ، فمشروعات الرى تكاد تكون معدومة ، والأيدى العاملة نادرة ، وأدوات الزراعة عتيقة : كالمحراث المصرى يجره البقر ، والشادوف ينزل دلوه إلى الآبار الغائرة وينتشل منها باليد أو الدواب ، ومظهر البلاد كلها يبدو إسلامياً بحتاً . ففى كل القرى تبدو المآذن التركية الدقيقة ، ولم نلمح كنيسة واحدة فى كل تلك البلاد إلى أنقرة ، وكثيراً ما كنا نمر بالناس يقيمون الصلاة فى حقولهم وعلى رؤوسهم قبعاتهم فى كثرة أشعرتنى بأن النزعة الدينية ما زالت قوية . وكانت تحصد الغلال كالقمح والشعير ، أما المراعى من البقر والضأن فلا حصر لها إذ هى المورد الرئيسى ، وكان اللبن والجبن يبيعه الصبية فى كل المحاط ؛ وبخاصة اللبن الحامض الذى يشربونه بدل المرطبات جميعاً ، والخيل مطيتهم الرئيسية ،

و بيوت القرى بالحجارة الصغيرة متحدرة السقوف ، لكن طرقها صيقة مهملة رديئة والأهلون يرتدون حللهم الأفرنجية وعلى رؤوسهم القبعات (فى شكل الكسكت) ، والنساء سافرات لا يفترقن عن الأفرنجيات ، وقد ساغ هذا الانقلاب الاجتماعى اليوم للناس بعد أن كان معارضوه كثيرين فى بدئه شأن كل جديد ، وشتان بين حالتهم يوم زرتهم فى اسطنبول سنة ١٩٣٠ و بينها اليوم . دخلنا أفيون قره حصار ، ومعناها : (قلعة الأفيون السوداء) لأن أحسن منابت للأفيون تقوم حولها ولأنها تعلو فوق ر بوة سوداء هائلة (٨٠٠ قدم) جعلتها منيعة ؛ والمدينة كبيرة ، وتقوم وسط سهل تر بته مختلفة بعضها فى لون أسود والبعض أصفر والبعض جيرى يكسوه الحصى ، ولا تقوم المدن الكبيرة هناك إلا وسط الوهاد المبسوطة التى تنأى عنها الجبال ، وعند ما وصلنا اسكى شهر : أخذت سكة الحديد تتفرع إلى عدة نواح وهى مركز زراعى وتجارى هام ، و بها مصنع لسكر البنجر يمون قسماً كبيراً من البلاد ، و بيوتها حجرية ومن طابق واحد ، و بجوارها رأينا مدرسة الطيران التى لا يزال البناء فيها مستمراً ، وفى جوار المطار هناك استشهد فى حرب الاستقلال خمسة آلاف تركى سفك اليونان دماءهم ظلماً ، فأقامت الدولة لهم مدفناً فخراً كتب عليه (مدفن شهداء الوطن) وكان يرمقه المسافرون جميعاً بنظرات الاكبار ، وعند الأصيل قبيل دخولنا أنقرة بساعتين وقفنا بمحطة كبيرة اسمها : بولاتلى . وهنا كانت الموقعة الفاصلة بين الأتراك والأعداء الذين احتلوا البلاد من أزمير إلى هنا ، وكانوا يطمعون فى احتلال أنقرة ومحو تركيا من الوجود ، وكانت تعاونهم على ذلك بعض الدول العظمى ، وأمدتهم بالمال والأسلحة ، ولكن بفضل وطنية الغازى وسحر بيانه استحثت الحماسة التركية فاستبسلت الأتراك فى الدفاع عن حوزة الوطن نساء ورجالاً ، فسحقوا فى هذا المكان الجيش اليونانى عن آخره ، وقد حفزهم على ذلك ما كان يأتيه اليونان من الفظائع فى قتل أهل القرى و إحراقهم . وهناك أيضاً أقاموا مدفناً



(شكل ٢١) المسجد الأموى من الداخل ، آية فنية ومفخرة إسلامية كبرى

فاخراً للشهداء سرت إليه وانحنيت إكباراً وقرأت لأولئكم الأبطال الفاتحة ، وقد نزل معى من القطار أغلب ركابه وهم يشيرون إليهم قائلين هؤلاء بقيادة الغازى ، هم الذين طاردوا العدو واكتسحوه ، حتى ألقوه البحر وراء أزمير ، وطهروا البلاد منه ، وكان العدو الذى هلك ٢٤٠ ألفاً مع أن عدد الأتراك لم يزد على ٤٥ ألفاً . ذكريات خالدة ، كان يقصها علىّ بعض أبناء الأتراك والوطنية تكاد تتفجر من وجناتهم ، وكان الغازى يأخذ نصف أملاك الناس ومتاعهم للانفاق على الجيش ، على أن يردها إليهم بعد النصر ، وكان القوم يقبلون ذلك قبولاً حسناً ، ولا تزال الدولة تسدد لهم ديونهم هذه إلى اليوم ، وبعد أن أجلوا الأغريق ومكنوا لأنفسهم فى الجهات الغربيـة ولّوا وجوههم صوب الحدود الداخلية ، فطاردوا الأرمن إلى ما وراء أرضروم وبحيرة ڤان ، وأخذوا بلاد الأكراد وأعادوها لحظيرتهم ، وانمحت دولة كردستان من الوجود ، ثم طاردوا الفرنسيين وألزموهم حدود سوريا الطبيعية وراء جبال طوروس . دهشت من هـذا الفوز فى أناس يكادون يكونون عزلا وكان يطوقهم العالم من جميع جوانبهم ، ولـكن كيف يكون أعزل من صح عزمه



(شكل ٢٢) تحت تلك القبة المتواضعة يدفن صلاح الدين بطل الحروب الصليبية

وصدقت وطنيته ، وجعل نفسه فداء لوطنه . كانوا يحاربون العدوّ بقلوبهم الراسخة وإيمانهم الوثيق نساء ورجالاً ، وبعد أن استتب لهم النظام العسكرى قام الغازى العظيم يصلح البلاد من وجوهها الأخرى اجتماعياً واقتصادياً فبدأ سياسة الإنشاء والتعمير ، وأخذ فى تعبيد الطرق ، ومد سكة الحديد ، وهى فى نظرى تعادل أرقى الخطوط الأوروبية نظافة ودقة يديرها الأتراك فى نشاط حميد ، ثم أخذ يمهد للشركات الوطنية ويعاونها بالقروض والتسهيلات ، حتى كثر عددها جداً وأسس المصارف الوطنية ، وأخذ يقيم الأبنية فى البلدان الكبيرة ، وبخاصة أنقرة ، على أحسن طراز ، ثم أنه لم يغفل حالة الفلاح . فقد كانت الأراضى ملكاً لطائفة قليلة من الأغنياء . فمثلاً كانت سهول أدنا ملكاً لعائلة فابتاع كل المساحات الشاسعة وقسمها قطعاً صغيرة . باعها لصغار الفلاحين بشروط سهلة ، واتخذ من نفسه مثلاً حسناً : إذ وهب من أرضه الكثير وأعلن أن أملاكه جميعها لن تورث أحداً من عائلته . بل سترثها الدولة وهو يكاد يكون معبود القوم جميعاً كلما حدثك أحدهم عن البلاد ذكره بالخير وفاخر باسمه ، وحتى معارضوه قد قلّ عديدهم جداً ، وذلك شأن المصلح الذى يغامر ويخدم مبدأه دون خوف وكلما ظهرت ثمرات أعماله أحبه الناس وأيده خصومه ؛ ويكاد يتفق الجميع على أنه ليس فى البلاد سواه ، هو ووزيراه : عصمت ورشدى . فهم القوة المنشئة المنفذة ، يرتب الغازى الفكرة



(شكل ٢٣) ضريح صلاح الدين الأيوبى

ويغامر بتنفيذها واثقاً من النجاح ، وفى شئون التعليم قام بقسط من الإصلاح كبير فأدخل فى المدارس أحدث النظم ، ومحا العتيق ، وسهل اللغة بالحروف اللاتينية التى تعلمها الجميع وقد فرضها على الناس إلى الأربعين نساء ورجالاً ، ومن زادت سنه فله الخيار ، وقد علمت أن الجميع حتى الشيوخ يقرأونها اليوم بسهولة يؤيد ذلك كثرة الجرائد التى كان يقرأها الفلاحون ويتخاطفونها من القطار على سذاجة منظرهم ورثّ ثيابهم ؛ ولقد جعل التعليم إجبارياً ، وقسم المدارس إلى ابتدائية ، وثانوية ، وعليا ، وجعل برامج التعليم قومية وطنية لا يتعلم الطالب اللغة الأجنبية إلاّ فى المدرسة الثانوية ، ولم يختصها بلغة معينة فبعض المدارس تعلم الانجليزية ، والبعض الفرنسية ، وهى الغالب ، والبعض الألمانية ، وهلم جرا ، وهو لا يحتم على الطالب إضاعة جل وقته فى اللغات الأجنبية ، كما نفعل فى مصر ، لأن ذلك لا شك سيكون على حساب التوسع فى العلم نفسه ، فهو يعلمهم مبادىء اللغة ، ويترك التبحر لمن تخصص بعد . وهناك قسم لترجمة مستحدثات العلم إلى لغة البلاد ، لذلك وجدنا صعوبة كبرى فى التفاهم معهم لأن من يعرف الفرنسية أو الانجليزية لا يجيدها قط ، بل لا يكاد يتفاهم بها ، وهم متعصبون للغتهم جداً ، لا تراهم يكتبون بطاقاتهم ، ولا عنوانات



(شكل ٢٤) أقدم بيوت دمشق وأجملها فى الحى الاسرائيلى

متاجرهم إلا بها فى حروفها اللاتينية . والغازى يتعقب بنفســه الكلمات التى من أصل عربى و يمحوها ويمنع استخدامها منعاً باتاً ، و يحل محلها كلمات تركية صميمة ، وقد كانت الألفاظ العربية شائعة بين الطبقات الممتازة وفى اللغة الرسمية من قبل . أما اليوم فيحاول محوها .

أنقرة : دخلناها ليلا فبدت أضواؤها خاطفة وثريات الكهرباء بها منثورة على الربى ، وفى السهول فى مشهد جميل . وقد أقيمت قبيل أنقرة مباشرة ضاحية (الغازى) حيث يقوم قصره . وتمتد حدائقه المنسقة امتداداً فسيحاً ، وهى تكاد تلتهب ضوءا . حللت نزل (أناضول) وقمت فى الصباح أجوب أنقرة ، و إذا بها قسمان قديم وحديث فالقديم فى أزقته الحجرية المتحدرة ، و بيوته المكتظة الصغيرة المطلة بشرفاتها نصف العربيــة . وليالتها غير المنظمة تشرف عليها قلعة المدينــة فى ربوة شاهقة و يقوم كثير من الأبنية على منحدراتها وتعوزها النظافة وحسن البناء ، وفيها يدفن امرؤ القيس . وقد فتحها المعتصم الخليفة العباسى ، وفيها وقع السلطان (بلدرم بايزيد خان) أسيراً فى يد تيمورلنك سنة ١٤٠٢ . والقسم الحديث



(شكل ٢٥) سوق الحميدية فى دمشق
ويؤدى إلى المسجد الأموى

يعادل أرقى البلدان نظاماً ، قصوره فاخرة بولغ فى ضخامتها وتجميلها ، والطرق به فسيحة ومنابت الكلأ تحفها الأشجار فى امتداد رائع ، وفى وسط غالب الميادين تقوم تماثيل الغازى ، ولعل أجملها ميدان (ملت ميدان) والغازى يمتطى جواداً ووراءه تركيا فى امرأة عجوز تحمل قنبلة ووجهها مقطب كئيب ، وقد أعياها التعب وإلى جانبها الأمامى جنديان بأسلحتهما يكشفان الطرق ، ويتأهبان للفوز . والمدينة على صغرها كثيرة الحركة ، أهلها أهل نشاط وشعور عجيب بالعزة القومية شأن كل أبناء الأتراك ، وهم جميعاً مؤدبون كريمو الطبع ، يزين ذلك وقار ورزانة جعلت لهم مهابة وأنفة وهم فخورون بفوزهم ، لايفتأ الواحد يقص عليك نبأ حرب الاستقلال ويمجد لك فى تركيا وما فيها ، ويعتذر عن بعض النقص والتأخر فى البلاد التركية ، فحركة الإصلاح لم يمر عليها عشر سنين ، وقد خلفت الحكومات الماضية للحكومة الحاضرة تراثاً موبوءاً ثقيلاً يتطلب الاضطلاع به وإصلاحه مجهود الجبابرة وأموال الملايين ، وكم كان تعجبى عظيماً عند ما كنت ألمس حركة النهوض فى كل شىء ، وفى سرعة عجيبة رغم عوز البلاد المالى الشديد . لكن الاخلاص وخلو البلاد من الدخيل هو الذى أكسب القوم قوة تدفع بهم إلى النجاح المتواصل وحتى فى الناحية الدينية هم يمتدحون للغازى تصرفه ، فقد أوقف كل الترهات والشعوذة التى تحط من شأننا وشأن ديننا كثيراً ، وحرم الزواج بغير

واحـدة وأباح للشاب انتقاء خطيبته وحتم على المرأة التعليم على قدم المساواة مع الرجل فما دخلت مكتباً أو متجراً إلا وكان للنساء فيه عمل واضح وحتى فى الصلاة تقام الشعائر الدينية ، و يدخل النـاس المساجد بالقبعات إن شاءوا خلعوها ووضعوها على الحمـالات فى جوارهم ، و إن شاءوا أداروا أفاريزها إلى أقفيتهم وأدوا الصلاة مثبتاً بذلك أن الدين لا يحتم زياً خاصاً قد يقعد بتقدم الشعب حتى عن الحركة والنشاط ، وكنت كلما حلت فى البلدة وتفقدت



(شكل ٢٦) إلى جوار أنقاض بعلبك

مختلف نواحيها زادنى الإصلاح الذى يجرى بها سراعاً دهشة و إعجاباً . صعدت الربوة المشرفة على أنقرة حيث القلعة القديمة ونقبت فى أزقتها التى تضم طائفة من الأهلين فى أكواخ بائسة . وكان يبدو على النـاس الفقر وهم فى أسمالهم المهلهلة ، ولكنهم كانوا رغم ذلك فخورين بتركيتهم واستقلالهم ، وما فائدة الغنى فى الأسر والأغلال ؟ وكانت تتجلى من دوننا أنقرة الجديدة فى طرق فسيحة وقصور مشيدة ولغ فى تنسيقها وتضخيمها و بخاصة دور الحكومة . والدولة آخذة فى إقامـة العمارات فى كل مكان . وفى تنسيق المتنزهات للشعب تفتح أبوابها دائماً وتعزف فيهـا الموسيقات كل أصيل و بخاصة فى متنزه البرلمـان الذى تزينـه الأبنية وأحواض من الماء مدرجة صفت المقاعد حولها فكنت أرى الجماهير يغص بهم المكان . والنساء سـافرات يختلطن بالرجال فى رزانة وصمت وهدوء حتى كان يخيل إلىّ أنى فى مونت كارلو تماماً



(شكل ٢٧) وسط بقايا المسجد القدم فى بعلبك

والدولة تقصد بعزف الموسيقى هكذا أن تدرب آذان النـاس على الأنغام الغربية فإذا طوحت ببصرك لمست اخلاص الدولة وتفانيها فى النهوض بكل شيء ، وكنت أتساءل من أين لهم تلك الأموال ونحن رغم توافر مواردنا لا نفى بالواجب ؟ حقاً أن كل قرش هنالك يدخل خزانة الدولة ينفق فى التعمير والإنشاء . ويزيد إعجابنا إذا علمنا أنهم ينفقون على جيش كبير بمعداته وطياراته و بواخره هذا إلى الهمة المدهشة التى يبذلونها فى ربط أطراف البـلاد بسكة الحديد رغم تكاليفها الباهظة فى تلك البلاد الجبلية الوعرة ، فالخط إلى البحر الأسود مد إلى طربزون ، وفى شرق أنقرة كاد يصل إلى أرضروم ، وفى الجنوب وصل البحر الأبيض ، وفى الجنوب الشرقى وصل إلى نصيبين . كل هذا كان يدهشنى والحكومة فقيرة والناس معوزون ولكن كفى بالاستقلال معيناً على ذلك فغياب الأجنبى من المجال الاقتصادى أفسح المجال لأبناء البلاد فعدوا إلى التقدم سراعا ، وأنت لا ترى اليوم الأجنبى فى بلادهم من أنرقط .

ونساء الأتراك رغم سفورهن بعيدات عن الخلاعة والاسراف فى التزين ، فهن يسرن فى وقار وهن فى نظرى لسن ساحرات فى الجمال ، والجمال الفتان نادر بينهن



(شكل ٢٨) نواعير الماء التى شهرت بها حلب

فالشاميات أوفر جمالاً ، كذلك تعوزهن الرشاقة ولم يقع نظرى على سيدة تحكى (كرمان هانم) ملكة الجمال لديهم . ولذلك لم أعجب لانتخابها رغم أنها دون ذاك المقام فى ظننا . لكنى أعود فأمتدح فيهن هذا الاتزان والوقار . فالتركية زوجة فاضلة لا محالة ، وكنت ألاحظ كثيرين منهن يلبسن ملاءات وفوق الرأس قناع أسود كالستر لكنه بدل أن يسدل على الوجه يرفع فوق الرأس فظننت أن هذا من أثر الرجعية الأولى .

وتكثر هنالك المقاهى والمقاصف . وفى غالبها تسمع الحاكى بأنغامه التركية ، وأغانيها الشجية . ويظهر أن الكثير منهم ميال إلى المسكرات ، وبخاصة (العرقى والزبيب) فما يكاد الليل يقبل حتى تراهم عاكفين على شربه ، ولا يخف قرع النرد ليلاً ولا نهاراً ، دخلت مرة مغنى تركياً شرقياً على نمط (ألف ليلة) فى مصر فكانت الآلات الموسيقية : الكمان والعود المعدنى والقانون يعزف بالمضارب لا بالأصابع ثم الرق والناى وأمام كل أولئك سيدتان فى حشامة ووقار ، وكانت الأغانى مقطوعات على نمط الموشحات تتقدمها الموسيقى الصامتة فى مقطوعات قصيرة

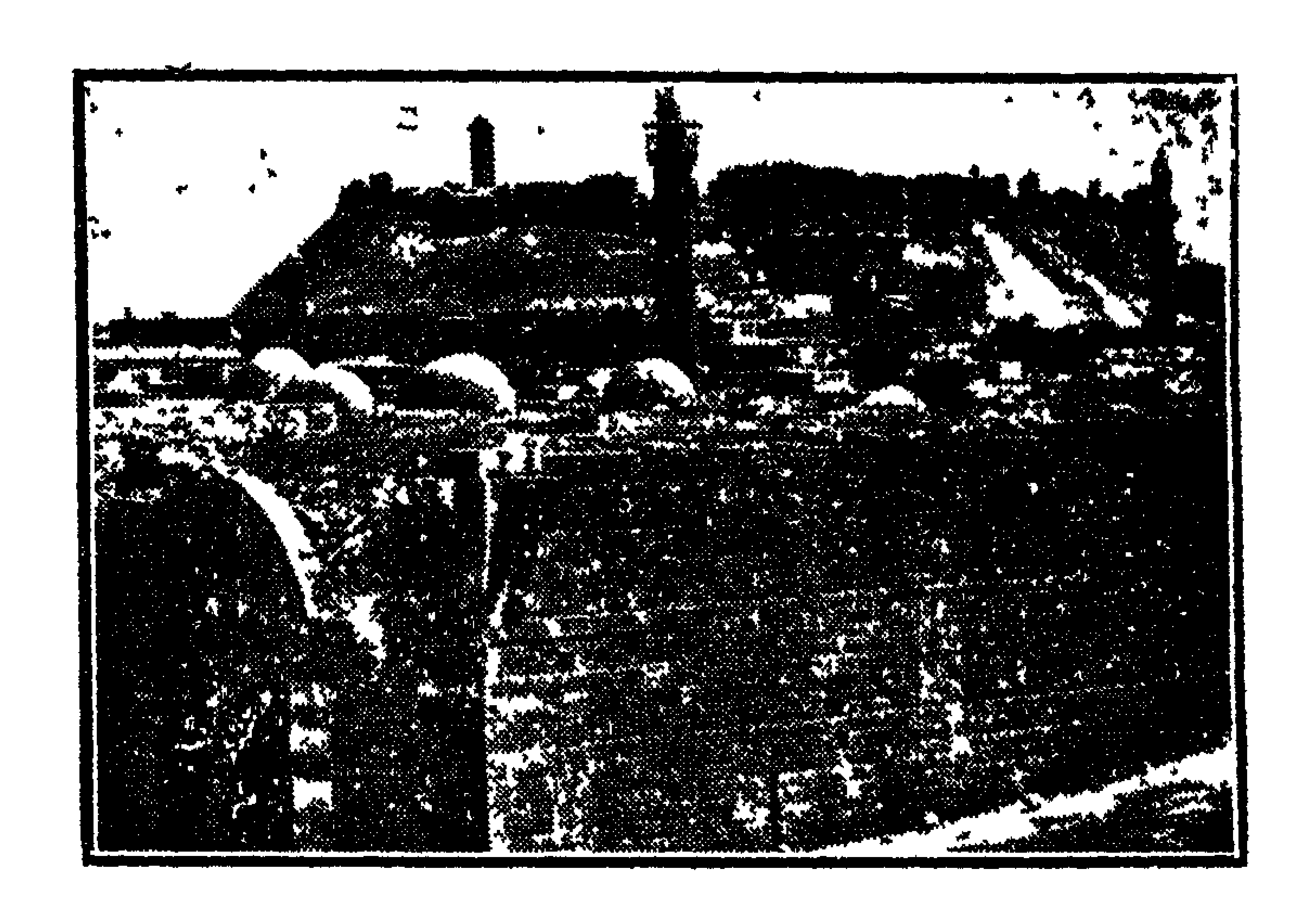
مثل (اللونجا) ولم ألاحظ بينهم عادة التقاسيم الفردية من العود والكمان وغيرها ، أعقب ذلك فاصل آخر عرض فيه العازفون بعض الموسيقى الاسبانية فى شبه طنبور ومزمار طويل ودف ، وكان العازفون يلبسون أردية عجيبة من سراويل ضيقة (وجكتات) زرقاء ، ورئيسهم فى معطف أخضر طويل ، وأمام أولئك صف من السيدات تغطى رؤسهن بمنطقة بيضاء ، بدأوا العزف فى دور موسيقى صامت ، ثم أعقبه مغنى حماسى ،



(شكل ٢٩) مقبره سيدنا زكريا داخل المسجد الجامع فى حلب

ثم رقص اسبانى يصحبه تصفيق من الفتيات ، وصيحات من الرجال فيما يحكى (الرقص البلدى) عندنا ، فكان الطرب آخذاً منا كل مأخذ ، فقلت فى نفسى لم لا يحاول معهد موسيقانا عرض مثل هاتيك الشرقيات ، فيعطينا فكرة عن موسيقى جيراننا : الأندلس ، والمغرب ، والشام ، والترك ، والعرب ، وهى أقرب إلى أسماعنا من موسيقى الغرب التى لا تروقنا كثيرا ؟

قصدت إلى مقر الغازى حيث قصره المنيف يشرف على ربوة حولها حدائقه ودونها حى (تشان كايا) الحديث فى طرقه الممدودة وقصوره الفاخرة ، وهى مسكن الطبقات الارستقراطية ، ودور السفارات ، ومن بينها سفارتنا . وكنت أعجب لاختيارهم أنقرة فى ذلك الموقع المحدب الجاف تحيط به الربى التى عريت عن النبت



(شكل ٣٠) مدخل سوق القطن فى حلب ، وتشرف عليه
قلعة المدينة وكأنها الطود السامج

فى منظر غير جذاب ، على أن موقعها المتوسط من هضبة الأناضول وسهولة تحصينها بسبب ما يحوطها من ربى يبرر فى نظرى هذا الاختيار ، إذ لو أقيمت فى أطراف الدولة وهى أوفر خصباً اتعرضت لهجمات العدو ، والقوم مبالغون فى نشر المتنزهات ووسائل التجميل فى كل ناحية ، وترى أفراد الشعب يدخلون بدون قيد متنزهات دور الحكومة وقصور الغازى . وكنت أرى ديمقراطيتهم بادية فى تجاور الفقراء بأسمالهم الرثة وهم الأغلبية إلى جانب الأغنياء . وعناية القوم بأطفالهم زائدة ، فكنت أرى الأب المدقع فى ثيابه البالية يحمل طفله فى هندام نظيف ، ووجه أبيض ناصع لا تشوبه قذارة قط ، والرجال يعنون بأطفالهم ونسائهم فترى زوجة هـذا الفقير فى أردية نظيفة ، فلا تكاد تصدق أنها زوج ذاك الصعلوك ، وأجمل ما يروقك هندام الضباط من الجيش والبوليس ، مظهرهم مهيب فى ملابس أنيقة على نقيض الجنود ، فأرديتهم رديئة مهلهلة ، والغريب أن كل أولئك الأفراد ، على مظهرهم الرث ، يقرأون ويكتبون ، وقد علمت أن نسبة من يعرفون القراءة من عامـة

الشعب ٨٩٪ بعد أن كانت لا تزيد على ١٠٪ من قبل ، وذلك بفضل الجهود الجبارة التى بذلها الغازى منذ افتتح المدارس الشعبية والليلية فى جميع القرى . وأجبر الأميين أن يحضروها إلى سن الستين ومن تخلف عوقب فهل هذه جهود سنوات عشر ؟ ونحن فى مصر الغنية الموارد لبثنا فوق عشر سنوات فى نهضتنا ، ولم نستطع رفع نسبة القراءة إلا قليلا ؟ فهم لم يشترطوا للتدريس مكاناً كامل العدد ، والشئون الصحية كما نفعل . ولم يحتم أن



(شكل ٣١)
سوق حلب كأنه السرداب الحجرى

يكون المدرسون ممتازين فإن ذلك يصعب توافره فى البدء ، فالأمر الهام لديهم أن يصبح جميع الناس ممن يستطيعون القراءة ، أما المثل العليا فسبيلنا إليها لا يكون إلا بعد محو الأمية كلها .

ويحرم القانون التركى الكتابة بغير الحروف اللاتينية وهى أسهل على الناس كثيراً من الحروف العربية كذلك الصلاة لا تكون إلا بالتركية فلا يقول المؤذن (الله أكبر) ، بل يصيح بمعناها التركى ، وقد ترجم القرآن وتلك الترجمة هى التى تدرس فى المدارس ، ولمن خالف ذلك وقرأ أو صلى بالعربية سجن ثلاث سنين .

والمعيشة فى أنقرة أغلى منها فى البلاد الأخرى . لأنها تقع وسط إقليم جاف قليل الإنتاج ، وغالب حاجاتها تردها منقولة من الخارج . أما الطعام التركى فشهى

لذيذ يفوق كل ما تناولته من أطعمة فى البلدان التى زرتها فى جميع جـولاتى ، وللترك شهرة قديمة فى الطهى ، على أن الغريب بينهم يصعب عليه التفاهم معهم ، لأنهم لا يكادون يتكلمون سوى التركية وطالما تورطت فى مطاعم كانت تقدم إلى قوائم الطعام بالتركية ، والخـدم لا فهمون غيرها فـكنت أتخير الأصناف مصادفة ، حدث مرة أنى بعـد أن كدت أفرغ من الطعـام طلبت صنفاً كتب هـكـذا : Cirez Salaten خيل إلىَّ أنه

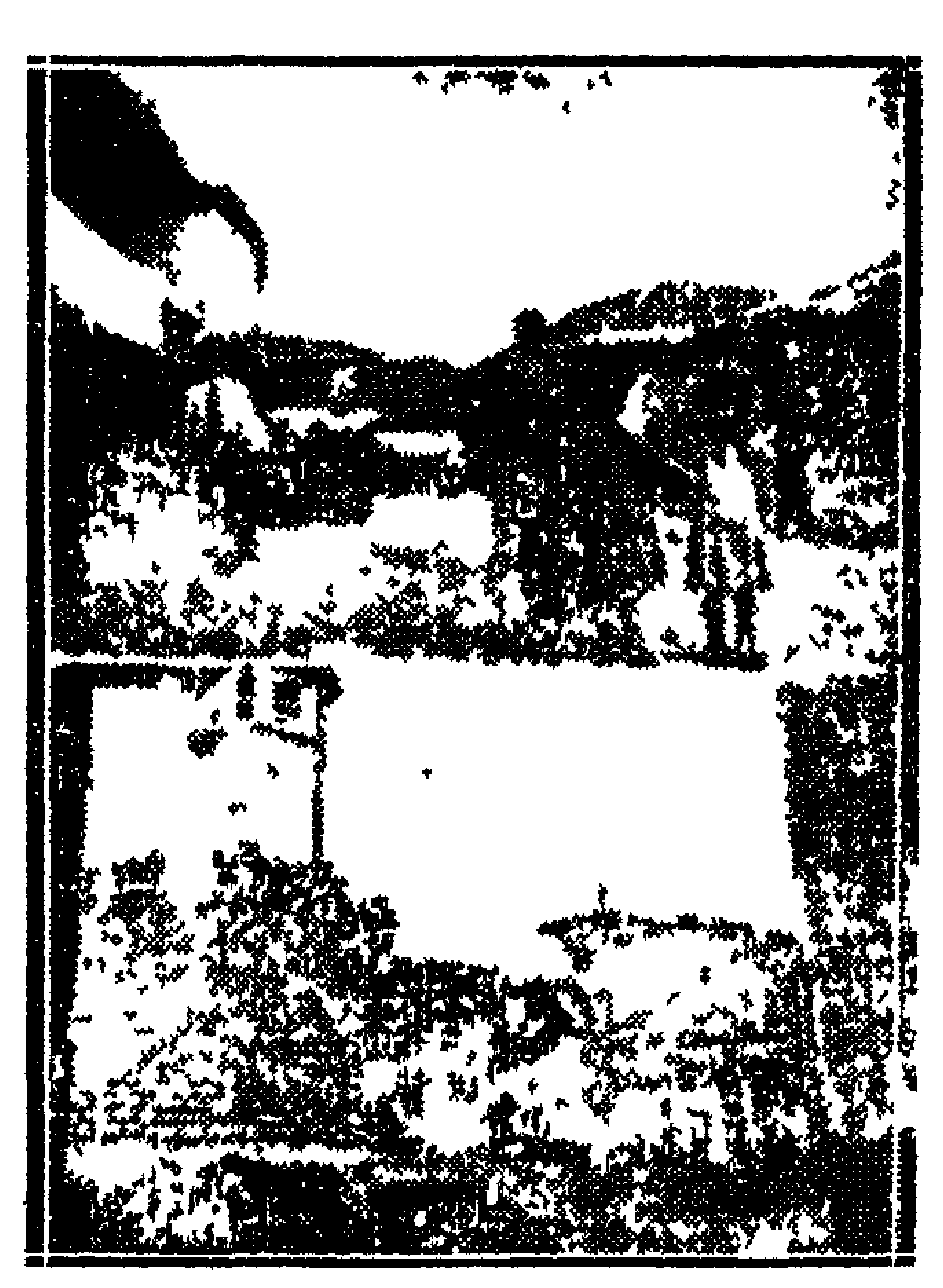


(شكل ٣٢)
الغازى مصطفى كمال باشا بطل النهضة التركيه

خشاف ه كهذ الـكريز فجاءنى الغلام به دهشاً فنظرت و إذا به مجموعة من السردين والفجل والزيتون ، ومواد أخرى لم أعرف اسمها . فأكلته ايهاماً بأن أكل الحوامض عنـدنا فى آخر الطعام . ثم تخلصت من الموقف بطلب القهوه . أما فى النزل فكانت حيرة التفاهم أدهى وأمر ، وكل يوم كانت لنا فصول كلها تزيد الموقف لذة وتفكهة .

اعتزمت السفر إلى نصيبين : فالموصل مخترقاً بلاد كردستان ولم أكن قد بدلت نقودى . فقمت مبكراً يوم الجمعة (١٤ يوليه) ، و إذا بالبلدة كلها مغلقة إذ هو يوم العطلة الأسبوعية ، وكنت أخاله من قبل يوم الأحد ، ولم أجد حتى صرافاً . فحرت فى أمرى واضطرنى ذلك أن أسافر فى الدرجة الثالثة ، حيث لم

يكف ما كان معى من نقود ثمناً لتذكرة الدرجة الثانية ، والحكومة تحتم على الناس جميعاً أن يغلقوا متاجرهم كلها إظهاراً لقوميتهم ، وحتى محال البدالة والفنادق كانت تغلق أبوابها وتعلق عليها الأعلام ، وفى الحق لم أتمالك أن أحترم الأتراك ؛ ففيهم وحشية الطورانيين . تلك التى هذبها الأثر العربى و لدين الإسلامى ، فالتركى فى أرضه عامل مجد صادق رزين شريف غير منافق متقشف يقطن أكواخاً فقيرة من طين ، ليس بها من وسائل الراحة شيء . مظهره جدى مقطب ويكاد يكون فدائياً ، ورغم حكوماته السالفة التى كانت تستبد به ظل التركى ديمقراطياً فى مجتمعاته . و بعيداً عن الاجرام كل البعد ، وأنت تراهم فى الطرقات يسيرون فى نظام وفى غير جلبة ولا ضحك ، ففى أخلاقهم شيء كبير من الخلق الانجليزى واليابانى ، وهم مؤدبون فى الحديث . فبدل أن يقول لك الواحد عند تقائك مثلاً : (مسرور بلقياك) يقول : (إن أسعد ساعات السعادة ساعة ألقاك فيها) .



(شكل ٣٣)
محل من الأحياء بمدينة الأزمة وفيها القلعة

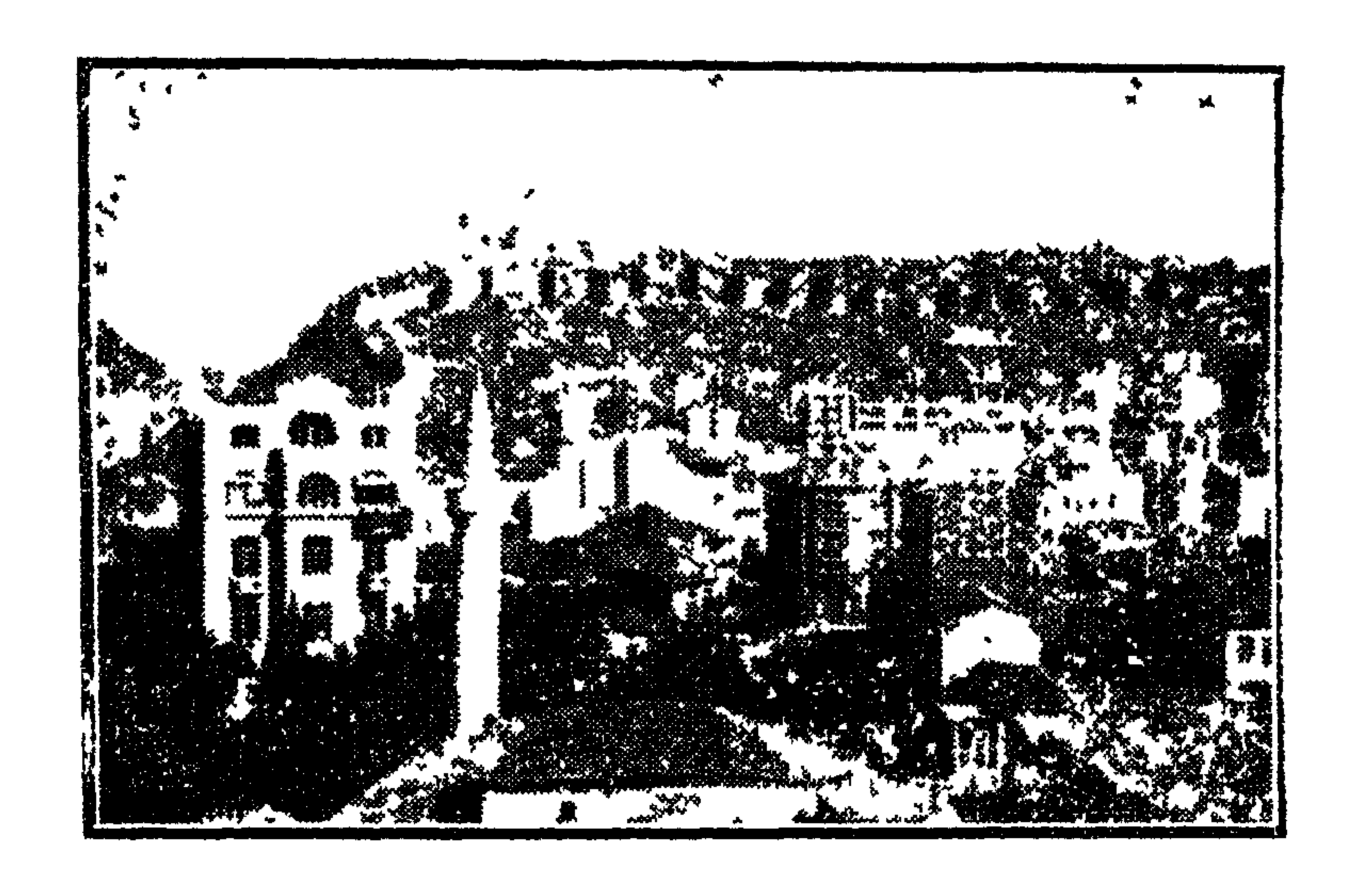
قام بنا القطار ووقف على محطة الغازى حيث مزارعه الشاسعة ، فكان سيل المزيصين دافقاً من كافة الطبقات ، فكنت أرى الفقراء المدقعين مسافرين إليها بعائلاتهم ليمضوا فى الخلاء وسط تلك المناظر الساحرة سحابة يومهم ، والغازى يشجع ذلك تشجيعاً للديمقراطية وإصلاحاً لصحة بنى قومه . بعد ذلك سار بنا القطار وسط تلك الهضاب الفقيرة التى لا يكاد يكسوها سوى عشب



(شكل ٣٤)
تمثال العارى وسط ملت ميدان

القصير ، إلا فى بقاع نادرة ، كان بها نبات القمح ، والشعير ، والطباق ، والأفيون ، ومررنا ثانية بأسكى شهر وأفيون قره حصار وقونيه ، و بعدها أوغلنا فى عقد الجبال ، وتحسن المنظر لما أن دخلنا عقد جبال طوروس بلياتها وانفاقيا المدهشة ، ثم كساها الشجر ، وكانت بقع الثلج تكسو ذراها تنزل منها مسايل الماء ، وقبيل أدنا بدا خانق كيلكيا المنيع الذى هزم الأتراك فيه الجيوش الفرنسية هزائم سجلت لهم بافتخار . وكنا نشاهد الأخشاب التى تقطع من تلك الغابات توسق فى تلك المحاط ، وأخيراً وصلنا أدنا و بعدها (فوزى باسا) حيث غيرنا القطار صوب حلب ، ثم اخترقنا جبال (انتى طوروس) وهى أقل من جبال طوروس روعة ، وفى حلب غيرنا القطار ثانية بعد أن مضى علينا ٤٨ ساعة من أنقرة وقمنا إلى نصيبين فدخلنا الحدود التركية كرة أخرى

فى أرض كردستان : بعد أن قطعنا ثلث المسافة إلى نصيبين (مسافة ٤٠٠ ك م) دخلنا أرض كردستان فغابت الجبال إلا فى شبح فاتر عند الأفق الشمالى وهى الحافة الجنوبية لهضبة الأناضول ، وكانت السهول مهملة تكسوها أعشاب برية يابسة ، وعند بلدة اسمها جرابلس ، عبرنا نهراً باسمها عظيم الاتساع ، و إن كان ماؤه سحيحاً آسناً . إذ هو موسم الجفاف هناك ، وكان الاقليم شبه صحراوى حره لافح ممض . ولم نستطع شراء شيء من المرطبات على المحاط سوى القثاء ، والبطيخ ، وكدت أسمى تلك الجهة ببلاد (البراغيث) ، لأنك



(شكل ٣٥) أول ما بدأ الانشاء فيما جاور القلعة

تسمع تلك الكلمة على لسان الجميع ، والبرعوت عملة البلاد الرئيسيه ، وهو من بقايا النقود التركية القديمة ، لذلك كنا نراه ذائعاً فى شمال سوريا أيضاً ، وهنا تغيرت القرى فأضحت بالطين بدل الحجارة ، وكان المنظر شبيهاً بمصر فى انبساطه إلا فى عدم وجود شجرة به قط والناس هناك يتكلمون أربع لغات التركية (ثلثها عربى وثلثها فارسى وثلثها تركى) والكردية (غالبها فارسى) والأرمنية والعربية ، وفى باكورة الصباح وصلنا نصيبين أى بعد سبع عشرة ساعة من حلب فإذا هى قرية كبيرة ليس بها ما يذكر سوى حصن قديم وفيها يقيم جيش الحدود التركى ، وفى ملاصقتها تماماً يقف جيش فرنسى لأن حدود سوريا تبدأ بعدها مباشرة ، والناس هناك خليط عجيب من الأرمن والكرد والعرب والشوام فى أشكال قذرة ؛ ومظهر مخيف فكأنهم جميعاً من قطاع الطرق ، وكان يسترعى النظر الكردى بعيونه السوداء البراقة الواسعة ، وأنفه الأشم ، وقامته الطويلة ، وشعره الأسود الغزير ، ونساؤهم يلبسن خرقاً مرقعة ، ويدلين من الصدغين خصلتين ثقيلتين طويلتين من



(شكل ٣٦)
نزل العارى إلى تلك السهول وأمام علها أعرة الحديدة

الشعر ، وتربط الجبهة بمنديل ملون ، وكأنهن (الغجر) والبلاد يظهر عليها الفقر والجوع بشكل مخيف .

الى الموصل : قمنا بالسيارات مسافة (٢٠٥ ك م) قطعناها وسط سهول ممدودة إلى الآفاق ليس بها نتوء واحد تربتها سوداء يعوزها المـاء ، وتزرع بقاع غلالاً وأعشاباً ، وفى نحو نصف المسافة دخلنا حدود العراق دون تغير فى تلك المناظر المملة ، وكم كان يضايقنا فى تلك البلاد كلها تشديد البوليس فى مراقبـة جوازات السفر . ففى تلك المسافة فحصت ست مرات مما أشعرنى باضطراب الأمن فيها .

العراق بلاد ما بين النهرين (مسوبوتاميا)

نبذة تاريخية

حوالى ٤٠٠٠ ق م كان الناس يعيشون جماعات فى المدن يروحون و يغدون بين الجزيرة ومصر ، وكان أولئك المستقرون يسمون السومريين والاكاديين وسميت بلادهم الناشئة سومر وأكاد ، ولا نعلم من أين أتوا ، ولكن المرجح أنهم وفدوا من منطقة جبلية متحضرة ، ولم يجد هؤلاء فى أرض الجزيرة الخصبة المنبسطة جبالاً بل ألفوا السكان الأصليين لتلك السهول من الهمج لذلك أقاموا عدداً من (الزجورات) أو البروج ، وفوق ذراها قامت معابدهم التى قدموا فوقها الضحايا لآلهتهم ، ولقد استعبدوا أهل البلاد الأصليين ، والجزيرة وأرض ما بين النهرين (مسوبوتاميا) التى تعرف اليوم بالعراق من أخصب بقاع الدنيا ، وكان نهر دجلة يسمى فى اللغة السومرية أدكنا أو أدكلا ، ومن هذه أخذ الساميون كلمة أدكلات أو دكلات التى حرفها العرب إلى دجلة ، وكان يسمى الفرات بالسامرية (پوراتن) أو الماء الوفير ، وأحياناً يعرف باسم پورا أى ماء تم حرفتها اللغة السامية إلى پورات والعرب إلى الفرات .

وتشمل العراق اليوم كالديا و بابل ، وأشور ، فكالديا كانت القطعة المجانبة للخليج الفارسى وكان الخليج يمتد شمالا إلى أبعد مما يصل إليه اليوم ، ثم طمرت رواسب النهرين جزءه الشمالى وفى شمال غرب كالديا كانت بابل ومعناها (باب الله) ، و إلى الشمال الغربى من بابل كانت أشور مقر عبادة الآلهة أشور . والأشوريون كانوا من الشعوب السامية وكانوا مهرة فى القتال والغارات إذ لم يخلفوا إلا آثاراً حربية فقط ، أما البابليون والكلدانيون فمن أصل مختلط من الساميين وغيرهم ، وهو الذى يسمى السومرى وهم الذين اخترعوا الكتابة المسمارية ، وكان لهم

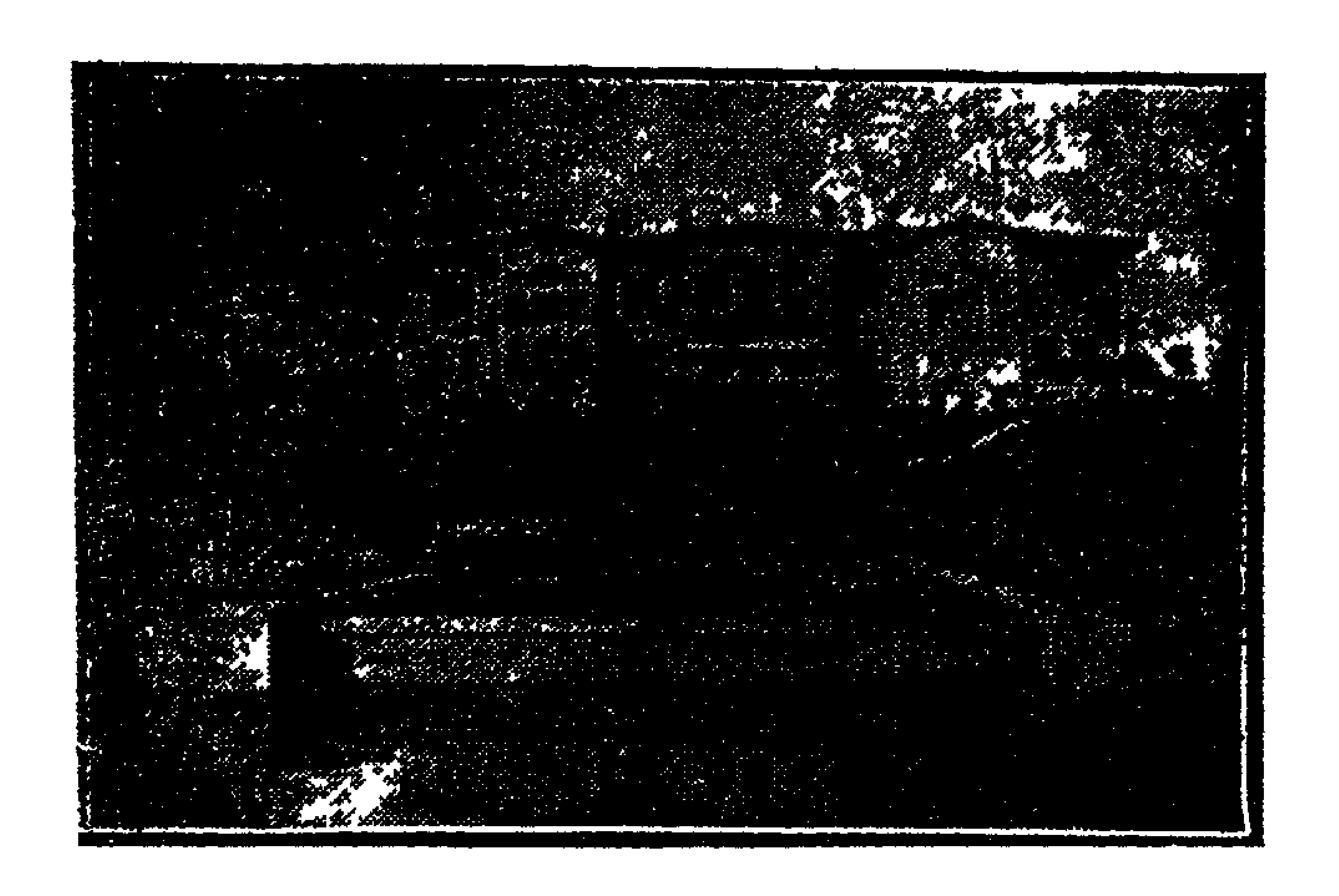


(شكل ٣٧) مثل من المباني والمنزهات والطرق الجديدة في أنقرة

شغف بالثقافة والعلوم المختلفة ، ولم نكن نعرف شيئاً عن أسور وبابل منذ قرن مضى إلا ما رواه التوراة .

وفى سنة ١٨١٨ ظن القنصل البريطانى أن تلال كويونجيك تحتوى على آثار قيمة . وفى ١٨٤٢ جاء الفرنسى (بوتا) فكشف مع لايارد الانجليزى مدينة (سارجون) المسماة اليوم (خرسباد) و نينوى التى تسمى اليوم كويونجيك . وفى الوقت عينه بدأ (يلر) يكشف أعلى درى (أور) لكنه اضطر أن يوقف العمل بسبب مقاومة البدو . وفى ١٩١٩ بدأ الدكتور هول بهذا العمل ، ثم جاءت بعثة (وولى) فنجحت فى كشف مقابر ملوك أور ومعبد آله القمر (نانار) بدرجه الضخم الذى يعلو مائة قدم . وبهو العدل و بعض المخازن ومصنع النسيج والمطبخ ومجموعة أخرى من معابد صغيرة . ولعل أهم مستكشفاته الألواح الطينية التى كتبت منذ خمسة آلاف سنة وخطها حفظة معبد أور ، وهى من أقدم الوثائق التاريخية فى العالم

ولقد بنى نمرود بابل منذ ٢١٠٠ ق م . وشاد نبوس نطل ملوكهم مدينه



(شكل ٣٨) الدار الجديدة للبرلمان ، ومن شرفته
يعزف الموسيقى كل يوم عند الأصيل

أسماها باسمه . وهى نينوى ، وفى الوقت نفسه ولد ابراهيم ، أب الجنس الإسرائيلى فى أور من الكلدانيين ، وهى التى تسمى اليوم (مُقَيَّار) ، وفى ٢٠٠٠ ق م هجر وطنه وحل جنوب الشام حيث أكرم وفادته (ملك صادق) وهو الملك السورى الذى ولى ملك جيبوس (القدس الآن) . ولقد نما نفوذه ونفوذ شعبه الذين حاربوا أهل البلاد وأجلوهم وحلوا بلادهم حتى تفرق اليهود أنفسهم بالسيف كما فعلوا بالسكان الأوائل وتفرقوا فى أرجاء المعمورة ، و بعد ذلك بقرن من الزمان ظهر حامورابى ملك بابل العظيم والمشرع المبدع ، ولقد حارب جيرانه وضم أشور لملكه ولقد كانت قوانينه قيمه تسترعى النظر من بينها : العين بالعين ، والساق بالساق ، و إذا تسبب أحد فى فقء عين أحد الفقراء ، أو كسر ساقه فعليه أن يدفع (مينا) من الفضة و إذا أجرى طبيب عملية جراحية بمشرطه البرنزى وتسبب عن ذلك موت المريض قطعت يد هذا الطبيب ، و إذا ساء بناء بيت فهوى البناء على ساكنيه وجب أن يقتل

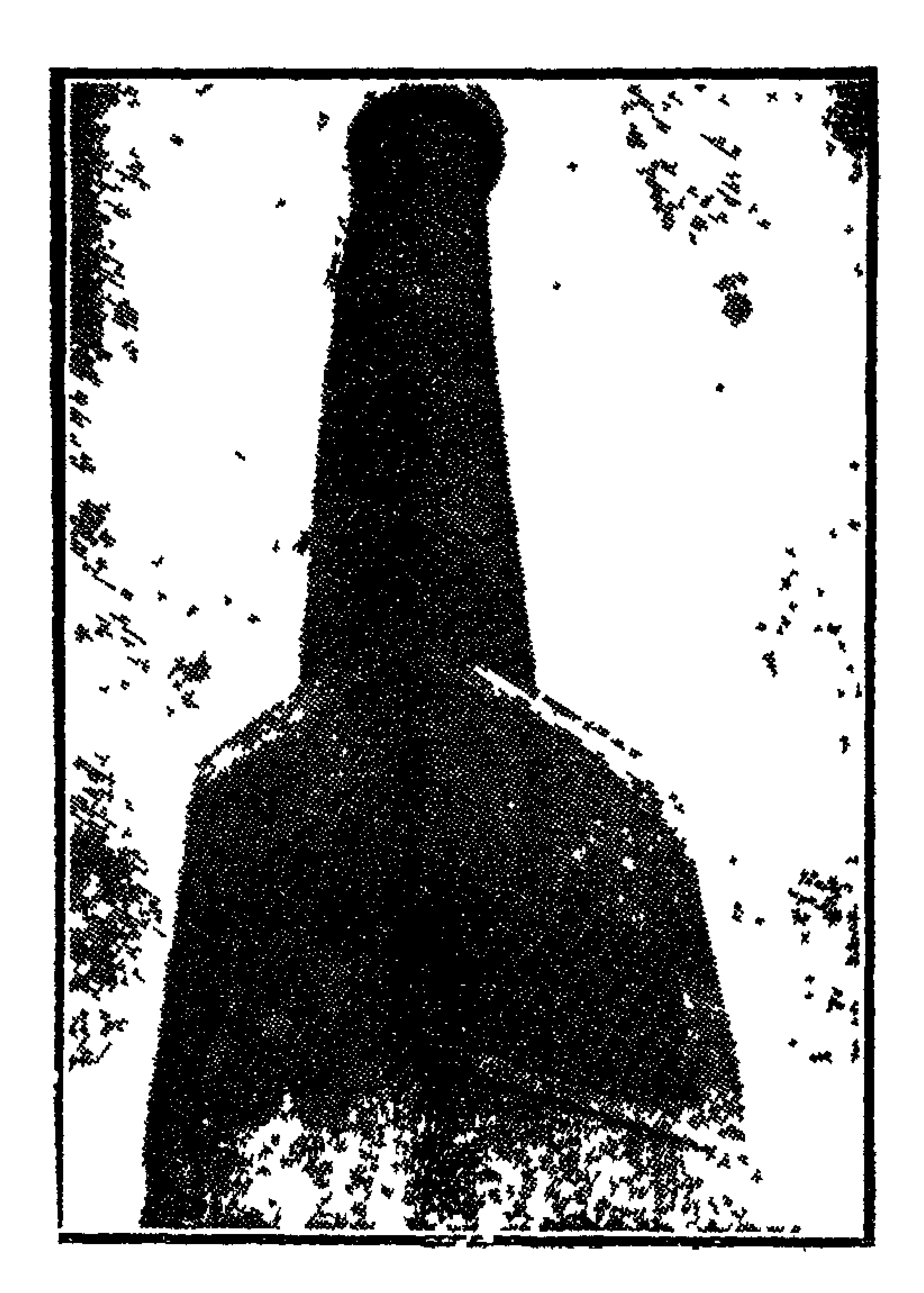
ومن ذلك نستنتج أن القوانين الموسوية قامت على أساس قانون حامورابى



(شكل ٣٩) النساء يغسلن الثياب على ضفة دجلة فى الموصل

خصوصاً فيما يتعلق بالقواعد الخلقية والاجتماعية ، وما ارتبط بالعدالة ، وقد وجد العامود الذى خطت عليه تلك القوانين مهشماً فى ثلاث قطع تراها اليوم فى متحف اللوفر فى باريس

وبين ١٦٠٠ و ٦٠٠ ق م تحول مقر الحكم والنفوذ إلى الشمال ، إذ ظهر الأشوريون من الساميين ، ولم يسجل لهم التاريخ سوى الحرب والنضال ، لذلك اتخذوا حضارة بابل أساساً لهم ، ولقد مدوا نفوذهم إلى سوريا ، ومصر ، والعرب ، وأرمينية ، وميديا ، وبابل ؛ وسادت الغلبة حيناً ، والفوضى حيناً ، حتى كانت سنة ٧٠١ ، حين حاصر سنخريب القدس ، ودمر بابل نهائياً ، وزاد فى تجميل نينوى ، وقد أعاد بناء بابل ، ومما يذكر له أنه فتح طيبة عاصمة مصر ، وتقدم له بالولاء من ملوك الأرض فى نينوى إثنان وعشرون ملكاً ، ثم أعقبه ابنه : أشور بانيبال الذى كان إلى عظمته فى الحروب محباً للعلم والأدب أعاد إخضاع الثائرين ومن بينهم مصر ، وليديا ، وغزا عيلام ، وفتح شوشان (سوسا اليوم) ، وهدأ الأرض المجانبة للخليج الفارسى التى كانت مثار اضطراب له ، وأوفد بعثة حربية إلى بلاد العرب ، ومن أوامره لأهل الخليج الفارسى ، وقد كتبت فى ألواحه



(شكل ٤٠)
مئذنة الموصل المعوجة ، وكأنها برج بيزا المائل

الطينية : (وصية الملك لأهل السواحل والبحار من بنى خدمى — السلام عليكم أرجو لكم الخير — إنى أرقبكم بعينى مراقبة دقيقة . ولقد فصلتكم عن وجه الشر (نابو بل دكرى) وإنى أرسل خادمى (بل ابنى) مشرفاً عليكم ، وإنى أزوده بأوامرى وقوتى ، وسأكون معكم أرعى مصلحتكم ، وأضع خيركم نصب عينى)

وفى سنة ٦٠٦ ق م غزا الكلدانيون والميديون نينوى ، وأحرقوها ، ومحوا دولة أشور من الوجود ، وأعاد الكلدانيون بابل التى ظلت إلى ٥٣٨ ق م .

ولقد بدأ بختنصر حكمه سنة ٦٠٠ ق م ، ونهب معبد بيت المقدس ، وساق كثيراً من اليهود إلى بلاده ، وهزم نكو فرعون مصر فى قرقميش وإليه ينسب (حصن بابليون) فى مصر القديمة . وهو الذى أقيمت عليه الكنيسة المعلقة ، وفى ٥٨٨ أسر يهودا ودمر القدس . ثم أخضع فنيقيا وأعاد بناء بابل ، ورصف طريق مروره بالصخور ، وكتب على كل حجر منها : (أنا بختنصر ملك بابل . وأنا الذى رصفت شارع بابل بحجر الجير لمرور حفل سيدنا الأعظم مردوك ، يا سيدنا مردوك هبنا ملكاً أبدياً !)

وفى ٥٣٩ ق م حارب كورش الأكبر بابل موفداً ولى عهده (بلشازار)

فأخذ بابل وأسس الامبراطورية الفارسية ، وقد كانت التوراة قد تنبأت بخراب بابل بكلمة نقشت على أحد الأحجار فى قصر بابل الشهير ، ولقد أذن كورش لليهود أن يعودوا إلى فلسطين ، وكان خلفه قمبيز هو الذى فتح مصر ، وفى إبان حكمه أعيد بناء معبد القدس ، وكانت موقعة ماراتون الاغريقية الشهيرة ، وفى عهد خلفه أجزرسيس دمرت جيوش فارس وأسطولها فى سلامس .

(شكل ٤١) الأكراد فى أردية الحفلات

ولقد استخدم الفرس الكتابة البابلية المسمارية و بفضل مخطوطاتهم التى كتبوها بثلاث لغات استطعنا فك رموز الألواح البابلية ، ومنها عرفنا تاريخ بابل ، وكان أول من قرأها الألمانى فردرك جروتفيند ، وفى ٣٣١ ق م جاء الإسكندر ودمر جيوش الفرس فى أربيل وفتح فارس كلها والأفغان إلى نهر السند . ومن هنا عاد بجيشه عن طريق البحر وقد تململ عليه ، وفى بابل وافته الوفود تقدم خضوعها ، و بسبب اسرافه فى الخمر والمجون التى لم يألفها تدهورت صحته فمات سنة ٣٢٣ فى سن لم تزد على ٣٣ سنة بعد أن فتح كل ما كان معروفاً من بلاد العالم إذ ذاك ، ولما سئل عمن يوصى به خلفاً له على ملكه أجاب قائلاً : (الملك يكون الأجدر به) . ثم نقلت جثته إلى الإسكندرية حيث دفنت . وقد تنازع القوم فيمن يخلفه إلا أن سايوكوس أحد قواده حكم البلاد من سوريا



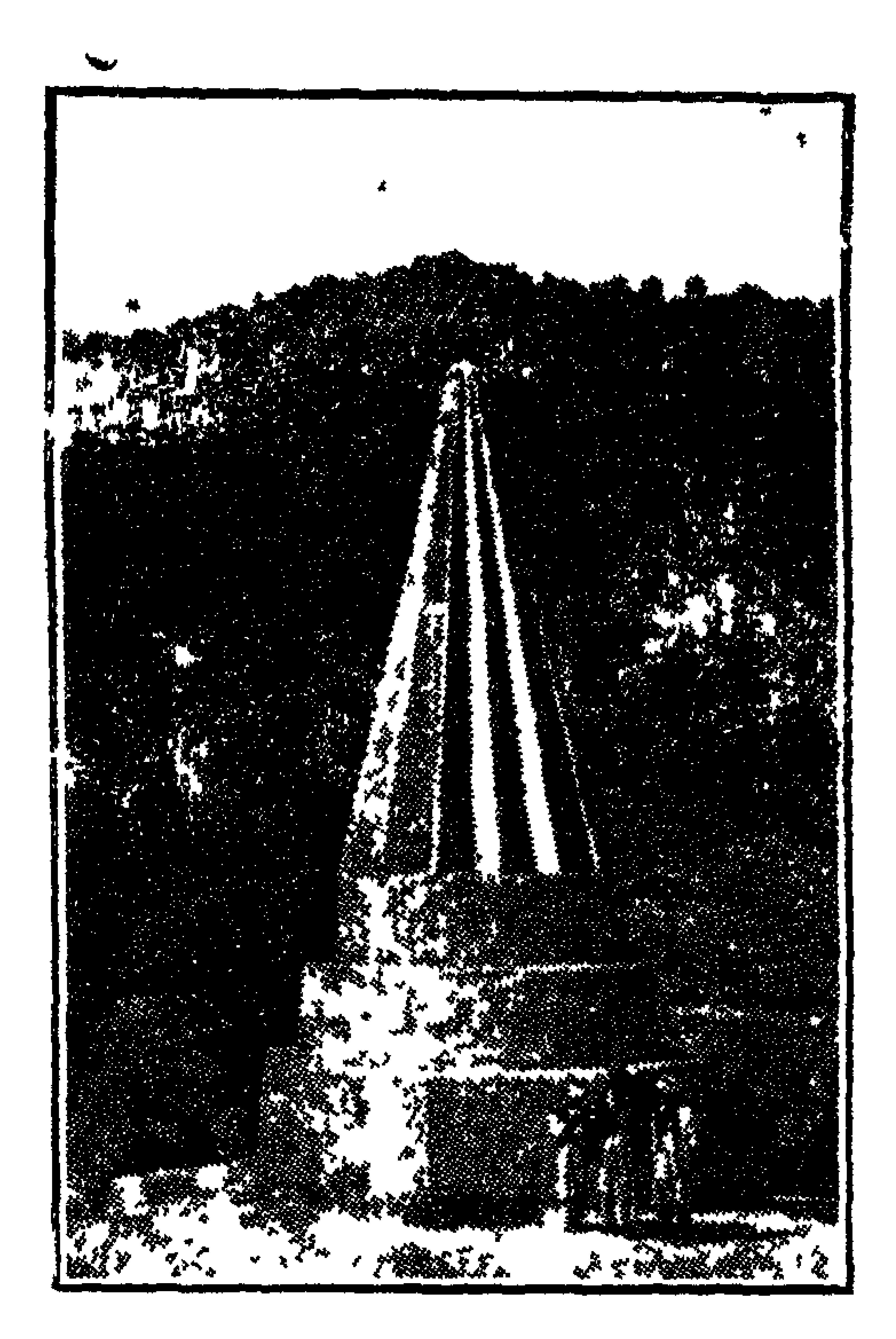
(شكل ٤٢)
زعماء اليزيديين عبدة الشيطان

شرقاً ، وظلت أسرته ١٧٣ سنة وسميت الأسرة السليوسية ، وقد أقام سلوقية واتخذها عاصمته .

وفى سنة ١٤٠ ق م هزمهم الفرطانيون من الفرس وأقاموا عاصمتهم فى طيشفون فى مجانبة سلوقية ، وأعقب الفرطانيين ملوك الساسانيين من الفرس سنة ٢٢٦ م . وفى ٢٢٧ هزم هرقل جيوش كسرى الثانى قرب نينوى وفى ٦٤١ فتح الإسلام طيشفون وانمحت دولة فارس .

وفى ٧٦٢ أقام المنصور مدينته المستديرة : بغداد ، وكان يواصل العمل مائة ألف عامل ، وقد كلفته تسعة ملايين من الجنيهات وأسماها دار السلام و إن ساد فيها بعد ذلك اسم بغداد وهو اسم زاهد كان يعيش هناك . وقد غطت عظمتها على نينوى و بابل وسلوقية وطيشفون ، و بلغت أوجها إبان حكم الرشيد ، و بعد ذلك أخذت فى الخمول حتى غزاها السلجوقيون سنة ١٠٧١ ، وفى ١٢٥٨ دمرها هولاكو ، وفى ١٣٩٣ تيمورلنك ، و بعد ذلك وقعت بغداد فريسة الحروب الداخلية والثورات حتى فتحها الأتراك وظلت تحت حكمهم حتى احتلها الانجليز فى الحرب العظمى .

بغداد اليوم : أقيمت سنة ٧٦٢ فى مكان قريتين من القرى الفارسية (بغداد والكرخ) ، وقد وضع المنصور نفسه أول لبنة بيده . وتعجب إذ تعلم أن



(شكل ٤٣)
حول هذا النصب المقدس يقدم اليزيديون ذبائحهم في (شيخ عدى) بقرب الموصل

تلك العاصمة (دار السلام) وهى أحدث عهداً من أثينا وروما والقسطنطينية ولندن ، لم تترك أثراً يدل على عظمتها الأولى على أنها لا تزال تغص بذكريات الماضى المجيد وخيالات ألف ليلة وليلة . تلمست ذلك فى أزقتها المختنقة التى كان يجوبها هرون الرشيد نفسه متخفياً ومعه بعض صحبه ليقف على شئون الناس ومظالمهم بنفسه وليرى مبلغ صلاح إدارته للبلاد ، وفى تلك الطرق الضيقة والأسواق الملتوية تذكرت شهر زاد ، والسندباد البحرى ولصوص بغداد وما إليها مما قرأت فى أقاصيص ألف ليلة . وقد اختلف القوم فى موضع بغداد الأصلى بالضبط فبعضهم يرى أنها فى مجاورة الكاظمية والبعض عند محطة (بغداد غرب) ولا يكاد يربطها بالماضى سوى أسماء ضواحيها ومدفن الإمام الأعظم أبى حنيفة ، وكان تصميم بغداد على نمط معسكر رومانى ببواباتها الأربع تواجه الجهات الفرعية للبوصلة : باب خراسان والبصرة والكوفة والشام ، وكان يقوم على كل بوابة بيت مشيد ، وكان المنصور يحب أن يأوى إلى باب خراسان كلما طلب الراحة ، وكان بالمدينة ثلاثة أسوار : إثنان متقاربان لدفع غارات العدو ، والثالث حول دور الإمارة والحكم ، وكان أبو حنيفة ممن أشرفوا على بناء المدينة ، ولقد جابوا

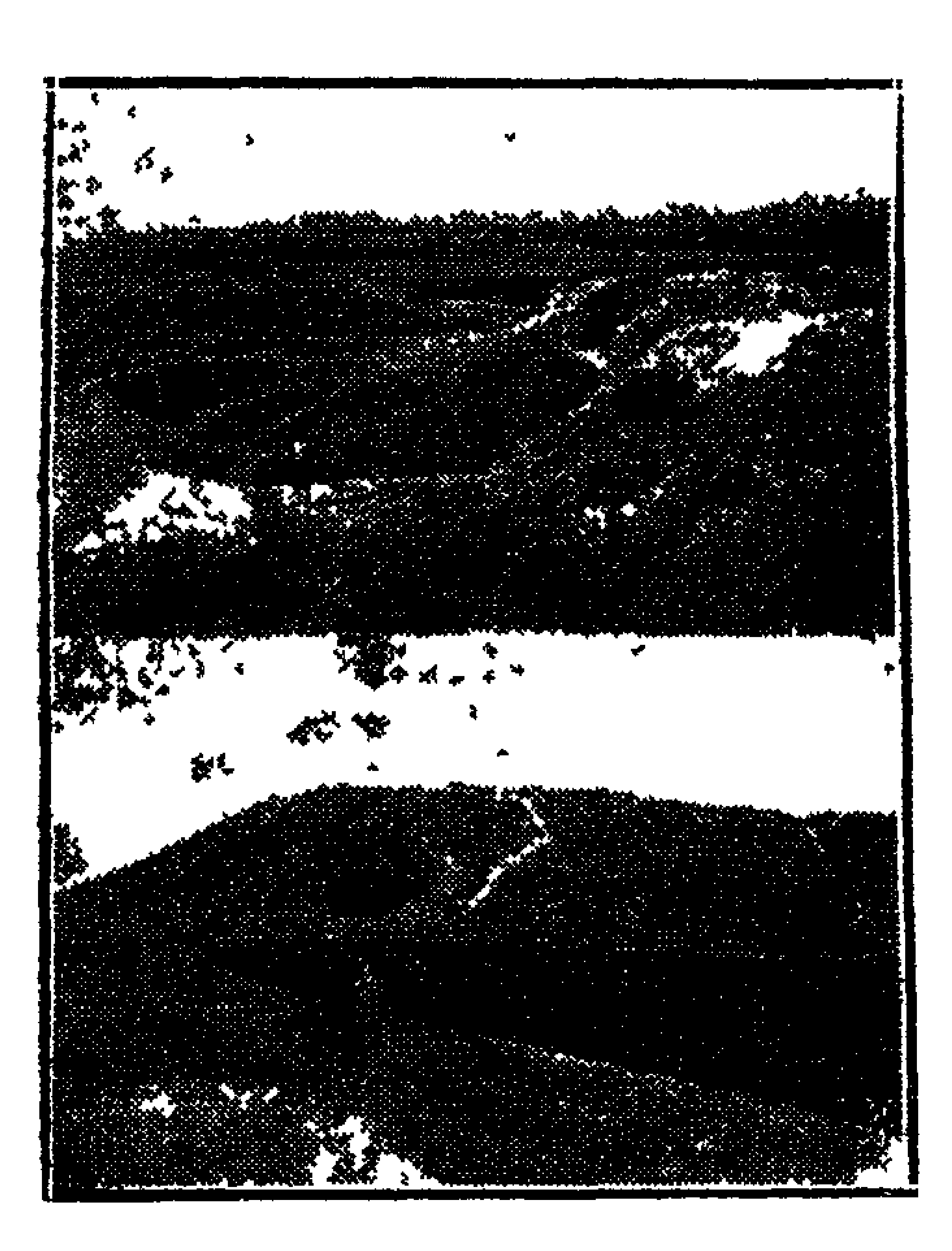


(شكل ٤٤) اليزيديون فى حفلة الزواج

مهمات البناء من كل فج — فأبوابها الحديدية التى ظنّ أن شياطين سليمان هم الذين صاغوها جلبت من واسط ، ومن بابل جلبوا الآجر . وقد حاولوا هدم طيشفون لهذا الغرض ، وفى سنة ٧٦٨ بدأوا فى بناء مسجد جديد وضاحيـــة أسموها الرصافة ، ولايزال يطلق على شرق بغداد ، وكانت تتجمع دور الصناعة والتجارة خارج الأسوار ، ولقد أدت كل الطرق الرئيسية العالمية إذ ذاك إليها ، فمن باب خراسان يبدأ (الطريق الذهبي إلى سمرقند وحى الشعراء ، والمنفذ المؤدى إلى ذهب الشرق وعلمه) ، ومن باب الكوفة يبدأ طريق الحج إلى مكة ، وقد أقامت زبيدة المحاط لراحة الحجاج فى مواضع عدة منه ، وكانت جهات الحركة خارج الأسوار تسمى الكرخ ، ولقد عاش المنصور ثلاث عشرة سنة بعد بناء مدينته ، وأعدوا له مائة مقبرة لكيلا يهتدى أعداؤه إلى مثواه الذى لا يعرف إلى اليوم ، وكان المنصور صارماً فى العدل ، شحيحاً فى المال ، حتى عرف بين الجميع بابن دو يك ، أى ابن النقود ، ولقد ظل سلائله فى الحكم خمسمائة سنة .

الموصل : مثوى أبى تمام الطائى ، ومنها الطغرائى صاحب اللامية المشهورة وأبناء الأثير الثلاثة ، وكانت عاصمة بنى حمدان ، ثم عاصمة الدولة الزنكية ، لذلك كنت أحسبها بلدة مشيدة جذابة ، فإذا بها مجموعة من أبنية تحكى أبنية القرون

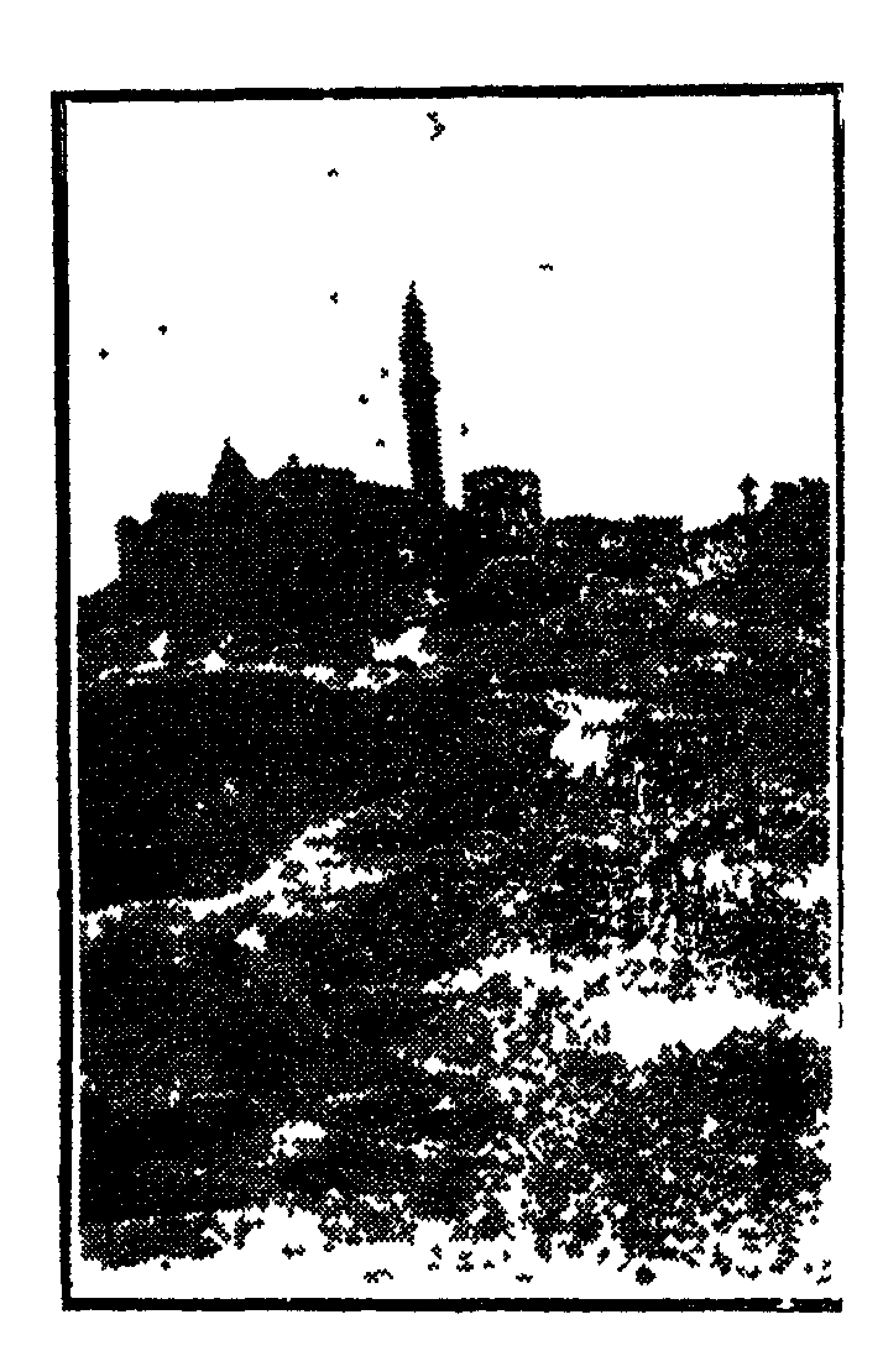
الوسطى ، كلها أقبية فطساء كالسجون ، والبلدة قذرة مهدمة ليس فيها حى واحد يمتدح ، فكأنها بلدة أثرية ، وحتى نهر دجلة التى تقع عليه تراه قذراً منتناً وتطل عليه البيوت القديمة فى غير نظام ، وأسواقها أجحار صغيرة ، وأنت أينما سرت اشمأزت نفسك من الروائح الكريهة التى تنبعث من كل مكان ، وزاد الطين بلة جوها اللافح المحرق ، فأنت لا تكاد تبصر من كثرة الدخان والتراب الذى يخيم فى هوائها ، ويحرج الصدر ، ولقد



(شكل ٤٥)
وسط اطلال نينوى التى تطل على الموصل

أذكرتنى بهجير بلاد الهند ، وعلى ضفاف دجلة يلقى القوم قماماتهم وأقذارهم ، وترى جميع النساء يغسلن ثيابهن ، وبيد كل مطرقة لدق الثياب ، والبلدة عاصة بالمقاهى الوطيئة ، ترى الناس قعوداً بها كأنهم الذباب ، والمساكن كأنها الجب تنظر فترى أهلها نياماً على الأرض داخل ذاك الظلام فى خمول منكر ، وهناك معبر لدجلة بقنطرة تحملها الزوارق وتكملها قنطرة من حجارة إذا طا الماء مر خلال عيونها ، وقد كان النهر إبان حزره إذ لا يفيض بالماء إلا فى الشتاء .

وأهل البلدة أخلاط من أجناس لا حد لها من بينهم الأكراد بأرديتهم الفضفاضة يحملون أسلحتهم معهم دائماً ، واليزيديون فى مظهرهم الوحشى بقمصانهم الحمراء الغريبة ، والأشوريون من الجبال وسحنهم تدل على أنهم من قطاع الطرق ، والكلدانيون فى سراويلهم ، وقد وفدوا من القرى المسيحية ، والبدو بوجوههم التى كادت تحرقها الشمس وكثير غير أولئك . والعراقيون قوم



(سكل ٤٦)
مقام النبى يونس فوق أنقاص نينوى

نحاف طوال القامات ، أنوفهم منقارية سامية كأنوف اليهود ، ويلبسون اليوم فوق رءوسهم (الفيصلية) فى ألوان مختلفة وشكل مضحك يذكر المرء بعرف الديك ولا أرى فيها وقاية من شمس أو مطر ، أما المحافظون فيلبسون العقـال ، ونساؤهم أكثر رشاقة من التركيات ، وأعجب شىء فى هندامهن المعطف الخارجى (العبا) ؛ فهو كالعباءة من الحرير الأسود يرسل من فوق الرأس ، فيرفرف فى حرير مهفهف فضفاض وشكل أنيق .

والبلاد رخيصة ، فالفندق الكبير لم يزد أجره على عشرة قروش ، ووجبة الطعام الفاخرة كذلك ، غير أن الطهى هنـاك دونه فى تركيا بكثير ، وأساس نقودهم (الفلس) ، والدينار يساوى ألف فلس ، وهو يعادل جنيهاً انجليزياً ، وأنت لا تكاد تسمع من القوم إلاّ حديث (الفلوس) ، فكأنى قد انتقلت من بلاد (البرغوث) إلى بلاد (الفلس) ، وهم يعطون صنوف الطعام أسماء غريبة لا نفهمها ، فالمطبخ مثلاً يسمونه (شمزى) .

والموصل محرومة من السكة الحديدية ، مع أنها كانت فى الزمن الغابر أكبر مركز تجارى وصناعى ، وكانت تتوافر بها الغــــلال ، وكانت تقع على الطريق التجارى الهام بين حلب و بغداد إلى الشرق ، وفى زمن العباسيين كانت تشتهر بنسيج من القطن الناعم سمى (موسلين) ، أو (موصلى) وهو لا يزال يحمل هذا

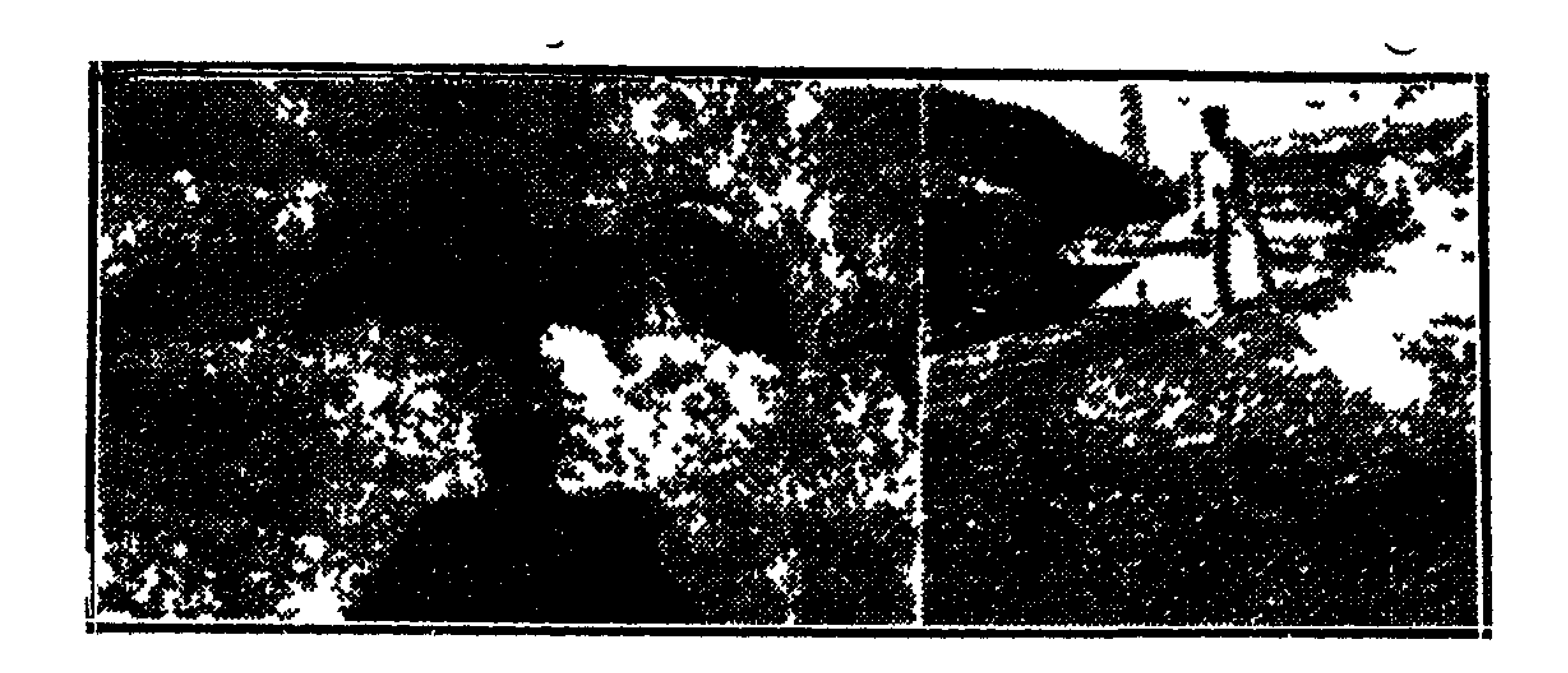
الاسم فى الدنيا رغم أنها لا تصنع منه شيئاً اليوم ، وحولها منطقة عظيمة الخصب ، وتجاورها منابع البترول . كل ذلك يجعل الزائر يدهش لعدم



(شكل ٤٧) سوق كركوك

وصلها بسكة الحديد ، وحول المدينة بقايا سور زرنا منه جزءاً ، بجانبه مدفن المؤرخ العربى (ابن الأثير) ، ولم تكن الموصل منطقة صالحة للسكنى فى الحرب الكبرى ، إذ داهمتها التيفوس والطاعون الذى دفع بالسكان هناك أن يأكلوا اللحم الآدمى وكان يباع خفية ، وقد ضبط بعضهم وسنق فى الميدان الرئيسى ؛ ولعل أحسن ما يزار فيها المسجد الكبير الذى زاره ابن بطوطه فى رحلته وكتب عنه .

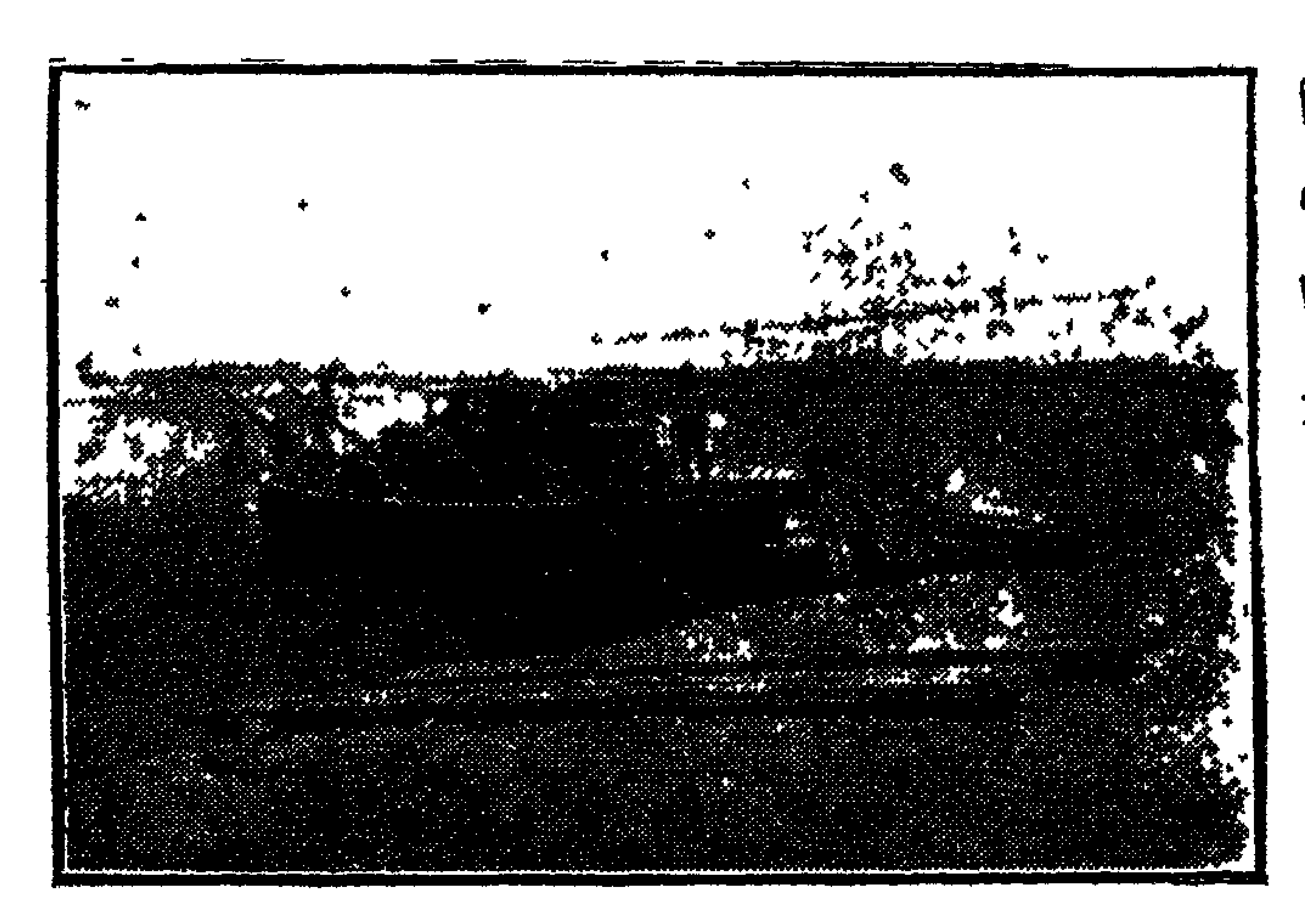
اليزيديون عبدة الشيطان : وأعجب من رأيتهم فى الموصل اليزيديون فى أرديتهم الحمراء الغريبة . يرون أن الله روح عليا سامية حلت قدرته فى ملك الطاووس (الشيطان) الذى يتصرف فى العالم كيفما شاء ، ويصيب الناس بالأمراض والأذى كما يسبغ عليهم نعمة الصحة والرخاء ، وشعار الشيطان لديهم طائر شبيه بالطاووس ، وهم لا يسمونه الشيطان ، فتلك كلمة مزرية مهينة ، بل يسمونه (أمير الظلام) ، أو : (ملك الطاووس) ، وهم يتوسلون إليه بالصدقات والقرابين ، ولا يعلمون أولادهم قواعد للصلاة ، ولا التعبد ، ويقولون إن الصلاة فى القلب ، ويجب ألا تكون لها شعائر ظاهرة ، ولم يأمرهم كتابهم المقدس بشىء



(شكل ٤٨) وسط عيون البترول فى بابا جرجر (كركوك — الموصل)

من ذلك لكن عليهم أن يؤدوا كثيراً من الواجبات لقساوستهم ومعابدهم ، وهم يشركونهم فيما لا يقل عن ربع إيرادهم السنوى ، وميلهم للتصدق عظيم أضحى مضرب الأمثال ، ويقال أن أمراءهم وهم فى مقام القسس من سلالة يزيد ، ومن ثم جاءت تسميتهم باليزيديين ، ولكل مجموعة من عائلاتهم قسيس أو أمير أمره مطاع وعطاياهم إياه واجبة ، فان قصر أحدهم فى ذلك حلت عليه لعنة الأمير فأضحى من الخوارج ، وتلك الضرائب يتقاضاها القسيس عند الميلاد والزواج والموت ، وفى وقت الشدة والرخاء شكراً لله وقساوستهم طبقات ، منهم طائفة يسمونها (كوشيك) ، يلبسون أردية سوداء ولا يختتنون كباقى اليزيديين وهم الذين يتولون الموتى بالغسل والدفن . فتفتح المقبرة ويقبل الناس و يبدهم القرابين وبعد قليل يتمتم (الكوتشيك) ويرغى ، ثم يغيب عن العالم وهو ملقى على الأرض ، ثم يفيق بعد أن يكون قد اتصل بالأرواح ، وعندئذ يخبر الناس عن مآل روح الفقيد وهل حلت مولوداً آدمياً جديداً — وذلك إن كانت العطايا كافية على ما أظن — أوحلت جسد كلب أو حمار أو حيوان خسيس ، وفى جميع الحالات يقدم له الطعام لمدة سنة وتهدى إليه كل ملابس الفقيد . وهم لا يعتقدون فى جهنم . ويقص البسطاء منهم نبأ طفل كان اسمه (أبريق الشوطه) أصيب بمجموعة من أمراض وعاهات فأخذ يبكى بدموع جمعها فى جرة مدة

سبع سنين ، ثم صبها على نيران الجحيم فأطفأها فشكرته الآلهة على فعاته ، ويرون أن الله خلق ٧٢ آدماً ظلت ذرية كل منهم عشرة آلاف سنة وبين



(شكل ٤٩) نعبر نهر الذاب بسياراتنا على تلك السابحة

كل واحد والآخر فترة مثلها لم يكن بها من الناس أحد ، واليزيديون أبناء آدم الأخير لا عن طريق حواء بل عن طريق حورية التى زفها ملائكة الجن لآدم ، وهم ليسوا أبناء حواء ، فان قالوا ابن حواء قصدوا غيرهم ، وهم يقولون بأن جدهم نوح ، وان لغة الجنة هى اللغة الكردية التى يتكلمونها اليوم .

ومن عاداتهم أن تقرع الطبول عند زواج أى فرد منهم لاشهاد الناس أن فلاناً قد تم زواجه من فلانة وهم يبيحون تعدد الزوجات ، لكنهم لا يبيحون الطلاق قط ، ونساؤهم سافرات إلا فى الأسبوع الأول من الزواج حين تظل الزوجة فى عزلة تامة ، والأمير يستطيع بسلطته أن يسلب أية فتاة شاء ولا عيب على الفريقين فى ذلك . والشيخ هو الذى يقود الزوجة إلى بيت زوجها ليلة الزفاف ولا تخطو عتبة الباب إلا بعد ذبح شاة تطأ دمها وهى داخلة ولتوثيق صلة الزوجية يضرب الزوج جرة (قلة) بها مجموعة من أجراس فى الحائط فوق رأسها ثم يكسر رغيفاً ليعلمها كيف تكون شفيقة بالجائعين .

وغالب اليزيديين فى مقاطعة الموصل وعددهم بين ١٨ ، ٢٠ ألفاً ، ومنهم بقية ضئيلة فى الشام ، وأخرى فى القوقاز ؛ لكن ثلاثة أرباعهم فى الموصل حول جبال



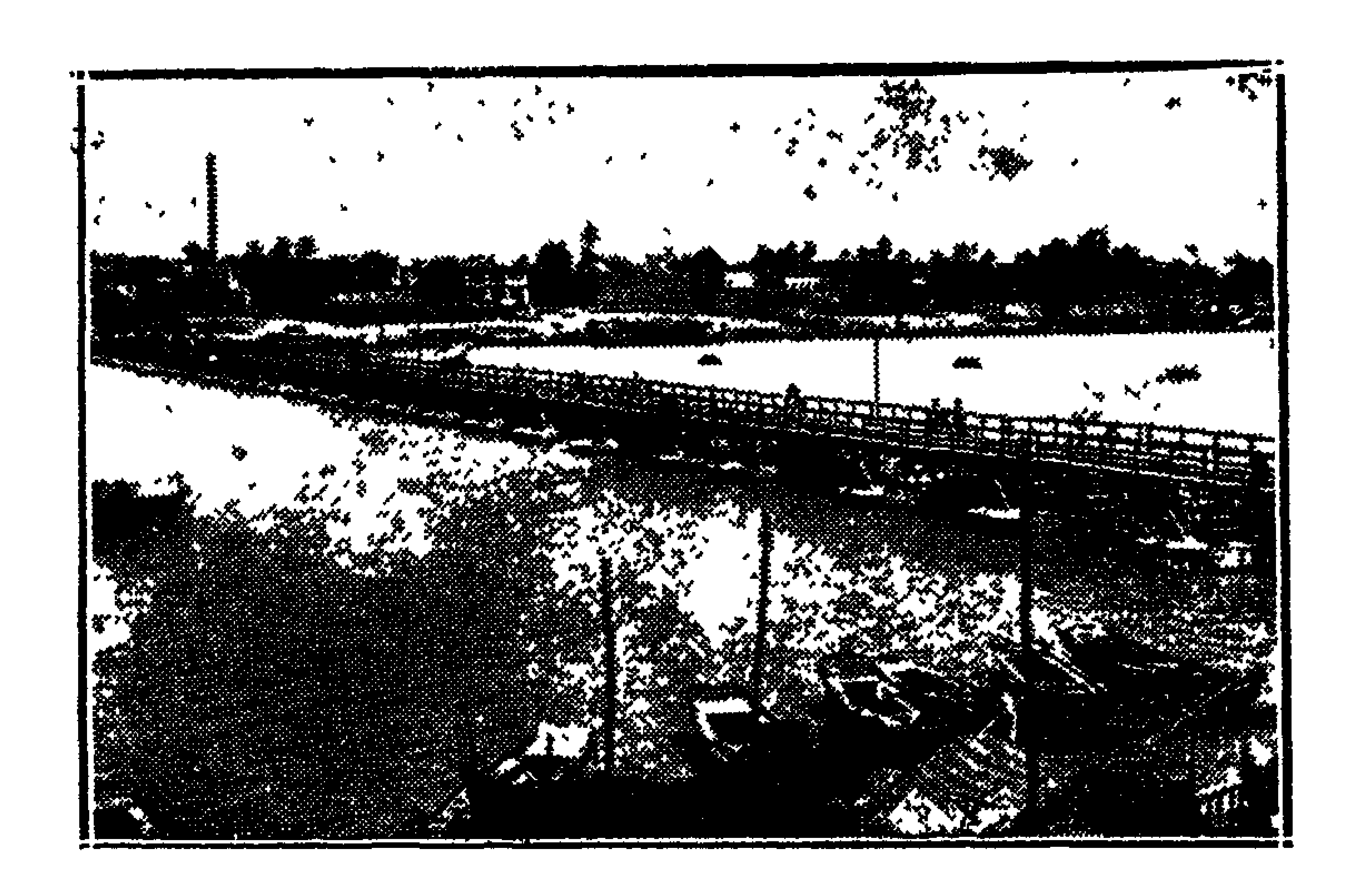
(شكل ٥٠)

التارع الجديد أو شارع ابن الرشيد ويكاد يكون الوحيد في بغداد

(سنجار) ، وكعبتهم المقدسة (شيخ عدى) على مسيرة ٣٥ ميلاً من الموصل يزورونها فى عيدهم الأكبر فى أكتوبر ، والشيخ عدى قديس سورى نزل هذا المكان ونشر مذهبه فى القرن العاشر ، وأخرج كتابه المقدس ، وقد قبض عليه جنكيز خان وساقه إلى فارس حيث قتل ، ومن سلائله : (شيخ عدى ابن المظفر) الذى دفن فى هذا المكان ونبع تحته الماء المقدس الذى يخالونه متصلاً بزمزم ، وقد وجدت تلك العقيدة فى بلاد الأكراد منبتاً خصباً ؛ لأنها كانت تدين بالوثنية ، وعبادة الطبيعة من شمس وقمر وشجر وينابيع . لذلك لاتزال ترى لهذا أثراً فى مذهبهم ، فهم يقدسون الشمس والقمر ، ويقبلون الأرض جهة المشرق والمغرب ، ولشدة خوفهم من الإسلام أخفوا أسرار كتبهم المقدسة ، وكل من أفشى سيئاً أعدم فوراً . لكن حدث أن أحدهم اعتنق النصرانية ، فأفشى سر تلك الكتب إلى اقسيس آنسطاسى أحد زعماء المسيحية الذى دفع للرجل مبالغ طائلة ، كى ينسخ الصفحات نسخاً مضبوطاً ففعل وترجمت ، وهما كتابان : (كتاب جلوه) ومعناه الجلاء ، والكتاب الأسود (مصحف رش) والآيات مخطوطة على الجلد وتحفظ فى صندوق من فضة . عليه صورة طاووس ، ومفاتيحه بيد الأمير ، ولا يقرأه إلاّ القسس ، أما أفراد الناس فممنوعون حتى من تعلم الكتابة لهذا الغرض .

وأكثف جموعهم حول (باعذرى) بقرب الكوش فى كردستان ، والمعبد الرئيسى فوق جبالهم التى شهرت بقطاع الطرق ، وتطلى معابدهم و بيوتهم ومقابرهم باللون الأبيض ، لأن الشيطان يحب ذلك اللون ، وحول المعبد مجموعة من مبان حقيرة أعدت لإيواء الحجاج فى موسم الحج ، وتراب المكان مقدس عندهم ، يعجنون منه أقراصاً يكسرون واحداً منها لتبريك الزوجية ، وتوضع قطعة منها فى فم الميت قبل الدفن ، و باب المعبد مزركش بالنقوش ، وهناك ترى أفعى ذات رأس أسود هى شـــعار للشيطان ، وقبيل زيارة المكان يجب تقبيلها ، ثم تخلع الأحذية قبل الدخول ، ولا يجوز لمس عتبة المدخل لأنها مقدسة .

نينوى : أقلتنى من الموصل (عربانه) إلى نينوى فى مواجهة الموصل من الضفة الأخرى لدجلة ، وفى نحو ثلث ساعة بدت كومة كبيرة من الثرى والطين المتماسك فى ارتفاع كبير . تسلقتها فتجات الموصل على بعـد وراء النهر فى مشهد جميل بمآذنها العديدة ، أما ذاك الطلل فلم أر به إلاّ سراديب ومغائر لم تنم عن شىء من العظمة البائدة ، فلقد كان أهلها حربيين بواسل ؛ وملكها قائداً عظيما ، ولم يكن لهم دراية قط بالزراعة والصناعة ، كلا ولا بأى نوع من أنواع العمل سوى الحرب ، وكانت تزود نفسها بحاجياتها من الأســلاب ؛ وحتى المهندسين الذين شادوها كانوا من أسرى الحرب ، وكم نقل ملوكها من عشائر وشعوب أخرى ، ولقد كان معبودهم الأكبر (أشور) شادوا له المعابد الهائلة وشنوا باسمه الغارات ، وأخذوا الغنائم وأخضعوا جميع جيرانهم لسلطانهم وأرغموهم على دفع الجزية ، ومن بينهم آسيا الصغرى ، وقبرص ، وفلسطين ، وكردستان وحتى مصر نفسها ، وكان نزلاؤها الأوائل من أهل بابل ، ولا نعلم متى احتلوها باليقين لـكنها كانت قائمة سنة ٣٠٠٠ ق م ؛ وكان حكامها الأول أتباع ملوك بابل وأهلها أقرب شبهاً بالدم السامى من أهل بابل ، فهم بنو عمومة الاسرائيليين ، وكانت لغتهم أشـــبه بلغة



(شكل ١٥) جسر مود ويقوم كسائر جسور بغداد على الزوارق

آل يهودا ، ولقد خربها الميديون سنة ٦٠٦ ق م . ومحوا آثارها حتى لم يكن يعرف موقعها أحد ، ولما جاء العرب وأسسوا الموصل أبصروا بالتلال قبالتها فتخيلوها مقر الجن الذين رصدوا الحراسة كنوزها القديمة حتى كشف الأور بيون عن الكثير من آثارها و بخاصة الألواح الحجرية التى نقشت بالخط المسمارى وتماثيل هائلة لثيران لها أجنحة الطير ، ووجوه الآدميين بلحى مرسلة أيدت أن تلك لا شك اطلال لمدينة عظيمة . وكنت أرى آثار الاحتراق والتخريب بادية فى بقاياها من أثر الغاصب . ولقد بلغت أوجها إبان حكم (سنخريب) أخريات القرن الثامن قبل الميلاد ، ويظهر أن ذاك الملك أراد أن ينشئها من جديد فشاد لها الأسوار المنيعة التى تراوح علوها بين خمسين ومائة قدم ، وعرضها وسع مرور أربع عربات متجاورات تتخللها أبواب من خشب الأرز تزينها مقابض النحاس ، وكانت تجانبها السباع ذوات الأجنحة يزن الواحد خمسين طناً ، و يطل الباب الغربى على دجلة ، وكان يشق الأسوار والبلدة رافد لدجلة هو (خصار) كانت تزين جوانبه القصور الملكية الفاخرة ، وقد مررت فى تجوالى بمكانها من هذا التل الذى

يسمونه (كويونجيك) هنا ذكرت (أشور بانبال) فى قصره الفاخر وسط كنوزه القيمة ، وقد أحاط به الغزاة فآثر أن يموت بنار العدو التى التهمت القصر وما فيه ، وكم كان تشفى أنبياء بنى إسرائيل ناهوم وسفانيا عظيماً إذ شهدا تدمير مملكة أشور التى عاثت فى الأرض قتلاً وسلباً .

نزلت من ذاك التل الخرب صوب تل آخر يقع إلى جنوبه بقليل ويسمونه (النبى يونس) وهو أيضاً من بقايا ضواحى نينوى ولم يتعرض للتنقيب فيه أحد لأن رفات النبى يونس الذى ابتلعه الحوت تدفن فوقه فى مسجد ذى مئذنة مشرفة دقيقة ، وفى داخل الحجرة الوسطى رأيت قطعة من سمكة كبيرة من ذوات السيف ، يقول القوم عنها أنها السمكة التى ابتلعت يونس عليه السلام ، وقد استرعت نظرى البسط الثمينة التى يفرش بها المسجد والضريح ، وقد أهداها إليه سلاطين آل عثمان : ويقول البعض إن ذاك المدفن لا يحوى عظام سيدنا يونس بل عظام قديس مسيحى كان يقوم حوله دير قديم ! وفى جوانب ذاك التل عثر بعض علماء الألمان على المكتبة الملكية لنينوى فى الألواح الطينية التى بحثت فى مختلف العلوم والتى نقلها ملوكهم ، وبخاصة (أشور بانيبال) من مختلف بلدان العالم ونقشها على الطين كتّاب إخصائيون بالخط المسمارى ، ومن أشهر ما ترجم منها قصة الطوفان ، والبطل (جالجاميش) .

الى كركوك ومنابع البترول : قمت مسرعاً من الموصل تلك البلدة التى استقبلنا جوها اللافح أسوأ استقبال ، ولم تترك البلدة فى ذاكرتى فضيلة أذكرها بها ، اللهم إلاّ كرم أهلها ، والعراقيون قوم كرام بحق ، فقد جمعوا بين كرم الخصب الزراعى وكرم عرب البادية ، حدث أنى كنت أتناول الغداء فى أحد مطاعم الموصل ، وكان يجلس قبالتى عراقى . فجرتنا مناسبة شدة الحر إلى طرف من الحديث ، وما كدت أستأذن بعد انتهاء الطعام حتى قال لى : تمهل حتى تتناول البوظة (أى الدندرمة) ، وكان قد طلبها لى ودفع ثمنها ، وحاولت الاعتذار فأبى علىّ

ذلك ، وقد كان يزاملنى فى السيارة إلى كركوك طائفة منهم كانوا كلما وقفنا نستريح فى فندق على الطريق — وقد فعلنا ذلك مرات — ألزمونى بشرب الشاى وأكل المرطبات على حسابهم ، ولم أستطع دفع شيء قط . قمت إلى كركوك فى سيارات للبريد منتظمة تقوم يومياً فى الصباح مقابل أجر ثلاثين قرشاً ، فاخترقنا دجلة ،



(شكل ٥٢) مختلف الأزياء فوق جسر مود مستراضهم عند الأصيل

ومررنا بمتنزه كبير ، أقامته البلدية ترويحاً للنفس ، وهو فسيح ، لكنه فى غير تشذيب ، ثم أوغلنا فى أرض سوداء مبسوطة إلى الآفاق ، ليس بها شجرة واحدة ، و يبدو عليها الخصب على أنها لا تزرع إلاّ على أمطار الشتاء فقط ، ثم عرجنا إلى يميننا على :

نمروذ : وهى إحدى مدن الأشوريين التى قامت قبل بناء نينوى كمقر للحكم ، ولم نر فيها سوى تل من تراب يعلوه شبه برج شاهق متهدم ، وكان نمروذ ملكاً من ملوك بابل ، يروى القوم عنه أن سيدنا ابراهيم الخليل سيق إليه وأمره نمروذ أن يعبد النار ، فقال ابراهيم : لكن الماء أقوى ، إذ هو يطفئ النار ، فقال إذن فاعبد الماء قال ولكن السحاب هو الذى يرسله قال إذن فاعبد السحاب قال بل هى الريح التى تدفعه قال فاعبدها قال لكن الإنسان مسيطر عليها ؛ فغضب نمروذ وأمر أن يعبد إبراهيم النار أو يلقى فيها فألقى فيها سبعة أيام خرج بعدها سالماً فأراد نمروذ أن يرى إله إبراهيم فبنى برج بابل لكنه لم يصل السماء فأتى بنسرين يجران عربة ودفع بها إلى السماء فسمع نمروذ صوتاً من السماء يقول :

أين تذهب يا ملحد ؟ فصوب سهماً إلى مصدر الصوت ورماه فعاد إليه ملطخاً بالدم فظن أنه طعن آلهة إبراهيم وقتلها .

ويقص الناس أن برج بابل أثار غضب الله فأنزل عليه صاعقة من السماء وكنت أسمع اسم نمروذ يطلقه العراقيون على كثير من أبنائهم .

وكانت بلدة نمروذ قائمة قبل أشور بانيبال بنحو أربعة قرون وإلى جنوبها رأينا أطلال (أشور) أقدم بلدانهم أسموها باسم آله الحرب ، ويخال البعض أن الأشوريين من سلائل الأراميين الذين حلوا شمال دجلة ، وكانوا أهل حرب ألقوا الرعب فى قلوب أهل العراق جميعاً ، ولم يكن لهم غرض من غزواتهم الدائمة سوى النهب والسلب ، لذلك لم يدم ملكهم طويلاً ، وفيها عثر بعض الألمان على جرار تدفن بها بعض موتاهم ، وفى أنقاض سورها كشف حجر كتبت عليه قصة (سميراميز) أو (سيدة القصر) ، وكانت زوج أحد ملوكهم سنة ٨٢٠ ق م ويسمى الناس هذا المكان جبل القمر .

جزنا فى طريقنا عدة أخوار جافة ، ثم عبرنا نهر الذاب الأكبر عند قرية (جوير) وهو أحد روافد دجلة تياره سريع ، وماؤه صافى الزرقة ، وكانت القرى صغيرة ، بيوتها بالطين وسقوفها منحدرة لأن مطر الشتاء كثير عندهم ، ثم عبرنا نهر الذاب الأصغر ولم نعرج بينهما على أربل التى انتصر فيها الإسكندر على دارا الثالث سنة ٣٣١ ق م ، وكانت على مقربة منا ، وكان جل الناس من الأكراد والعرب والعراقيين يتكامون التركية والعبرية والكردية ، وبعد أن قطعنا نحو مائة وسبعين كيلو متراً فى خمس ساعات دخلنا :

كركوك : فبدت على صغرها أجمل من الموصل وأعدل جوا ، بها قسم جديد لا بأس بتنسيقه ، أما المقاهى والفنادق فأقبية تحكى تلك التى فى الموصل ، وكنت أعجب لعدم سماعى العربية إلا قليلاً ، فالسواد الأعظم حتى من الأطفال يتحدثون بالتركية أولاً والكردية ثانياً فهاتان اللهجتان تكادان تكتسحان

العربية ، وغالب الناس مسلمون لـكنهم فى جهل عميق ، وسذاجة بادية ، وتعوز جسومهم النظافة ، وهندامهم التنسيق ، والتوحيد .



(شكل ٥٣)
لا يزال نساء الاسرائيليات فى بغداد محجبات

أقلتنى (عربانه) إلى بابا جرجر ، حيث توجد آبار البترول الشهيرة فوصلتها فى نصف ساعة ، وهنال بدت ميادين البترول فى سهول ممدودة إلى الآفاق يكاد ينز البترول الأسود من كل أرجائها ، وقد حفرت الشركة — وهى انجليزية فرنسية ألمانية — ٣٦ عيناً أقامت على كل شباك الحديد (والقناطيس) والسيارات ، والمضخات ، وكلها تتصل بأنابيب ترى ملقاة على الأرض ، وكأنها الشباك تجمع البترول فى المركز الرئيسى ، حيث يكرر تكريراً جزئياً ، ويدفع بمضخات فى أنابيب تمتد إلى ثغر بيروت . وفى كثير من الحفائر كنا نرى سيل البترول الأسود الناعم يتدفق ويسيل مختلطاً بالماء ، وهذا يخول لمن أراد أن يملأ صفائحه منه ، وهو يستخدم فى الرصف ، وفى بعض البؤرات وبخاصة المسماة (بابا جرجر) — ومعناها أرض النار — يشتعل لهيب من مسارب وفوهات فى الأرض ، ويظل متقداً صباح مساء ، وأنت إذا حفرت بؤرة وأشعلت بها عوداً من ثقاب ظلت الأرض ملتهبة باستمرار مما يشعر بغنى الأرض المفرط فى الزيت ، وفى مناطق الآبار نفسها يحرم القانون إشعال النار

أو التدحين ، وقد وقفت وسط الفوهة الـكبرى وكأنها كأس لبركان متأجج ، وكانت ألسنة اللهيب مندلعة من حوله وصخر الاقليم يبدو كالطفل المصفر تشوبه حمرة ونواتىء الصخر خليط من الجير والخرسان ، وأينما حفرت ظهر نز الزيت والعيون المفتحة التي يخرج منهـا القار لا تدخل تحت حصر ، وقد كان للأتراك نصيب فيه ، لـكنهم باعوه للشركة الحالية ، والشركة قد وضعت الطرق ومدتها هنـاك أميالاً ، وأقامت المبانى على الربى للسـكنى ومكاتب الادارة ويدلك على مبلغ عظم إنتاج هـذه المنطقة ، أن الشركة قد أنفقت ملايين الجنيهات على أعمال التحسين والاستثمار .

الى بغداد : قام بنـا القطار إلى بغداد مسافة ٣٢٥ ك م فى عشر ساعات وسط سهول نصف مهملة منظرها موحـد ممل ليس به شجر ، وكانت القرى شبيهة بقرى صعيد مصر ، وبعـد نصف الطريق عبرنا رافداً كبيراً لدجلة اسمه (ديالا) بعده رادت المزارع والنخيل ، وكثرت القرى فحاكى المنظر بلادنا إلا فى ندرة القنوات ، وأخيرا أقبلنا على بغداد من مورد متهدم مترب منفر فكنا كأنا ندخل قرية صغيرة ووقفنا قليلاً على محطة (بغـداد شرق) ، ثم نزلنا فى (بغداد غرب) فكانت مى خيبة أمل لأنى كنت أخال بغـــداد رائعة المناظر ، طلية البنيان ، تليق بعاصمة دولة ناهضة ذات ماض مجيد . نقلتنى عربة واخترقنا الشارع الوحيد فيها . وهو شارع الرسيد الذى يقطع البلدة من طرف إلى طرف وبه كثير من المتاجر ودور الملاهى والمقاهى ، مبانيه قديمة وفى غير انسجام ، ولا تـكاد الأبنية تعلو طبقتين وتمتد على جانبيه الأعمدة على نحو ما نراه فى شارع محمد على بمصر . وفى جانب منه وقف بى السائق أمام (نزل هلال) ، وما كاد يستوى بى المجلس ويخيم الليل حتى كان الفناء الرئيسى للفندق ، وهو الذى تشرف عليه كل الحجرات مكاناً للغناء والموسيقى والرقص مما أذكرنى برفه بغداد إبان عزها البائد . وجال الفكر فى ألف ليلة ، وما روى لنا من أعاجيب ؛ نزلت فاذا المكان

عاص بالمستمعين المترنحين ، الذين لعبت الخمر بعقولهم ، ثم خرجت إلى الطريق : فإذا سيول من الناس فى لهو ومجون رغم أن هندامهم الشرقى العربى يتنافر مع كل أولئك ، وفى الصباح تفقدت كثيراً من نواحيها ، فلم يرقنى بها شىء كثير سوى جسورها التى تعبر دجلة وتصل مابين الرصافة فى الشرق ، والكرخ فى الغرب ، وتلك الجسور تقام كلها على الزوارق ، فتراها تهتز صعوداً وهبوطاً مع مد الماء وجزره ، وأهمها جسر (مود) : على اسم القائد الانجليزى ، وهو أحدث الجسور

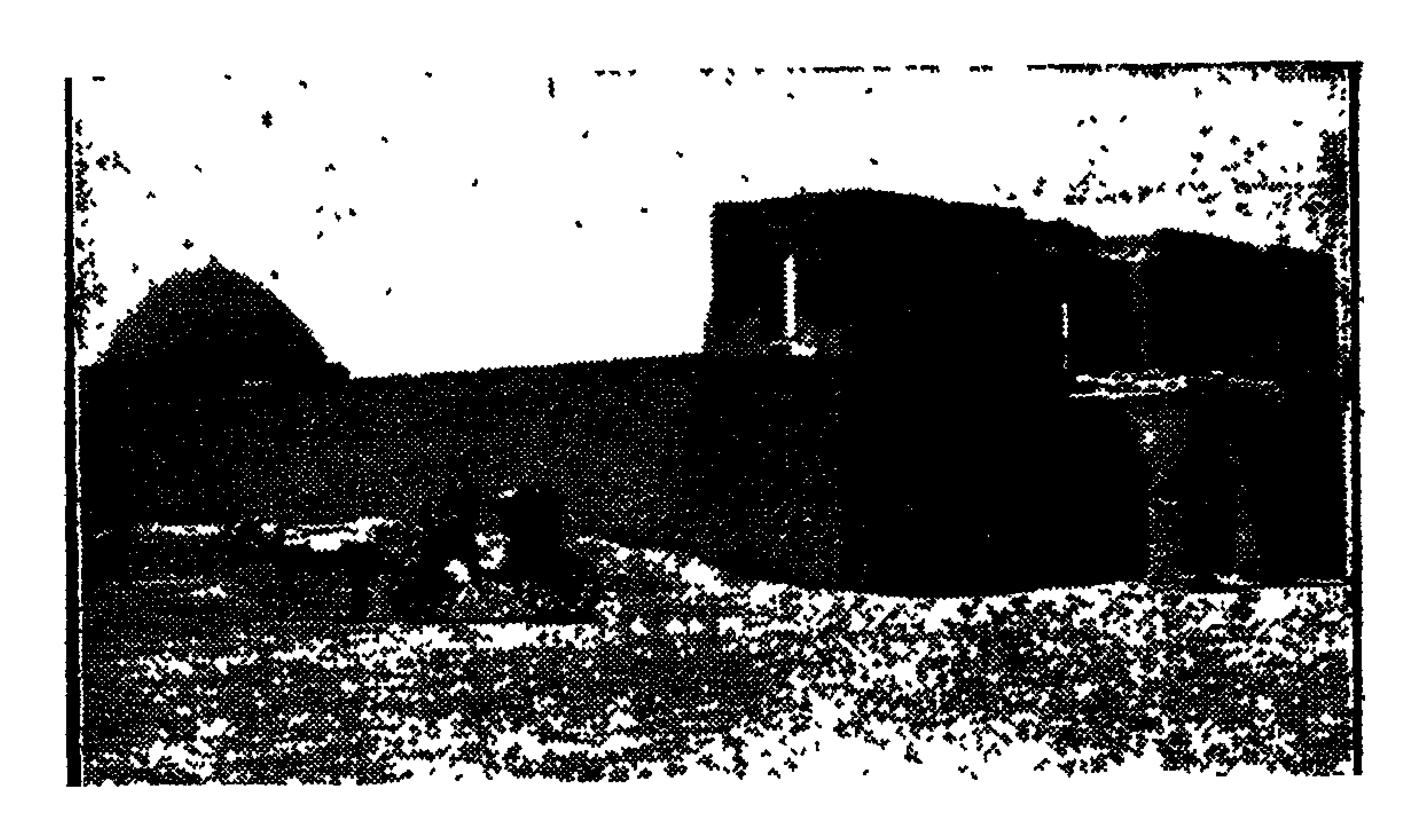


(شكل ٥٤)
مثل للحجاب الاسرائيلى فى بغداد

جميعاً يصل ما بين أزحم جهات المدينة ، ويؤدى فى الجانب الغربى إلى قسم جديد به المتنزهات والمقاهى ودور الملاهى ، ويتوسطه طريق فسيح به تمثال الملك فيصل يمتطى جواداً وهو فى زى عربى بالعقال ، وعند الأصيل يدهش المرء لسيل المارة الدافق فوق القنطرة ، وجماهيرهم المتلاصقة الأكتاف من نساء ورجال ، يروحون ويغدون فى نشاط وحركة كأن البلدة فى يوم عيد ، هنا يعتقد المرء أن الشعب العراقى مرح ميال إلى الرفه والمجون بشكل يفوق كل وصف . وقد استرعى نظرى جمال السيدات ورشاقتهن يسير السافرات منهن — وغالبهن من اليهود — فى هندام أنيق عليهن المعاطف المهفهفة تتدلى من فوق الرءوس وكأنهن يفخرن بإزارهن هذا فهو لا يقل ثمناً عن عشرة جنيهات ، وللأغنياء أضعاف ذلك . والمسلمات يسمونه

(العبا) و يلبسه حتى صغار البنات ، وهو من حرير ينسج على اليد و بعضه تتخلله خيوط الذهب و يلفت النظر فى نساء العراق شعورهن المرسلة الغزيرة التى تزيدهن جمالاً ، و يقولون إن الحناء التى يغسلون بها الرأس عند الاستحمام هى سبب ذلك ، ولعل نقطة الضعف فى جمال النساء طول الأنوف ودقتها ، و يندر أن ترى بينهم القامات الطويلة والأجسام الممتلئة السمينة بين كلا الجنسين ، على أن منطقهم جميعاً منفر غير موسيقى .

وفى المدينة مجموعة من مساجد على الطراز الفارسى بمناراتها الدقيقة والقباب التى يكسوها القيشانى الأزرق ، وقد بدأت زيارتى بمسجد الأعظمية : وفيه يدفن الإمام الأعظم أبو حنيفة شيخ المشرعين ، وكان مولده سنة ٨٠ ووفاته سنة ١٥٠ ﻫ ، والضريح تحيطه شباك الفضة الثقيلة ، وفى أطرافها زينة فى شبه حراب ذهبية ، وقد كتب حولها بالفضة كثير من آى الذكر ، والحكم المأثورة والقبة يغشاها القيشانى من داخلها ، والنحاس الأصفر البراق من خارجها ، وقد جدد طلاؤه بأمر صاحب الجلالة الملك السنى فيصل الأول ، وفيه دفنت رفاته بعد زيارتى بأيام قليلة ، ولم يكن بالمسجد منذ زيارتى أحد سوى خدامه . بعد ذلك عبرت النهر إلى الضفة الغربية صوب الكاظمية وهى بلدة عتيقة يقدسونها لأن بها مدفن الإمام موسى الكاظم من قادة الشيعة ، والمسجد فاخر يأخذ بالألباب أقامه نادر شاه من ملوك فارس ، وزاد فيه سلاطين الفرس بعده ، وقد أمر أحدهم بعد زيارته للحرم أن تكسى مناراته بطبقة من ذهب خالص ، ثم زاد فيه الترك بعد ذلك ، وفيه جانب أقامه سليم الأول ، والمدفن تعلوه قبتان وتحوطه أربع منارات بريق الذهب الأصفر الذى يكسوها جميعاً يخطف الأبصار وحول القباب فناء مفتوح تحوطه البوائك التى يزينها القيشانى ، وتحتها غرف للطلاب والزهاد ، وأنت ترى الأركان والزوايا والأقبية معقدة ترصع بقطع المرايا ، وتحوط الضريح شباك الفضة الثقيلة ، وما كدت أدخل الباب حتى أسرع إلىّ رهط النقباء



(شكل ٥٥)   نبي الله يوشع فى بغداد

المشعوذين بأرديتهم المميزة : طربوش عليه نصف عمامة خضراء ، وعباءة سوداء فتسلمنى واحد منهم بالقوة ، وأخذ يصيح صيحات و يقرأ تعاويذ وعبارات توسل وطاف بى وهو يأمرنى أن أقول أدعية خاصة وراءه ، ولما كنا أمام باب الضريح قال : اركع وقبل الاعتاب فأبيت ، وقلت : كفى فقد قرأت الفاتحة . أما سيل الناس فى داخله فحدث عنه هذا يقبل ، وذاك يمسح ، وتلك تصيح وأخرى تبكى فى مشهد رهيب . هنا بدت لى ترهات البسطاء ، ومدى سيطرة الخرافات عليهم وأغلبية البلاد من الشيعة ومن السذج ، غير مثقفى العقول ، وكم من أناث يحضرن إلى الضريح ؛ ويلقين فيه من الحلى والجواهر ، وقد حدث مرة أن ضحكت سيدة وهى داخلة ، فأعقب ذلك أن سقط ازارها واعتراها دوار ، خرت من أثره على يديها ، ولم تستطع الخروج إلا على أربع كأنها الكلبة المهينة ، كذلك قيل إن اللصوص إذا أحضروا إلى المقام وجب أن يعترفوا ، وإلا التصق بدنهم بالجدران فلم يستطيعوا الحراك !

ومما راقنى فى بغداد أسواقها الضيقة الملتوية ، يعلوها سقف منحدر تقوم تحته المتاجر وأغلبها فى أيدى اليهود والأرمن ، وجماهير المارة متلاصقة مائجة طيلة اليوم

والمقاهى (البلدية) فى كل مكان تجلس فيسرع صاحبها بتقديم قطرات من القهوة السادة فى (فنجال بيشة) تحية للقـدوم ولا بد أن يقدمها صاحب المقهى بنفسه زيادة فى الترحيب ويكرر ذلك بين آن وآخر ، و بغداد كلها فيما عدا شارع الرشيد الوحيد أزقة نظيفة أرضها مرصوفة يتوسطها مجرى صغير لصرف المياه ، وتكاد الشرفات (المشربيات) المتقابلة تتلاصق فتحجب الطريق عن الشمس والنور ، والبيوت جلها فى هندسة شرقية ذات فناء سماوى تطل عليه نواحى البيت الأخرى ، و يتوسطه حوض الماء ، وأبواب البيوت مثقلة بالحديد والنحاس كأنها أبواب القلاع فى نظام شرقى بحت ، هنا ذكرت المجتمع عهـد أبى جعفر المنصور وهرون الرشيد ، فلقـد بناها المنصور ووضع أول لبنة بيده سنة ١٤٠ ﻫ بغضاً بأهل الكوفة وتجافياً عن جوارهم ، وكان ثلثها على الصفة اليمنى لدجلة و يسمى الكرخ والثلثان على اليسرى و يسمى الرصافة ، وقد أطلت البحث عن أثر يرجع إلى ذلك العهد فلم أجد إلا حائطاً مطلاً على دجلة على مقربة من الجسر القديم نقش عليه : بنى فى عهد أبى جعفر المنصور . بالخط الكبير ، وكان معهداً علمياً يسمى المستنصرية لكنه اتخذ اليوم مكاناً للجمرك رغم أنه جدير بالرعاية والحفظ لأنه الوحيـد من نوعه ، وهناك بقية للسور القديم وحولها أقيمت دور الحكومة ، وقصر الملك يطل على ماء دجلة فى تواضع كبير ، ومن المساجد القديمة تبقى مئذنة متهدمة . ذلك كل ما تخلف من عصر العظمة الأولى . وقفت أسائل نفسى عن الزوراء ودار السلام بلد المنصور والرشيد الذى أنفق عليها أبو جعفر فوق أربعة ملايين دينار وطوقها بسورين ، وكانت أبواب السور الداخلى مزورة ، ومن هنا سميت المدينة ازوراء ، وفى عهـد الرشيد أقام سراة القوم الجانب الشرقى قصوراً فاخرة وأسموه الرصافة ، وأصبح الحى الارستقراطى الحديث ، وقد بلغ سكان بغداد إذ ذاك مليوناً ونصفاً ، وكان الترف آخذاً كل مأخذ فكان الرشيد ينفق على طعامه كل يوم عشرة آلاف درهم ، وعلى السماط ثلاثون صنفاً من الطعام تقـدم فى



(شكل ٥٦) قباب مسجد الكاظمية يكسوها غشاء من ذهب براق

أوانى الذهب والفضة ، وقد أقام وليمة لزبيدة كلفها خمسة وخمسين مليون درهم ، وكان يقدم للناس أطباق الذهب تملأ بالنقود الفضية وأطباق الفضة تملأ ذهباً ، وقد أثقل زبيدة بالحلى حتى أنها لم تستطع النهوض والسير خطوة ، ولقد كانت زبيدة مسرفة ، من ذلك أنها صنعت بساطاً من الديباج جمع صورة كل حيوان وكل طائر : الأجسام بنسيج الذهب والعيون باليواقيت والجواهر ، وقد كلفها مليون دينار ، وكان ثمن ثوبها الواحد خمسين ألف دينار . هنا ذكرت أيضاً البرامكة وما وصلوا من رفه وسلطان فقد كانوا أكثر ترفاً ، مجالس الطرب فى دورهم كل ليلة ، والراقصات من الغوانى أمثال (نور وفريدة ومنة) لا يغبن عن تلك المجالس ، وقد كانت تعرض الغانيات من كافة جهات الدنيا للبيع فى سوق النخاسين ، وكان الدلال ينادى ويصف الجوارى ويعدد فى جمالهن ومحسنهن فساق الله عليهم زبيدة ، وقد أسلم الرشيد لها كل شىء حتى ما بية البلاد فأخذت تنفق عن سعة وإسراف فأحصوا لها أنها أنفقت وحدها ثلاثين مليون دينار ، وبنت مسجداً على دجلة باسمها ، وأنشأت عين زبيدة فى الحجاز وأوصلت ماءها إلى مكة وكلفتها مليون دينار . وقد بلغت موارد بيت المال فى عهدها خمسمائة

مليون درهم من فضة وعشرة ملايين دينار ذهباً ، وهى أوفر ما حصل فى دول الإسلام جميعاً ، ولما مات أبو جعفر قال للمهدى فى وصيته : أنه خلف له من الأموال ما إن كسر عليه الخراج عشر سنوات كفاه لأرزاق الجند ، ومصلحة البعوث وغيرها !

وقفت أتلمس من كل هذا بقية ، لكن يد الزمان قد أتت على كل أولئك لكثرة من أغار على بغداد ، وأعمل فيها حرقاً وتدميراً ، نخص هولا كو التتارى الذى اجتاحها فى القرن الثالث عشر ، وأحرقها وسلب قصورها ، ورمى بذخائر مكتباتها فى دجلة ، وهدم قناطرها التى ظلت من قبل آلاف السنين تنشر الخصب وتروى المساحات الشاسعة فاستحالت تلك السهول اليوم إلى قفار مهملة أو مناقع يربى بها البعوض والملاريا ، و بعد هذا العهد قامت بغداد ثانية على الأنقاض الأولى وما كادت تظهر حتى فاجأها تيمورلنك الأعرج فى القرن الرابع عشر وتركها أطلالاً ، وفى ١٥٢٤ دمرها للمرة الثالثة الشاه اسماعيل ، وكذلك فعل الشاه عباس فى القرن الرابع عشر ، وفى سنة ١٦٣٨ أخذها مراد الرابع التركى من الفرس ، و بدأت تنشأ من جديد . إلى ذلك فكم قاست من هجمات فيض دجلة الذى طالما اجتاحها بأكملها ، وفى سنة ١٨٦٠ جاء مدحت باشا حاكم بغداد ؛ فهدم سورها ، و باع أنقاضه الهائلة لينفق منه على مشروعاته الإصلاحية العدة ، ولم يترك سوى ما بين (الباب الوسطانى و باب الطلسم) وكان السلطان مراد دخلها من باب الطلسم لأن الرواة قصوا أن منقذ بغداد سيدخلها منصوراً من هذا الباب .

خرجت يوماً إلى مقابر بغداد ، وزرت قبر زبيدة زوج هرون الرشيد ، ويمتاز عن باقى القبور حوله بأنه تحت مثمن ، تعلوه قبة فى شكل مخروط مجزع ، يسترى النظر ، وحولها مدافن أخرى ممدودة أهمها مدفن :

بهلول : سمير هرون الرشيد يؤمه كثير من الناس ، و بخاصة السيدات يوم الأربعاء ، دخلته فإذا فى فنائه عدة مبان نموذجية صغيرة من القش والخرق



(شكل ٥٧) الاسراف فى الزخرف داخل مسجد الـكاظمية

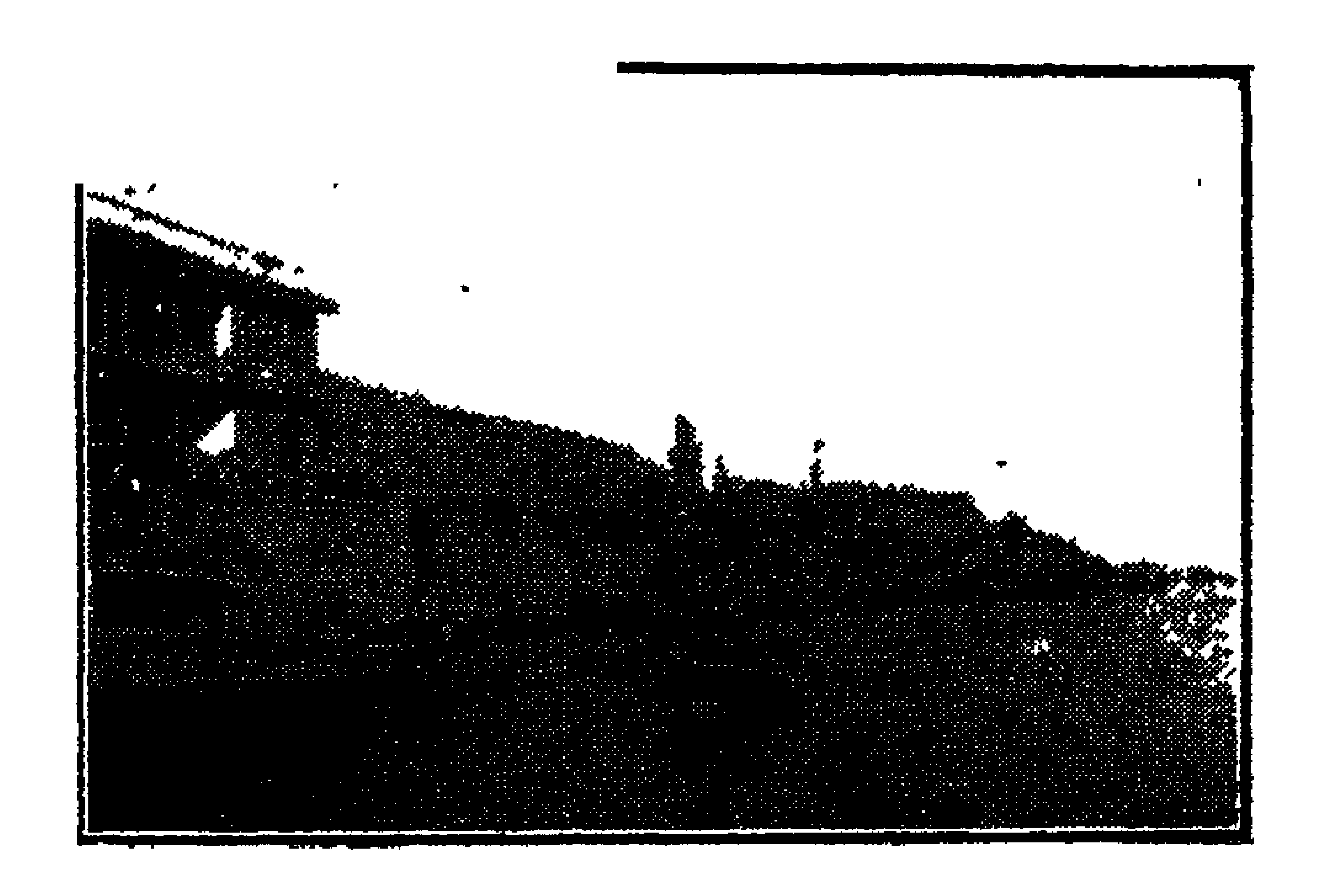
وتسد منافذها بالحناء ، منها واحد وضع داخله مهد طفل أقامته سيدة عقيم لا تلد . رجاء أن يمن الله عليها بمولود ، وآخر داخله سرير تنام عليـه دميتان متجاورتان وضعته فتاة تطمح إلى الزواج ، فإذا ما أجيب السؤل ذهبت صاحبة البيت وهدمته وقدمت القرابين .

ومن الأضرحة المقدسة هناك مدفن منصور الحلاج يجاور مدفن الشيخ معروف الـكرخى يقدسه المسلمون من الأفغان والفرس والهنـد ، وهو فارسى كان ورعاً متديناً زاهداً ، وكان يخلع على الناس رداء من الصوف — ومن ثم نشأت فئة الصوفية — وظهرت له كرامات فاتهمه السنيون بالزندقة وسجنوه ، ثم قتلوه ذبحاً على جسر دجلة ورموا بقاياه بعد حرقه فى النهر ، و يقول الناس إن ماء النهر قد فاض وطفا الرماد المقدس فوقه ، وهو يقول (أنا الحق) فجاء شيعته وجمعوا تراه ودفنوه و يقدسه اليريديون عبـدة الشيطان و يقولون إن رأسه لما رميت فى النهر طفت الروح منهـا وصادف أن كانت أخته تملأ جرتها فدخلت الروح فيها ، ولما شربت منها حملت وبعـد تسعة شهور وضعت طفلاً شبيهاً بأخيها

تناسخت روحه المقدسة فى ذاك الطفل ولهذا لا يستخدم اليزيديون الجرار قط ،
أما من قبور الخلفاء فلم أجد شيئاً ، وقد قيل أن بغداد لم يمت فيها خليفة قط .

الى طاق كسرى : (أيوان كسرى) أقلتنى إليه سيارة فى ساعتين فبعد أن خرجنا من بغداد قليلاً مررنا بناحية تسمى (هنيدى) مقر المعسكرات الانجليزية و بعد مسيرة أكثر من ساعة فى أرض خصبة بدا قصر كسرى على بعد كالطود الشامخ ، ولما جئناه كانت الحفائر حوله ممتدة إلى مسافات وهو يقوم فى حائط شاهق لا نوافذ فيه لكنه نقش فى شبه أقبية سدت بالبناء بعضها فوق بعض ، و إلى جانب الحائط قبو لا تكاد تدرك العين مداه وقفت تحته وتخيلت كسرى إبان صولته يجلس فى كمال أبهته فى هـذا الايوان الذى أصبح قاعاً صفصفاً لا تجانبه إلا قرية صغيرة يزورها القوم لأن فيها مدفن أحد الصحابة هو سليمان باج الفارسى تحت قبة صغيرة . وطاق كسرى أقيم بالآجر المصفر فى متانة غالبت الزمن طويلاً ، وقد انهدم أحد جانبيه أثر زلزال هائل وما بقى منه مصدع الجوانب مائل الجدران ، وقد لبثت أطوف بالمكان إلى الغروب حين بدا القصر شبحاً قاتماً فى ضوء الشفق الضئيل الذى أكسب المكان رهبة وأعاد إلى المخيلة ذكريات الماضى المجيد لتلك الناحية المنبوذة اليوم .

والمكان يسمونه طيشفون ، وكان بلدة شادها الفرطانيون الذين لا نكاد نعرف عن تاريخهم شيئاً ، ولقد كان مقرهم الجنوب الشرقى لبحر الخزر ، ولما نالوا استقلالهم سنة ٢٥٠ ق‌م اتسع ملكهم وظل ٤٠٠ سنة وقاوموا الروم فى آسيا وكان ملوكهم يمضون الصيف فى الشمال ، و إذا ما أقبل الشتاء حلوا طيشفون شرق دجلة تجاه بلدة (سلوقية) التى بناها سليوكاس الأغريقى على الضفة الغربية ، ولما كبرت طيشفون أصبحت عاصمة ملك الفرطانيين ، وحاول الروم غزوها فأعياهم ذلك حتى جاء الامبراطور (تراجان) فحمل سفنه من البحر إلى البر وسيرها على اسطوانات إلى دجلة وعبره بها واحتل المدينة ، و بعد فترة اضطراب ظهر (أردشير)



(شكل ٥٨) المستنصرية تطل على دجلة ، وهى الأثر
الوحيد الباقى من عهد أبى جعفر المنصور

ملك فارس وغلب القرطانيين ، وجعل طيشفون مقره ، فأسس أسرة الساسانيين وأعاد إصلاح سلوقية ، وشاد حولها مجموعة من بلاد أطلق عليها العرب اسم المدائن ، وفى سنة ٥٣١ ميلادية ظهر فى الميدان أعظم الساسانيين (كسرى الأول أنوشروان) ، وشاد القصر الأبيض ، ولما ظهر الإسلام وانتصر سعد فى القادسية فتح البلدة ، وأخذ ذخائرها التى لا تقدر ، وفى بهو القصر صلى سعد الجمعة بالناس لأول مرة فى أملاك فارس ، ولما ظهر للعرب أن موقع طيشفون ليس صحياً ولوا شطر الكوفة و بغداد والبصرة ، وقد جملت بغداد بكثير من المواد التى نقلوها إليها من طيشفون وسلوقية حتى لم يبق فيها من أثر واضح إلا قصر كسرى الذى غالب معاول أبى جعفر المنصور الذى نقل من آجره الكثير رغم معارضة خالد بن برمك ، وكان يريده أثراً خالداً فشك الخليفة أنه يتعصب للفرس قومه ، ولما أعياه الهدم استشار خالداً فى إيقاف الهدم ، فقال له : كنت أرى عدم الهدم . ولكن أما وقد بدأته فلا يصح إيقافه لئلا يقال : عجز سلطان العرب عن هدم مصنع من مصانع فارس ، فندم المنصور وأوقف الهدم .

وكم ضم القصر من آيات البذخ والغنى لملوك فارس الأقدمين ، وقعت كلها غنائم للعرب على يد سعد من أكداس الذهب ، والفضة ، والملابس الموشاة ، والأحجار الكريمة ، والأسلحة المرصعة . إلى ذلك مقادير المسك ، والعنبر ، والكافور ، والأعطار ، وجواد من ذهب خالص . أسنانه ركبت من زمرد ،

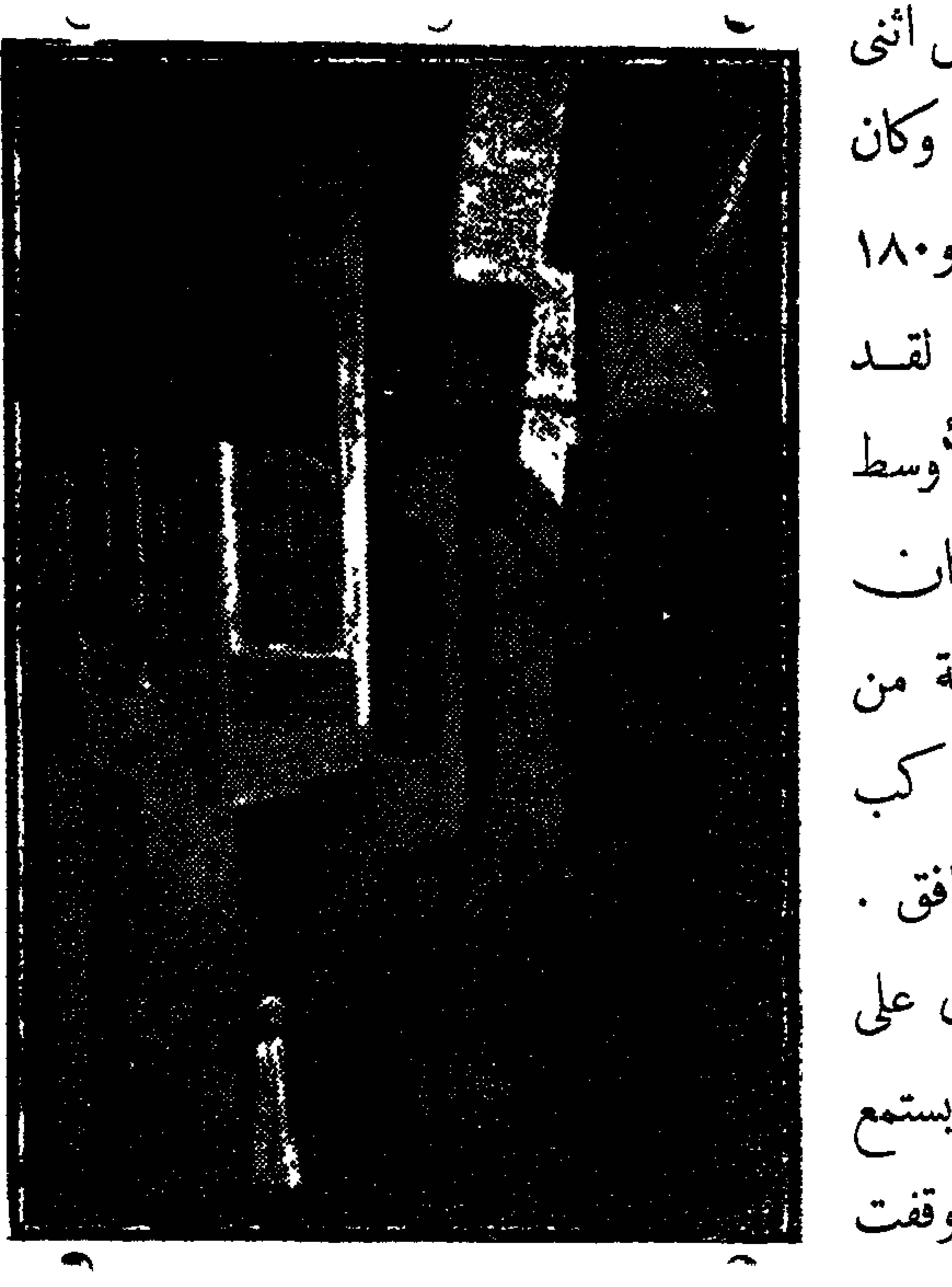


(شكل ٥٩)
هرون الرشيد يستقبل رسل شارلمان

ورقبته رصعت باليواقيت ، وكان له سرج من فضة ، ودواليات من ذهب إلى جواره ناقة من فضة ، ومن ورائها رضيعها من ذهب ، ومن بين ما حوت أسلحة كسرى درع كامل من ذهب تزينه اليواقيت ، ولعل أجل مخلفاته بساط ذرعه سبعون ذراعاً فى ستين ، وكانت رسومه تمثل حديقة حيكت أرضها من ذهب وطرقها من فضة ومروجها من زمرد وجداولها من لآلئ ، وأشجارها وثمارها وزهورها كانت مزيجاً من الماس والأحجار الكريمة . وقد أرسل سعد إلى الخليفة بالأشياء الفنية القيمة و بخمس مالقى من الغنائم ووزع أربعة أخماسها على جنوده الذين ناهزوا ستين ألفاً فخص كلا منهم ما قيمته ثلاثمائة واثنا عشر (٣١٢) جنيهاً .

وقد كان القصر الأبيض زينة طيشفون وأجل ما خلفه فن العمارة الساسانى .

بناء شامخ قام مدخله على اثنى عشر عموداً من رخام ، وكان ذرعه ١٥٠ قدماً فى العلو و ١٨٠ عرضاً و ٤٥٠ طولاً ، لقد كانت سعة البهو الكبير الأوسط ١١٥ فى ٨٥ قدماً ، وكان يحمل قبو سقفه مجموعة من نجوم الذهب والكواكب السماوية تبدو فوق الأفق . هنا كان يجلس كسرى على عرش من ذهب يستمع للشكاوى ويقيم العدل . وقفت أستظل بذاك القبو الهائل وسرعان ما توالت ذكريات العظمة البائدة فكنت أنظر فلا أرى لها أثراً ، وكان حفيف الريح فى أوراق الغاب البرى الذى أحاط بتلك الخرائب كأنه صوت ينعى أولئك الجبابرة فسبحان مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء .



(شكل ٦٠) كل أحياء بغداد من تلك الأزقة التى تذكر المرء بعهد هرون الرشيد

عدت فى المساء وقبيل بغداد عبرنا نهر ديالة رافد دجلة ، وقد دفعت سياراتنا رسم عبور القنطرة سبعة قروش ونصف (روبيــة) وتلك قاعدة متبعة فى كل قناطر العراق .

الى الحلة : قمت إليها فى القطار وهى من مدن الكلدانيين وإن لم يبق لهم فيها أثر اليوم ، وهى وسط إقليم خصيب يستفيد من سد الهندية أكبر وسائل الرى فى العراق كلها وهو يروى ثلث مليون فدان ويقول الناس إن مياه الفرات



(شكل ٦١) أمام إيوان كسرى

أكثر خصباً وأغزر فيضاً من دجلة وهو أعذب شرباً وأصلح للصحة ، ولقد أقام الإسكندر المقدونى أبنية ليسيطر على مياه شط الهندية إلى الغرب وشط الحلة إلى الشرق وهما شعبتان للفرات ، وقد أعاد الانجليز اليوم بناء سد الهندية لامداد فرع الحلة الذى كادت تسده الرواسب ، بينما فرع الهندية كان يتعمق حتى كاد يودى بالمياه سدى . قمت فى سيارة مسيرة ساعة إلى :

(شكل ٦٢)
إلى جوار قبر زبيدة زوج هرون الرشيد

بابل : التى بناها الكلدان على الضفة اليمنى للفرات فاذا بها تل من الطين حوله المزارع ، وفى وسط ذلك التل رأيت بعض أطلال يقولون أنها مقر الحدائق المعلقة وقصور بابل ، وكانت بابل أول الملكيات العظيمة التى قامت فى غرب آسيا وهى ثانية ملكيات العالم بعد مصر ، وكان يطلق عليها أرض شنار ، وفيها ظهر نمروذ طاغية على الأرض ومن بابل تقدم إلى أرض أشور و بنى نينوى ولبثت أشور ونينوى خاضعتين لبابل طويلاً ، وفى القرن التاسع قبل الميلاد نال الأشوريون استقلالهم ، وفى ٧٤٥ ق م هزموا بابل وأخضعوها لملكهم ، وبذلك أصبح العبد سيداً ، وظلت نينوى سيدة زهاء قرن حالف خلاله أهل بابل الميديين ، وفى ٦٠٦ ق م باغتوا نينوى وأمعنوا فى تخريبها حتى أخفوها عن الأنظار ولم يعد الناس يعرفون حتى موقعها .

و بسقوط نينوى بدأ العصر الثانى لبابل وهو عصر نبوبولصار الذى بنى الحدائق المعلقة ذائعة الصيت وإحدى عجائب الدنيا ، وقد أقامها لاستمتاع زوجه

الميدية بنت أحد أمرائهم الموالين ، وقد ورد فى إحدى الأقاصيص الإغريقية أن الحدائق المعلقة شادتها سميراميس ملكة أشور الخيالية التى تقول الخرافات إنها بانية بابل وأشور ، وما كان فيهما من عظمة ورواء ، فأراد نبو بولصار أن يشيد بلدة تفوق كل ما تقدمها فسخر فى بنائها مهندسى نينوى الذين ألزمهم بإقامتها قسراً وهم له أسرى أرقاء ، فأخرجوا بابل الثانية فى رواء وجلال فاق كل ما تقدمها ، وقد روى هيرودوت أبو التاريخ أنه فى القرن الخامس ق م أقيمت بابل فى مربع يشقه الفرات ، وكان ذرعها ١٥ ميلاً مربعاً يحوط كل أولئك سور علوه ٣٥٠ قدماً وسمكه ٨٧ تتخلله مائة بوابة من نحاس ، ولم تكن موطناً لأخلاط الناس بل لمترفى القوم وملوكهم ، وهى أفخر مدن العالم القديم جميعاً وأجل مبانيها :

الحدائق المعلقة : أقيمت أسسها من الصخر المنحوت رغم صعوبة الحصول على الصخر وسط أرض دجلة والفرات الطينية ، ولم يعلم من أين جاءوا بتلك الأحجار ، وكم كلفهم ذلك من جهد ومال . حقاً ان الحدائق لم تكن تفوق فى العظمة والأبهة قصر نبو بولصار ، ولا معبد (بل ماردوك) إله بابل وحاميها ؛ ذاك الذى أقيم من طبقات يتوجها هيكلان من ذهب . إلاّ أن الحدائق المعلقة كانت أكثر جمالاً ورقة ، ولقد شغلت متسعاً ذرعه ربع ميل فى الشمال الشرقى من البهو الرئيسى من القصر الملكى ، وقد أقيمت فى شبه مصاطب أو شرفات ؛ الواحدة فوق الأخرى من صخر ترفعه عدة بوائك وأقبية إلى علو يناهز ٣٥٠ قدماً وكان يدعم البناء سور سمكه عشرون قدماً مكن لمرور عربتين متجاورتين فى كل أربعة جياد ، وكان يكسو كل إفريز من هاتيك غشاء سميك من الطين تنبت فيه أعشاب الزهور ، وأشجار الثمار ، وكانت تروى تلك الحدائق من مضخة هائلة ترفع الماء إلى الطبقة العليا ومنها يجرى فيروى تلك الحدائق ، ولاتقاء خطر الرطوبة ونز الماء بطنت الأقبية كلها بطبقة من الرصاص ، وكان يتخلل تلك الأقبية مقاصير للراحة بولغ فى نقشها وزخرفها تؤمها الملكة وحاشيتها ، تخلصاً من وهج الشمس ،



(شكل ٦٣) لا يزال ترام بغداد تجره الجياد

ولفح الحر فى سهول الجزيرة المحرقة صيفاً ، ولقد رأيت ما تخلف منها فى قبو طويل من الطوب والحجر تحته حجرات كانت أشبه بمثالج لحفظ الطعام من العطب والفساد ، وعلى جانبيه بقايا لغرف عدة و إلى جوارها بئر لها فتحات ثلاث الوسطى مستديرة بجانبها اثنتان بيصاويتان ، ويظن أن روافع الماء كانت تقام عليها .

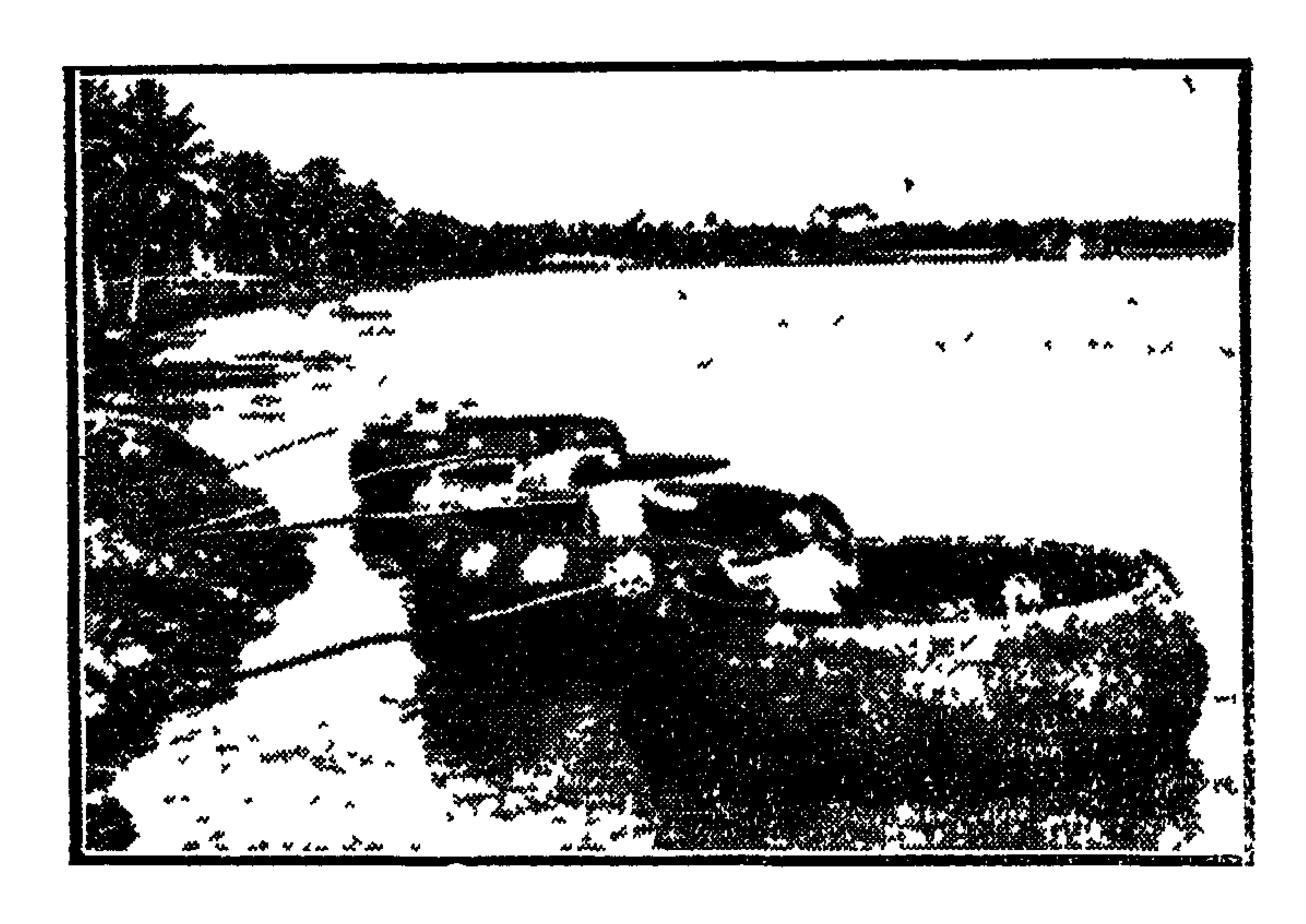
و إلى شمال بابل رأينا القصر وقلعة نبو بولصار من الآجر ، بجانبها أسد بابل الذى يطأ تحته رجلاً وهو فى هندسة غريبة غير بابلية ؛ لذلك ظن أنه من أسلاب الحرب من بلاد الحيثيين فى الشمال ، و يعزز ذلك صخر وجد إلى جانبه وكتب عليه بالحيثية ، و إلى جنوبه مباشرة أطلال القصر الذى شاده (نبو بولصار) على أطلال قصر أحد أسلافه . وقد بدا لنا مجموعة أحجار من آجر ، ولقد تعقب علماء الألمان تصميم القصر ووصحوا لنا هندسته ، وفى ركنها الشمال الشرقى على مقربة من (باب أشتار) مجموعة من بوائك مخربة ظن أنها الحدائق المعلقة ، وكان يؤدى طريق مرصوف بالحجر من باب أشتار إلى القصر الملكى من جانب ، و إلى معبد مردوك من الجانب الآخر ، وقد رأينا بقايا جسر أو قنطرة من الطوب ، كان يقام على الفرات يوم كان يشق طريقه القديم إلى شرق طريقه الحالى . ولقد كان

يحوط المدينة أسوار عدة حتى أنها كانت فى غاية المنعة تشرف على أقصى شمالها قلعة بابل مما يؤيد أن حصار بابل كان لا شك عملاً عظيماً شاقاً ، حتى أن الفرس لم يحتلوها إلاّ لما أن دخلوها عن الفرات ، ويظهر أن نبو بولصار جددها من أقصاها لأقصاها لأن اسمه وآثاره تعمها جميعاً ، مع أنها كانت سابقة لزمانه بنحو ١٥٠٠ سنة حين كانت عاصمة (حامورابى) ، ولذلك صعب على الكاشفين أن يعثروا على أثر لتلك القرون الأولى التى تقدمت زمن نبو بولصار ، وإلى جانب القصر كومة من أطلال أقامها الإسكندر وأحرق فوقها جثة صاحبه (هفستيون) ، وهنا مات الإسكندر نفسه ، ومات فيها من قبل نبو بولصار ، ونبو كادرز و بلشازار ، وكورش ، وكثير غيرهم .

وهنا جرت أكبر موقعة بين سعد بن أبى وقاص وجيوش الفرس سنة ١٦ هـ حين فتح المدائن .

الى الكوفة : قمنا فى سيارة وأخذنا نسير وسط تلك السهول الموحدة المملة ، ولم يكن يسترعى النظر فيحدث بعض التغيير فى المنظر سوى التلال العدة التى كنا نراها فى أطلال بقايا القدماء ، ومن أهمها : قلعة نمرود ، وتل أور عاصمة السومريين . بلاد يسأم السائح المقام بها اليوم ؛ لولا ما تثيره ذكريات ماضيها من عظمة . كنا نرتقى التل فإذا به أطلال لمدينة بائدة لا يكاد يرى فيها العابر العادى معنى سامياً ، ولا منظراً جذاباً ، لكن سرعان ما يمر بالخاطر حامورابى الذى خط قوانينه فى ألواحه التى كنا نجد بعض بقاياها منثورة فوق تلك التلال من سنة ٢١٠٠ ق م هنا يذكر المرء السومريين وأنهم أول من أزاح الستار عن كثير من حقائق العلم والطب والفلك ، وهم الذين بدأوا الكتابة واخترعوا المزولة ، وقسموا اليوم إلى اثنى عشر قسماً ، وعنهم أخذ الاغريق .

ومن الأماكن التى مررنا بها فى طريقنا إلى الكوفة : بلدة ذى الكفل التى قامت حول مدفن هذا النبى الذى يقدسه المسلمون واليهود ، و يعتقد هؤلاء



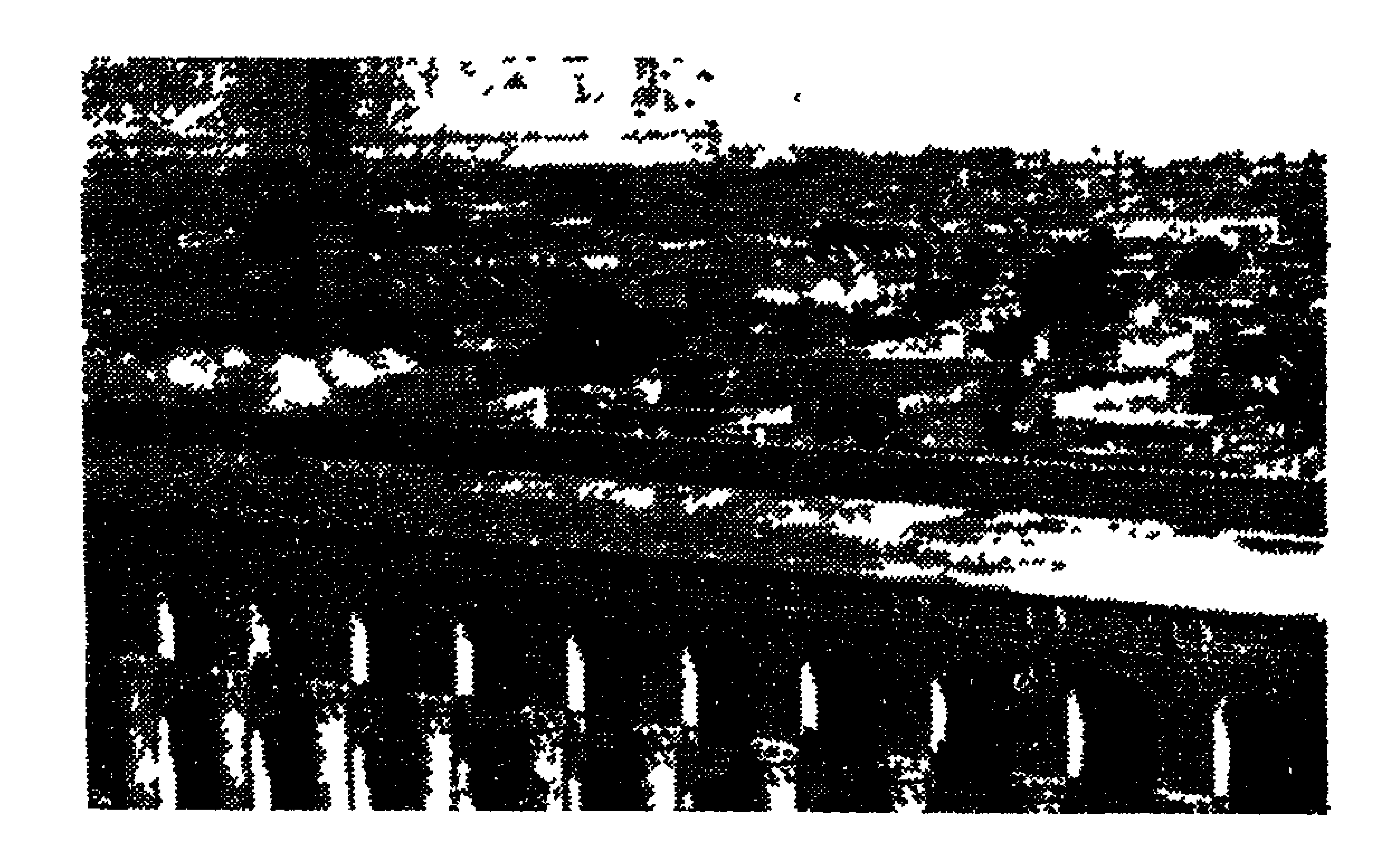
(شكل ٦٤) زوارق بغداد ، ويسمونها (جوفه) وتصنع من حدائل الحوص
ثم تقام جوانبها على أضلاع من عصى ، ثم تطلى جدرانها بمادة غير مسامية

أنه من أنبيائهم ، وطالما حاولوا امتلاكه . يحجون إليه ويتوسلون بالعطايا فى مواسم معينة ، ويكثر عددهم حوله ، وكم سمعت الكثير يرددون القول بأن بلاد الجزيرة ، هى خير وطن لليهود . لأن ابراهيم الخليل عراقى وجل اليهود عاشوا هناك طويلا ، ولا يزال عددهم اليوم هناك يفوق عددهم فى فلسطين . وبيدهم هناك معظم التجارة وبخاصة الأغذية والصباغة والمنسوجات . ويهود العراق من سلائل أسرى اليهود الذين أحضرهم بختنصر إلى بابل بعد تدميره للقدس ، وكثير من زعمائهم يدفن هناك من بينهم عذرا ويونس وناهوم . وغالب الظن أن الطوفان بدأ فى النهرين وأن جنة عدن حول القرنة عند ملتقى النهرين على مقربة من البصرة ، وفى ألواح بابل الطينية قصص كثير من الشركات المالية اليهودية التى بلغت الأوج عهد بختنصر وكان منهم الجباة ، ويخال البعض أن الملكة (استر) هى الآلهة (أشتار) البابلية ، وهم الذين ابتدعوا النقود فى العراق نقلا عن (ليديا) . ورغم وجودهم وسط العرب أحب الشعوب للنقود عند اليهود فإن فنونهم

المالية فاقت فنون العرب لأن العربى يحب جمع المال ويعمل له لكنه يضيعه عاجلا . أما اليهودى فيحرص عليه طيلة حياته ، وهم فى العراق شرقيون فى كل شئ : فى الأزياء والعادات والخرافات وحتى فى الزواج لا يخالط الفتى خطيبته ولا يراها إلا يوم الاتفاق على المهر ، والفتيات يتزوجن مبكرات بين الثانية عشرة والسابعة عشرة وفى الزفاف يحضر (الربى) ومعه كأس يملأها نبيذا يباركه ثم يشرب منه الزوج نصفاً والزوجة الباقى ، وفى المآتم يحتشد أقارب الفقيد فى بيته ويصيحون عالياً والجميع يشقون ثيابهم حزناً ويلقون بالثرى على رءوسهم .

أخيراً بدت الكوفة فى قرية صغيرة وقفت بمسجدها الجامع حيث وقف الحجاج الثقفى يتوعد أهل العراق فى خطبته المشهورة (يا أهل العراق الخ) ، وكان طاغية مستبدا مقره واسط التى تقع بين دجلة والفرات وسط الجزيرة ، وفى منتصف المسافة بين بغداد والبصرة وهناك كان قصره ، وقد قتل نحو ١٢٠ ألف نفس وكان فى السجون عند وفاته نحو خمسين ألفاً ولم يكن للناس حديث عهده إلا من قتل اليوم ومن قطع أمس ، ومن شدة ظلمه فى جمع الخراج كان يتنحى الناس عن ولاية الخراج لأنهم لا يمكنهم أن يجمعوا منه نصفه رأفة بالناس ، ويظهر أنه كان يجد لذة فى سفك الدماء ، أرسله عبد الملك بن مروان ليثبت لبنى أمية الملك فى العراق فقام على الظلم حتى انقرضت دولتهم فى المشرق ، وكان زياد بن أبيه فى البصرة .

والمسجد محفوظ على شكله القديم يبدو كأنه القلعة بتكآته الاسطوانية الخارجية ومنارته الوطيئة . فناؤه فسيح تشرف عليه قبتان : احداهما لضريح مسلم بن عقيل والثانية لهانئ بن عروة ، وفى وسطه فتحة تحتها سرداب يعتقد القوم أن الطوفان نبع من تحتها . وإلى جانبها عمود من رخام يستخدم مزولة كانوا يعرفون به مواقيت الصلاة ، وفى الركن الأيمن مقصورة مغلقة فى مكانها قتل سيدنا على رضى الله عنه ، وفى خارج المسجد من ورائه كانت تقوم قصور



(شكل ٦٥) منظر عام لبغداد من السراى

الامارة والخلافة الأموية ولم يبق منها شئ اليوم (والحمد لله كما يقول الشيعة هناك) ، فالكوفة فى نظر الشيعة بلدة ملعونة وهى أكثر بلاد العراق بل والعالم نحساً ونكداً يرمى أهلها بالغدر والجبن وضعف النفس ، ففيها قتل على وأهلها هم الذين أغروا الحسين أن يخرج فى عائلته ، وفى وسط الصحراء تخلوا عنه فى جبن وخسة وقتل أمام أعينهم ، وهنا أيضاً غدروا بزيد حفيد على فهم الذين حضوه على مقاتلة الخليفة الأموى ، ولما هم بذلك تخلوا عنه فقتل مع الفئة القليلة التى ناصرته .

الى النجف : معقل الشيعة ، أقلنا إليها ترام من الكوفة يسير على قضبان تجره الجياد فى ثلث ساعة وأبصرنا على بعد فى مجاورة الفرات : الحيرة حيث حارب ملكها النعمان بن المنذر جيوش كسرى وحيث كانت قصة عنترة العبسى ابن الأمير شداد العربى والأم الزنجية وقد نال إعجاب عبلة من الأميرات بنات عمومته وذلك بفضل ما أوتى من شجاعة فائقة .

وكانت بلدة الحيرة أسبق من الكوفة شأناً بنى فيها المناذرة بعد تنصرهم القصور والكنائس ، ولما فتحها خالد تحول عزها إلى الكوفة ، والمناذرة عمال

فارس على العراق كما كان بنو غسان عمال الروم على العرب ، وفيها بنى النعمان بن المنذر قصر (الخورنق والسدير) .

بدت النجف وضاءة وسط البادية فى رواء و بريق يراه المشاة من الحجاج محط آمالهم وموضع عقيدتهم وفخارهم — وكثير منهم يقوم من بغداد على الأقدام وكم أجهد منهم الأعياء والجوع فماتوا فى الطريق — ويقول القوم ان قباب الحرم ترى من أربعين ميلاً إذا صفا اليوم وراق هواؤه لأنه يقوم على ربوة وسط صحراء ممهدة لاحزون فيها وكيف لا يراها الأتقياء محط آمالهم ، وهى مقر أول خليفة للنبى صلعم ، وفى زعم بعضهم هى مقر من كان أحق بالرسالة من النبى نفسه ! وللقوم قصة يروونها عن نشأة النجف هى أنه لما قتل على فى الكوفة حملت جثته على جمل أطلق فى الصحراء ، فأخذ يسير على غير هدى ، حتى وصل ربوة تطل على بحر النجف على مسيرة ساعة من الكوفة فبرك الجمل ، وهنا دفن القوم الجثة الطاهرة وأخفوها خشية أن يعلم بها أعداؤهم ، ومضت السنون حتى جاء هرون الرشيد لصيد الغزال وتعقب فريسته وكاد يرديها لولا أن ارتقت تلك الربوة وهناك وقف الغزال متحدياً فى غير حراك ولا خوف ، فنزل الرشيد وشحذ قوسه فخانتــه ذراعاه ولم يستطع الحركة ثلاث مرات متواليات . فذعر الرشيد وأبصر برجل كهل فسأله عن المكان ، فقال : إن بحت بالسر نالنى الضر يا أمير المؤمنين ؛ فأقسم الخليفة أنه لن يصيبه بأذى ، فقال الرجل هاهنا مقر الإمام على . عرفه الغزال مأمناً ولا يجرؤ أحد أن يصيبه بسوء وهو فوق العظام الطاهرة فنقب الرشيد الأرض حتى رأى عظام على تحت لوحة من رخام فتركها وأقسم ألا يبوح بسر تلك البقعة حتى أقام عليها المسجد ثم أخذت مبانى النجف تحوطه إلى أن بلغت شكلها الحالى .

اخترقت سوق النجف المسقف فأدى بى إلى باب المسجد الذى بهر أنظارنا بزخرفه وطلائه ، هندسته فارسية ، ومآذنه وقبابه تكسى بالذهب الخالص فى بريق خاطف . جزت الباب إلى الفناء السماوى المربع تطل عليه الحجرات المتجاورة ثم



(شكل ٦٦) إحدى وسائل الرى الساذجة

دخلت باب الضريح وانى لقلمى التكليل أن يصف إبداعه من نقوش ونطعيم بالذهب والفضة ، وزخرف بالبلور والزجاج والقيشانى فاق فيه جميع المساجد الأخرى . نظرت فإذا أصوات بكاء وولولة النادمين وتقبيل المتبركين ، واستلقاء المنتحبين على الأرض تثير الشجن وتهز القلب ، أصوات تشعر بمأساة قتل الإمام مجسمة فلا يتمالك المرء نفسه من البكاء ، وطائفة النقباء من الأشراف يقرأون أوراداً بعضها من الكتب والبعض من الذاكرة . ويقودون الزوار ويتكالبون على مصاحبتهم مقابل أجر يتقاضونه جبراً .

وبعد أن أديت الزيارة خرجت أطوف حول الحرم ، وإذا بالمقابر تمتد إلى الآفاق من قباب فخرة إلى أضرحة بسيطة لإيواء آلاف الجثث التى كنت أراها تنقل على السيارات أو الأكتاف من الآفاق الإسلامية وبخاصة العراق وفرس ، ويقول العلماء هناك إن المدافن عشرة آلاف لا تزيد ولا تنقص . لأن سيدنا علياً يرسل ما زاد من الجثث بعيداً : فلا يعرف أحد مقرها . والمقابر تباع بأثمان هى من الموارد الرئيسية للحرم ، وتختلف قيمتها حسب قدسية الموقع . فهناك مدفن

عام (فى وادى السلام) ثمن الدفن به نحو أربعين قرشاً ، وفى المدافن الخاصة نحو جنيهين ، أما فى الحرم وما يلاصقه من أراض فلا تقل القيمة عن ستين جنيهاً ؛ هذا فوق ما يستفيده أهل النجف من مستلزمات الدفن ، وكم من جثث كانت تحملها السيارات وافدة من كل فج ، و بعد الغسل يطاف بها حول الحرم ، و بعد الصلاة عليها تدفن وتظل كذلك حتى يتراءى لسيدنا على أن يكشف عن مكنونها فتختفى و يدفن فى مكانها غيرها !

وفى النجف فئتان من الأهلين متباغضتان : حزب السجورت وهم الفقراء ، وحزب الشمورت وهم الأغنياء ، والكامتان من أصل تركى ولقد أثارهما الأتراك يوم أن كان حكمهم السنى مبغضاً لدى الشيعة هناك فلجأوا إلى سياسة الأحزاب والتفريق بينهم كما يفعل المحتلون اليوم لكن فى مكر سئ ودهاء كبير ، ولكل فئة أشياع من العشائر فى الخارج ، وكثيراً ما يقتتلون تحت امرة مجتهديهم ، وتعد النجف مصدر جميع الثورات والاضطرابات التى تحدث فى العراق ، ومنها ثورة سنة ١٩٢٠ الشهيرة ضد الانجليز ، و يلى المجتهدين فى النفوذ طبقة (الكلدار) و بيدهم ثروة الحرم وهى لا تقدر وكلها من فيض إحسان الزائرين ، حتى قيل إن الصندوق لما فتح عقب زيارة نصر الدين شاه كان وزن الذهب والفضة سبعة أطنان إلى ذلك مصابيح نحت فى زمردة واحدة ومائلة (شمعدان) للشمع من ذهب ترصعها اليواقيت و بساط تزينه اللآلئ ، وقد أمر أن تكسى القباب والمآذن من ظاهرها بالذهب الخالص . لذلك ليس بعجيب أن نرى البلدة كالحصن حولها سور عتيد وخندق عميق كأنها من بلدان القرون الوسطى ، كذلك فانك ترى نصف البلدة تحت الأرض فى سراديب بعضها تحت بعض فى طبقات قد تفوق الخمس ، نزلت بعضها فبدت كالتيه لا يعلم لها أول ولا آخر ، وهم يختبئون فيها من وهج الصيف ، و يدبرون فيها ثوراتهم و يكتمون أسرارهم ، وقد رأيت حول البلدة مجموعة من تلال تراكمت من الثرى الذى استخرج من تلك السراديب ،



(شكل ٦٧) سد الهديه — أكبر منشآت الرى الحديثة فى العراق
وفى مكانه أقام الأسكندر سداً للرى كانت آثارها باقية

ومن فوقها بدا (بحر النجف) فى مشهد جميل وسط وادى سحيق تزينه المزارع ويصله الماء عن شعبة من الفرات ، ومن ورائه تمتد بادية العرب إلى الآفاق وهى موضع فزع النجفيين ، إذ منها يتوقعون غارات الوهابيين من غلاة السنيين ، وكنا نشاهد قطراً من حمير تثقلها قرب المـاء ، تسير صعداً فوق تلك التلال لإمداد النجف بالماء من ذاك البحر ، وقد خيل إلىّ أن أهل النجف كلهم من العلماء يسيرون وحول طرابيشهم العمامة الخضراء ، ويعيشون عالة على أموال الصدقات والحجاج . وفى البلدة من المدارس الدينية أكثر من ثلاثين مدرسة ، تؤوى فوق ستة آلاف طالب ، زرت إحداها وهى فى داخلها تحكى المسجد ، ويقرأ الطلبة على مشايخهم ، ثم بعد ذلك يأوون إلى سراديبهم . ولكل مكانه الخاص . نزلت درجاً بعيد العمق أدى بنا إلى سراديب ومفارق لطرق كلما سلكنا سبيلنا فى إحداها مررنا بغرف بهـا مناور ضيقة ويجلس فيها طالب أو اثنان وسط ظلمة موحشة وسكون رهيب ينكبان على التحصيل والدرس ، وهـذه السراديب من أخص مميزات



(شكل ٦٨)   على جسر الحلة

النجف توجد فى المساجد والمدارس والبيوت يختزنون فيها متاعهم كيلا تفسده الحرارة ، وقد دعانى أحد كرامهم إلى بيته ونزلنا بعض سراديبه ، وكان هجير اليوم لافحاً فشعرت ببرودة ورطوبة نقلتنا إلى المنطقة الباردة تماماً فى دقيقتين ، وهناك قدم إلىّ بعض البطيخ ويسمونه (الرجى) ؛ والبطيخ عندهم يطلق على الشمام ، فكان مثلجاً منعشاً شهياً .

وصادف أن كانت البلدة فى هياج طائفى شديد يوم زرتها (٢٤ يولية) ، لما شجر بين الشيعة والسنيين اثر كتاب أخرجه بعض السنيين ، وأسماه : (العروبة فى الميزان) طعن فيه الشيعة ، فاهتاج أولئك وقام شيعى يخرج كتاباً آخر للرد على أهل السنة فطالب الناس بمصادرة الكتاب الأول ، فصودر وطالب السنيون بمصادرة الكتاب الثانى ، فحاولت الحكومة ذلك ولم تستطع لأن الهياج هناك بلغ أشده ، وقد تشكلت هيآت ولجان طالبت الحكومة برد حقوق الشيعة وهم أغلبية السكان [1] وإن كانوا أكثر جهلاً ، أما الحكومة فتعاضد السنيين

(١) سكان العراق دون ثلاثة ملايين ، منهم مليون وربع من الشيعة ، ومليون من السنيين ، وربع مليون أكراد ، والباقى يهود ومسيحيون ويزيديون وصابئة الخ . فالتفرق والتنابذ هناك يساعد نفوذ الأجنبي كثيراً .



(شكل ٦٩) فوق أطلال حدائق بابل المعلقة وبجوارها أسدها المشهور

لأنهم أكثر ثقافة من جهة ، ولأن الأنجليز أميل إلى معاضدة الأقليات من جهة أخرى ! لذلك ترى أكثر المتصرفين (وهم المديرون) والوزراء من السنيين ، وكان المغفور له الملك فيصل فى أوربا ، فأبرقوا إليه فبعث إليهم يطمئنهم ويوصيهم بإيقاف كل شىء حتى يعود ، وكم كان ألمى شديداً لهـذا الشقاق الذى لا شك يضعف مركزهم أمام الغاصب ، وينال من استقلالهم كثيراً ، على أنى علمت أخيراً أن حركة مذبحة الأشوريين ، وتصرف الأمير غازى الجرىء ، وكذلك موت الملك فيصل : كل ذلك قد ألف بين القلوب فتناسوا الأحقاد ولو إلى حين .

الشيعة : لما مات النبى صلعم فى غير خلف من الذكور قام أبو بكر وأوقف المرتدين وحمل لواء الإسلام إلى الجزيرة ولما عاد عمر بن الخطاب واصل دعاية الإسلام بفضل قائديه خالد ومعاوية فحنق عليه قوم واعتقدوا أن الخلافة يجب أن تكون فى سلالة الرسول لكن كظموا غيظهم حتى مات عمر ، ثم جاء عثمان وقتل عاجلاً ، وقام على زوج فاطمه بنت النبى صلعم وأب أحفاد رسول الله وكان الخوارج هم الذين حرضوا على قتل عثمان وأيدوا علياً . لكنهم خرجوا عليه هو أيضاً لما رضى بمهادنة خصومه (ومن ثم سموا الخوارج) ودبروا مؤامرة لقتل على ومعوية وعمرو بن العاص فى وقت واحد ، فقتل على بيد عبد الرحمن بن ملجم وهو

ينادى للصلاة ، إذ جرحه جرحاً بليغاً فى رأسه مات بعده بيومين ، وقد مثل الناس بابن ملجم فعذبوه وقطعوا أطرافه . بايع الناس الحسن بن على وكان معاوية قد بويع فى الشام فزحف لقتال الحسن ، وتأهب الحسن للقتال فى العراق ، لكن ثار عليه جنوده وانفصوا من حوله فهادن معاوية وتنازل له عن الخلافة وفر وقتل ، ثم بايع الجميع معاوية إلا الخوارج والشيعة (شيعة آل البيت أو آل على) وقد اجتمعوا حول الحسين ابن على فى مكة فقتله جنود معاوية فى كربلاء هو وأفراد أسرته وأتباعه جميعاً إلا ابن واحد للحسين أمكنه الهرب ، ولقد جعل معاوية الخلافة وراثية فى أولاده وعين ابنه يزيد خلفاً له ، لكن ظل الخوارج يناوئون بنى أمية ومن بعدهم العباسيين ، وفى رأيهم أن الإمامة والخلافة لا يشترط أن تكون فى قريش ويجب توافر الكفاية والعدل فان حاد الخليفة عن الصواب وجب عزله فهم أبغض الفئات الاسلامية للحكم الوراثى ويعدون نصراء الحكم الديمقراطى ، كذلك قام الشيعة يناهضون بنى أمية لكن لما قويت الدولة الأموية واتسع نفوذها اختفى الشيعة وظلوا يعملون سراً حتى بدأ اضمحلال دولة بنى أمية فظهروا ثانية وعاونوا العباسيين فى خراسان تحت أبى مسلم الخراسانى على أن العباسيين لما تملكوا أخذوا يطاردون الشيعة .

وأخذت طوائف الشيعة تتشعب وعاونها الفرس سراً على ذلك لأن فارس رأت فيهم خير هادم للاسلام ولملك بنى العباس أولئكم الذين قضوا على استقلال فارس وحاولوا القضاء على قوميتها ، ومن فرق الشيعة من يقول بأن الصحابة كلهم كفروا بعد موت النبى إذ جحدوا إمامة على وأن علياً نفسه كفر اتنازله لأبى بكر لكنه عاد له إيمانه لما تولى الامامة وهذه فرقة (الامامية) ، ومن الشيعة قسم أوجب النبوة بعد النبى فقالوا بأن الشبه بين محمد وعلى كان قريباً لدرجة أن جبريل أخطأ وتلك فئة (الغالية أو الغلاة) ، ومنهم من قال بأن جبريل تعمد ذلك فهو إذن ملعون كافر .

ومن الشيعة طائفة (الاثنى عشرية) الذين يقدسون الأئمة الاثنى عشر وهم : على فالحسن فالحسين فابنه زين العابدين فابنه محمد الباقر فابنه جعفر الصادق فابنه موسى الكاظم فابنه على الرضى فابنه أبو جعفر محمد فابنه على فابنه محمد الحسن العسكرى فابنه محمد المهدى الذى اختفى فى مغارة سامرا وسيخرج آخر الزمان ليهدى الناس ويطهر العالم من الرجس والجور ، ومنهم الاسماعيلية والباطنية الذين مر الكلام عليهم فى الشام ،

(شكل ٧٠) على باب أشتار ونقوش السيران والتنين — شعار الاله مردوك

ثم القرامطة الذين تقووا حول الخليج الفارسى ويعرف عنهم الاباحة فى النساء وقد أحلوا أنفسهم من كل عبادة واستحلوا النهب والرذائل وتركوا الصلاة والصوم وكانوا ممن يعملون على هدم الإسلام ، وفى مصر قام الحاكم بأمر الله بعد المعز ينشر مذاهب الشيعة ويدرسها فى (دار الحكمة) وكان أساسها أن الشرائع خاضعة للعقل والعلم . وأن الأنبياء هم رجال عاديون ، وغاية مافى الأمر أنهم فلاسفة وقد ألهه الدروز وقالوا بأنه رفع إلى السماء وسيعود لتطهير الأرض كما أسلفنا ، ويرى جميع الشيعة أن الامامة ليست مصلحة عامة تناط باختيار الناس بل هى ركن من أركان الدين .

زواج المتعة : ولقد استرعى نظرى فى النجف كثير من الأطفال الذين يلبسون فى آذانهم حلقات خاصة هى علامة أنهم من ذرية زواج المتعة المنتشر بين الشيعة جميعاً وبخاصة فى بلاد فارس . ففى موسم الحج إذا ما حل زائر فندفا

لا قاه وسيط يعرض عليه أمر المتعة مقابل أجر معين فان قبل أحضر له الرجل جمعاً من الفتيات لينتقى منهن وعندئذ يقصد معها إلى عالم لقراءة صيغة عقدالزواج وتحديد مدته وهى تختلف بين ساعات وشهور وسنوات ، وللفتاة أن تتزوج مرات فى الليلة الواحدة ، والعادة أن يدفع الزوج نحو خمسة عشر قرشاً للساعة وخمسة وسبعين قرشاً لليوم ونحو أربعة جنيهات للشهر ، ولا عيب على الجميع فى ذلك العمل لأنه مشروع ولا يلحق الذرية أى عار مطلقاً ، وعند انتهاء مدة الزواج يفترق الزوجان ولا تنتظر المرأة أن تعتد بل تتزوج بعد ذلك بيوم واحد فان ظهر حمل فللوالد أن يدعى الطفل له ويأخذه من أمه إذا بلغ السابعة . ويرى أهل السنة فى ذاك الزواج وزراً كبيراً إذ حرمه النبي صلعم ، وكان مباحاً فى الجاهلية وفى الحروب فى الإسلام ، ويخال البعض أن منشأ تلك العادة بابل يوم أن كان الفتيات يستأجرن للحجاج فى معابد (استر ومردوك) ولا تزال لها بقية فى (عاهرات الآله) بين الهندوس وقد أشرنا إليها آنفاً (فى جولة فى ربوع آسيا) .

ويكاد يسود الشيعة فى جنوب العراق بين بغداد والبصرة وإن كان أغلب الملاك والوجهاء والموظفين والبدو من السنيين ، أما الفلاحون المستقرون الذين تجرى فى عروقهم بقية من دماء زراع بابل القديمة فكلهم من الشيعة البسطاء الذين يبتغون فتاوى المجتهدين وهم الذين أوتوا حق تفسير القرآن وفق ما قرره الأئمة ولعل تعصبهم الشديد راجع إلى خضوعهم طوال السنين الغابرة لسلطان الأجنبي من غير دينهم فهم أبداً ضد كل حكومة ، ويرون كل السلطان والنفوذ فى طائفة مجتهديهم ليس غير وجل أولئك المجتهدين يرجعون إلى أصل فارسى ويطمحون إلى ضم العراق لحظيرة فارس يوماً ما ، وحينذاك تتولاهم حكومة شيعية ، وقد بلغ بهم سكهم فى الغير انهم يحتمون غسل كل شىء دخل بيتهم ثلاث مرات خشية أن يكون قد لمسه غير شيعى ، وهم يغيرون ملابسهم قبل الصلاة ، وقد حدث أنى لما قمت من خراسان عائداً إلى العراق كان يرافقنى



(شكل ٧١) أمام مسجد الكوفة ، حيث وقف الحجاج يهدد أهل العراق فى خطبه المشهورة

شيخان شيعيان من العراق ، وكان معى بعض الحلوى والفطير قدمها إلى صديق مسيحى فدعوتهما أن يأكلا منه شيئاً فابتعدا لأنه من يد كافر !

الى كربلاء : قمت من النجف مبكراً إلى كربلاء فوصلناها بالسيارة فى ثلاث ساعات فكانت تحكى النجف تماما فى أزقتها الملتوية تطل عليها شرفات متقاربة متقابلة تكاد تظل الطريق وهى ثانية معاقل الشيعة فان قلنا إن النجف هى الرأس المفكرة للشيعة ، فكربلاء قلب الشيعة النابض فهى أكثر قدسية لديهم من النجف . هنا يبكى القوم نساء ورجالا وأطفالا موت الحسين الذى تثير ذكرى فجعته لديهم حماسة فائقة أشبه بحماسة أهل بابل وبكائهم على موت (تموز) هنا زرت مدفن الحسين تحت قبة من ذهب يسمونها (الحضرة الكبيرة) يؤمها خلق كثير وبخاصة فى محرم شهر الحج ، وهناك مسجد آخر يدفن فيه العباس وكان أخ الحسين من أبيه ، وكان يعرف القوم عن الحسين رقته وتسامحه . وعن العباس دقته وقسوته فى الحق ، لذلك قد يحنث الواحد هناك فى يمين الحسين ، لكنه لا يحنث قط إن أقسم بالعباس ، وقد أبصرنا بصورة لرأس رجل فى سقف

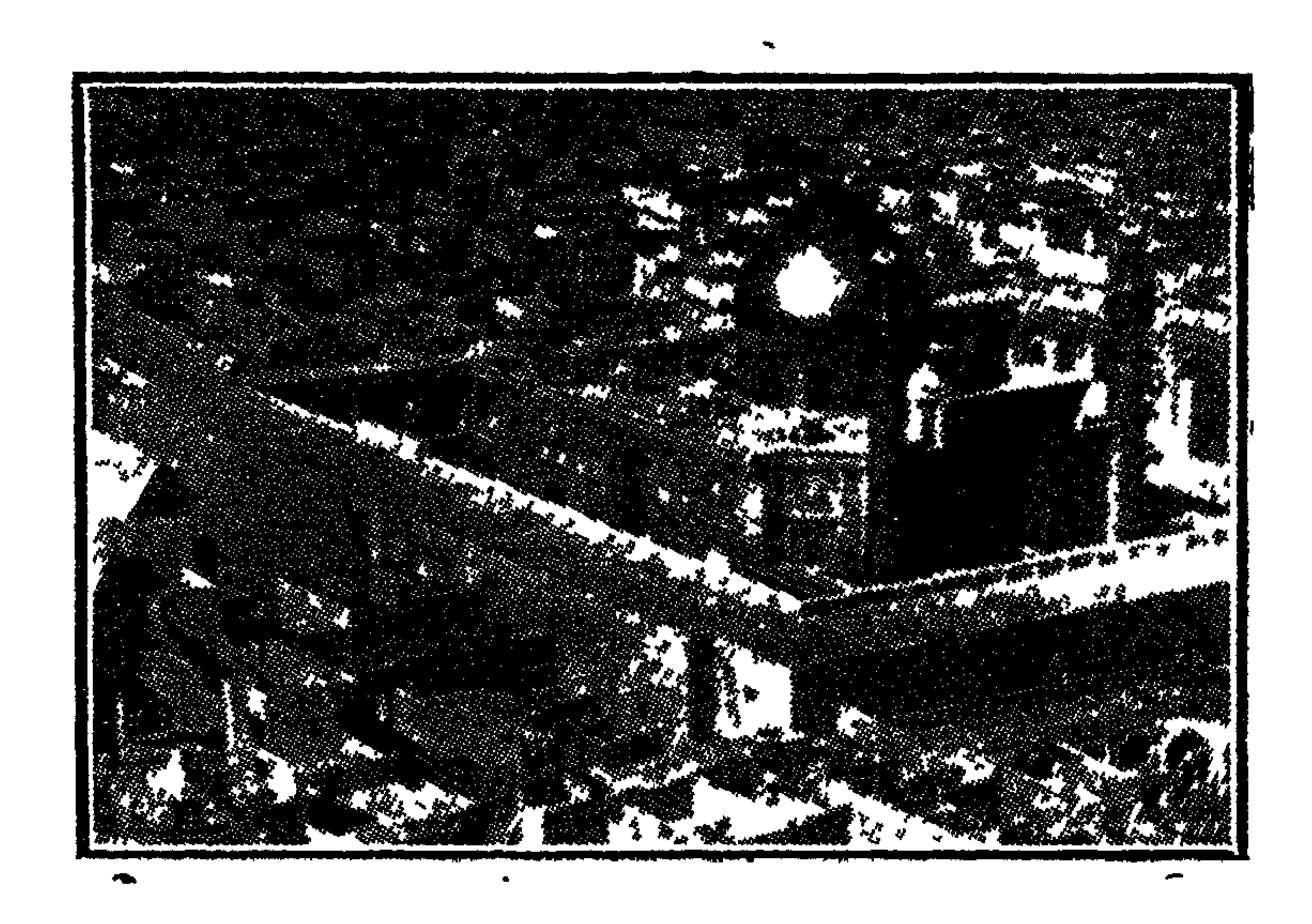


(شكل ٧٢) داخل مسجد الكوفة حيث قتل سيدنا على
ومن تلك العين نبع الطوفان

مسجد العباس قالوا لنا إنه حنث فى يمينه بالعباس فطارت رأسه إلى هناك و يعتقدون أن من يأتى ذلك تطير رأسه هكذا .

عدت إلى بغداد وزرت المتحف العام وهو على صغره يحوى مجموعة قيمة من مخلفات بابل وأشور و بخاصة من العهد السومرى منذ سنة ٣٠٠٠ ق م وفيه من صياغة المعادن والحلى من ذهب ونحاس وحديد شئ كثير ، ومجموعة من أحجار كريمة حفرت حفراً دقيقاً جدير بكل اعجاب ، وقد استرعى نظرى خاصة غطاء للرأس من نحاس يحكى التمثال بشعره الجعد ، وآخر لسيدة تلبس الحلى الفاخر من ذهب ، وثالث بقيثارة من رأس عجل من ذهب مصمت ، وعند الرأس والذنب تقوم شعبتان منعرجتان تشد عليهما الأوتار و يطعم كله بالخشب والعظم والصدف ، والمتحف منسق خير تنسيق .

الى البصرة : مدينة السندباد : أرجأت زيارتى لها إلى آخر الرحلة بعد عودتى من بلاد فارس خشية حرها اللافح فدخلتها وافداً من الخليج الفارسى فأخذت باخرتنا تشق عباب مياه شط العرب الذى كانت تنأى ضفافه لعظيم اتساعه وكانت غابات النخيل تسد الآفاق سداً تتخلل تلك الغابات مسايل للمياه لا تدخل



(شكل ٧٣) منظر النجف من السماء و يبدو مدفن الامام على واضحا

تحت حصر وهى بعض شعاب شط العرب اللانهائية ، وقد أقيمت عند مصابها مراس صغيرة أقيمت حولها مساطح البلح يجهز فى صناديق خشبية للتصدير ، وغالب البلح من نوع أصفر اللون مكور الشكل نواه صغير للغاية وطعمه لذيذ سائغ شهى وهو أخضر فان زاد نضجه أضحى رطباً غزير العسل بحيث يفوق بلح الواحات عندنا . ولا عجب فالبصرة من أغنى بلاد الدنيا بالتمر الذى يصدر منه بما لا يقل عن مليون جنيه فى كل عام ، ويجرى القول على لسانهم إن النخلة يجب أن تغمر جذورها فى الماء ورأسها فى النار والهجير وتلك الظروف متوفرة فى البصرة بنقائعها الممدودة وحر صيفها المحرق . ومن البلح يتخذون بعض الكحول والخمر ، ظلت الباخرة تسير طويلا وأرصفة الميناء ممدودة على الجانبين وبخاصة الجانب الغربى وكانت حركة البواخر الجليزية وغير الجليزية صاخبة أشعرتنى بأهمية ذاك الثغر الذى خلته من قبل أقل شأناً والأرصفة كلها زودت بأحدث وسائل النقل من روافع تجانبها سكة الحديد . وتتجه عناية الانجليز إلى هذا الثغر اليوم وسيتخذون منه قاعدة تجارية وحربية هو وثغر حيفا الذى رأيت العمل قائما فيه وبهمة نادرة



(شكل ٧٤) أسوار النخل وكأنها القلاع

وذلك تثبيتاً لمركزهم وتأميناً لطرقهم إلى مستعمراتهم فى الشرق .

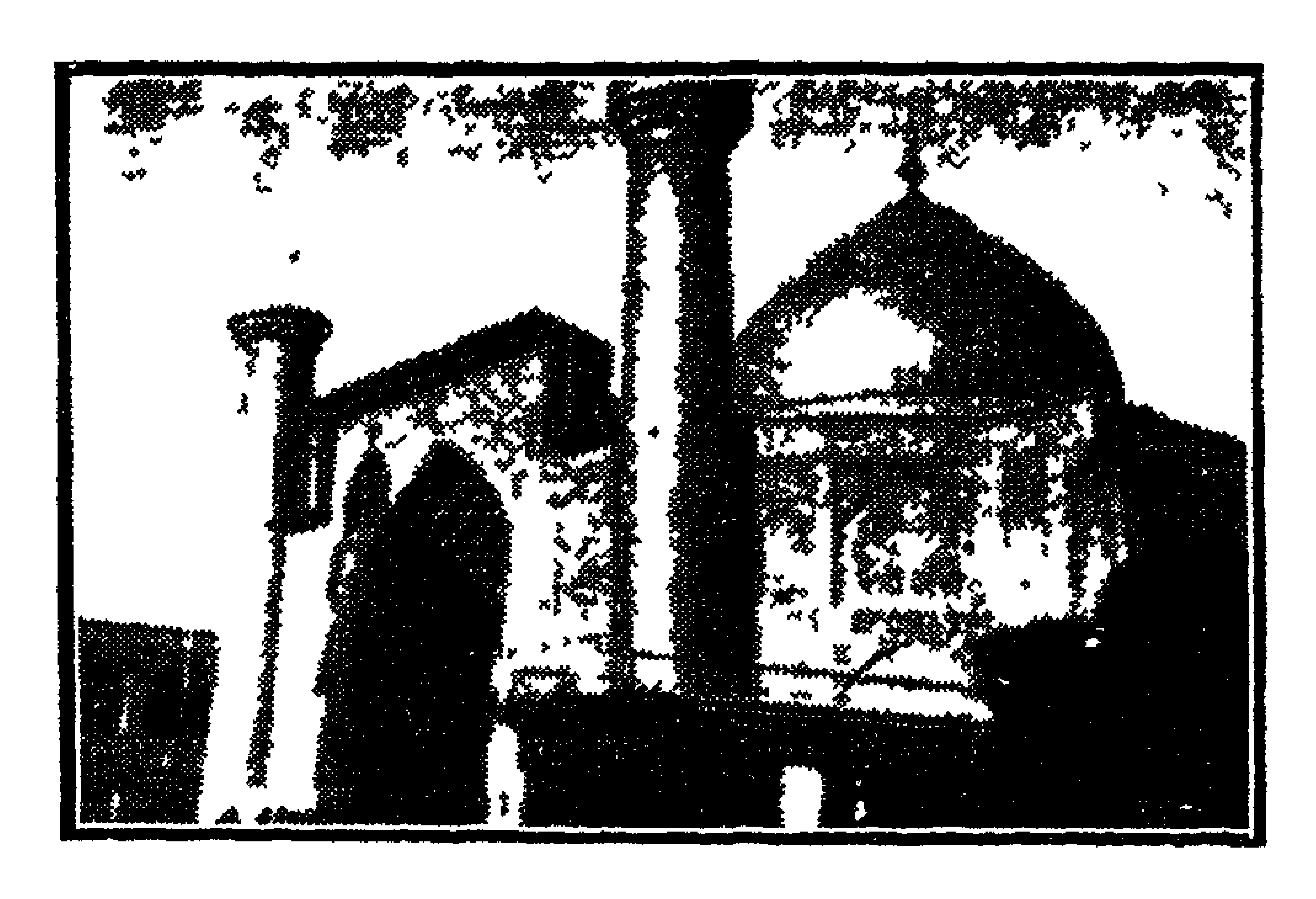
حللت الثغر ونقلت المتاع إلى الجمرك ، وهنلك وقف رجاله يتيهون على الناس عجباً بمـا أوتوا من سلطة ، فلم يبدأوا التفتيش إلا دفعة واحدة ، فضاع من وقتنا ساعات رغم تكرير الرجاء لهم أن يعنوا بذلك . ثم أقلتنى سيارة إلى البصرة فإذا هى بعيدة عن الميناء بنحو عشرة كيلو مترات ، وتلك المسافة تخطها أيدى المهندسين اليوم فى طرق مرصوفة ومبان حديثة ، ويظهر أنها ستكون غدا حى طبقة الأجانب والانجليز والأغنياء . دخلنا البلدة وإذا بها أزقة ضيقة قذرة لا نظام فيها ولبثت أعاين النزل تلو الآخر فلم يرقنى بها شىء قط لشدة إهمالها وفساد هوائها ، وبعدها انتقلت إلى حى (آشار) الحديث وحللنا نزل (بيكادلى) وهو أفخم أنزالها رغم أنه بسيط البنيان والأثاث لا يعادل أصغر نزل عندنا ، ولم يقبـل أجر الليلة الواحدة أقل من ثلاثين قرشاً للنوم فقط ، وهو يقوم على ميدان جديد لا تزال تشق الطرق منه إلى جهات متفرقة مهملة . والبصرة أشبه ببلاد المراكز الصغيرة فى مصر ليس بها ما يروق الزائر سوى غابات النخيل المكتنفة التى تحوطها ، وسنعاب شط العرب



(شكل ٧٥) مثل من طرق النجف

التى تلاقيك أنى سرت بلياتها المدهشة ، على أن عاليها قذر مهمل ، وإن قامت البيوت مطلة على الماء فى هندسة عتيقة ، ولكل بيت زورقه (ويسمونه البلم) وحتى جانب الشط الرئيسى لا تقوم عليه سوى الأكواخ الحقيرة رغم اتساعه لعظيم ومنظره الطبيعى البهيج وبخاصة إذا ركبت متنه فى (بلم) وهو زورقهم النحيل الأنيق فى أطراف معقوفة تطلى باللون الأبيض ؛ وهو أجمل مظاهر البصرة مطيتهم الرئيسية يشقون به أرجاء البلدة ، لأن المجارى المائية تكاد تجانب الطرق جميعاً . أما المقاهى (البلدية) على نظام نظيراتها فى بغداد ، فهى تغص أبداً بكسالى القوم ليلا ونهاراً ، وجلهم من لابسى العقال ، وفى كل مقهى (حاكى) يردد الأنغام المصرية والعراقية .

قمت بسكة الحديد إلى حى الزبير الذى مات فيه ذاك الصحابى الكريم ، وهو مكان البصرة القديمة ، ويقع إلى غرب بصرة الحالية . أنشىء يوم بعث عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان سنة ١٥ ﻫ ، وأمره أن ينزل مكانا قريباً من الماء والمرعى والمحتطب ، فتخير هذا وشد فيه البلدة والمسجد الجامع الذى قواه فيما بعد أبو موسى الأشعرى . ثم جاء على وأقام مسجده وكان أكبر مساجد الإسلام



(شكل ٧٦) مدفن الحسين فى كربلاء

طرأ بمآذنه السمع . وكان فيه مصحف شريف عليه قطرات من دم ظن أنه المصحف الذى كان يقرأ فيه عثمان حين قتل . على أنى لم أجد للمسجد من بقية تدل حتى على مكانه . وقد اختط العرب البصرة نكاية فى الفرس لتحويل التجارة من سواحلهم إليها . وكان تعدادها إذ ذاك نصف مليون نفس بدليل أن أبا جعفر لما فرق مليون درهم على أهلها لم يصب الفرد منهم سوى درهمين ، ولقد لاحظت على أهلها ضعف البنية وشحوب اللون لرداءة جوهم كثير النقائع والعفونات ، شديد التقلب فى اهوائه . حتى كان العرب يسمون البصرة (بالرعناء) ، وفى طريقى إلى الزبير مررت ببقايا برج متهدم يسمونه : (برج سندباد) ، وأشار القوم إلى مكان قالوا إنه كان منزل واصل بن عطاء الذى اعتزل مجلس الحسن البصرى ، ولذلك سمى أشياعه بالمعتزلة خصوصاً وأنهم اعتزلوا جانباً ، فلم يكونوا مع على ولا مع خصومه . وفى البصرة كانت واقعة سنة ٣٦ هـ ، وفيها اجتمع إخوان الصفا أصحاب الرسائل المشهورة . ومنها بشار بن برد وسيبويه والحريرى والأصمعى والجاحظ . وكثير من أهل الفضل والأدب .

الى القرنة جنة عدن : طالما حنت نفسى أن أرى جنة عدن التى وعد الله المتقين . فقمت إليها فى زورق سار بنا صعداً فى شط العرب ومناقعه

اللانهائية ؛ حتى رسا بنا عنـــد ملتقى النهرين : دجلة والفرات عند بلدة اسمها القرنة وإذا بها قرية هى أبعد من البصرة حقارة ، وأمعن قذارة ، ويظهر أنها كانت فيما مضى مجموعة من جنات خصبها وافر ، وزرعها عميم ، وقطوفها دانية ، تجرى من تحتها شعاب النهرين .
أما اليوم فلم أر سوى نقائع إلى مد البصر يؤمها البعوض وأهلها مائيون بالمعنى الصادق ، تقوم قراهم وسط المياه فى بيوت من غاب ، ويسمونها : (بيوت القصب) ، ويتصلون بالزوارق ؛ والناس

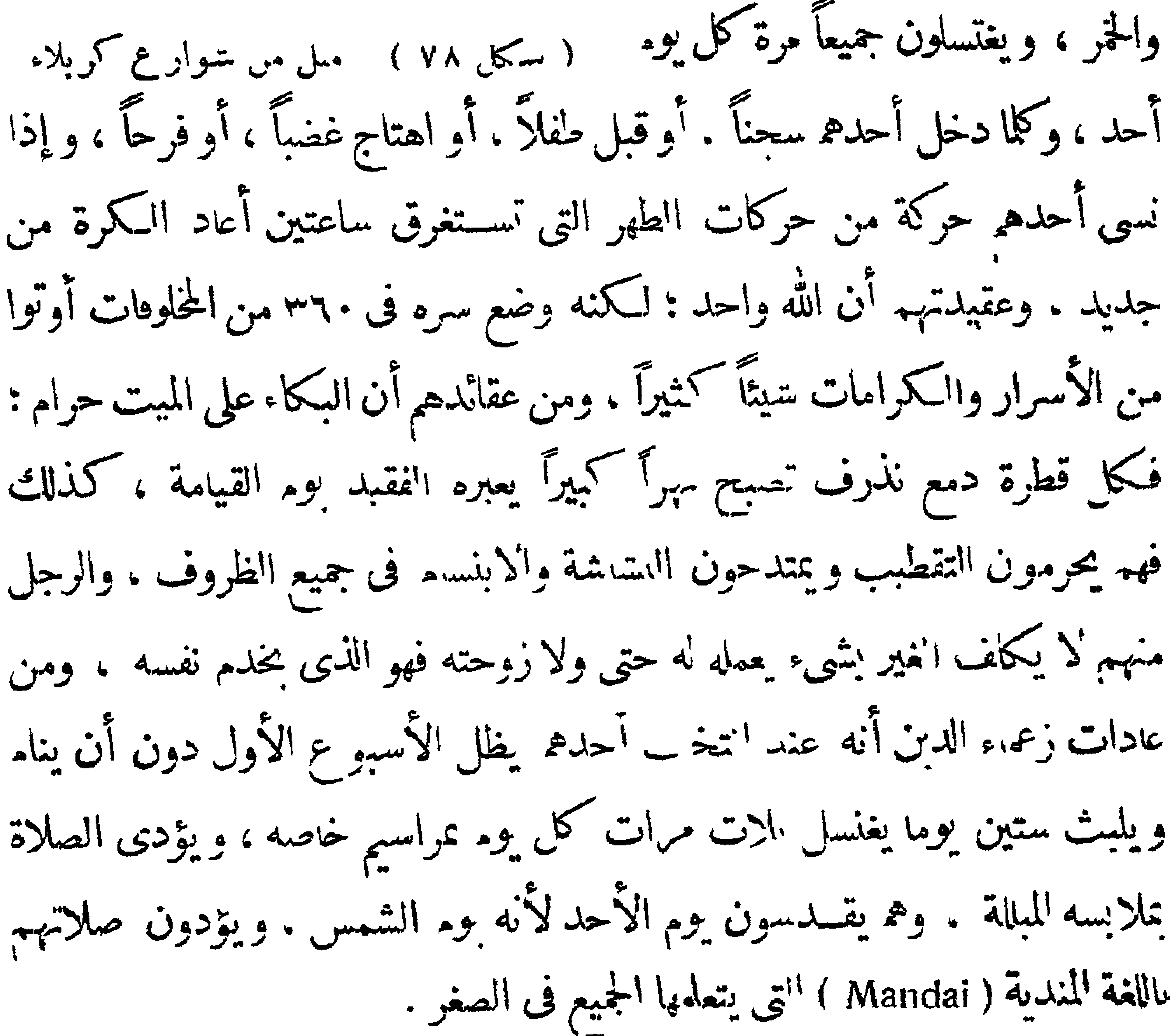


(شكل ٧٧)
أمام مسجد العباس أخ الحسين لأبيه

عوّامون مرحون لا يكادون يلبسون شيئاً حتى فى الشتاء ، وقلما ترى بينهم مريضاً بالعين أو الساق على أنى سمعت عنهم انحلالاً كبيراً ، وتلك نتيجة لازمة لشدة تجاورهم وقلة وسائل الترف والسرور لديهم ، غالب أرضهم اليوم تزرع أرزاً ، وهى ملك للحكومة تؤجرها مساحات كبيرة لا تقل عن خمس سنين ، وغذاؤهم : الأرز ، والسمك ، وبعض أوراق الغاب ، وكلهم كلف بالوشم حتى على الخصر ، وفى داخل الجسد . وأظرف ما فى مساكنهم أنها سهلة النقل ، فقلما يستقر البيت فى مكان واحد ويتخيرون من أعشاب الماء الطافية دواء لأمراضهم هم وماشيتهم .
وقد لاقيت رجلاً من الصابئة الذين يقطنون حول دجلة إلى شمال القرنة وحول عمارة ، ولما كانت الحرب الكبرى وتهدد إقليمهم هـذا نزحوا إلى بغداد .
وقد ساعدتهم الحكومة على ذلك وانتحوا ناحية من السور القديم يقومون فيه

بأشغال النحاس الدقيقة . وقد زرت بعض متاجرهم عند عودتى إلى بغداد .

والصابئة : يخالهم المسلمون (أهل سبأ) ، و يقال لهم أحياناً عبدة النجوم وهم أهل كتاب يخالهم النصارى من شيعة القديس حنا . يجاورون مسايل المياه الغزيرة : لأنهم مغالون فى أمر الطهر والغسل والنطافة . لهم زعيم اسمه (الشيخ جودة) يحرم على نفسه القهوة والشاى والطباق والسكر والخمر ، و يغتسلون جميعاً مرة كل يوم



(شكل ٧٨) مثل من شوارع كربلاء

أحد ، وكلما دخل أحدهم سجناً . أو قبل طفلاً ، أو اهتاج غضباً ، أو فرحاً ، و إذا نسى أحدهم حركة من حركات الطهر التى تستغرق ساعتين أعاد الكرة من جديد . وعقيدتهم أن الله واحد : لكنه وضع سره فى ٣٦٠ من المخلوقات أوتوا من الأسرار والكرامات شيئاً كثيراً ، ومن عقائدهم أن البكاء على الميت حرام : فكل قطرة دمع تذرف تصبح نهراً كبيراً يعبره الفقيد يوم القيامة ، كذلك فهم يحرمون التقطيب و يمتدحون البشاشة والابتسام فى جميع الظروف . والرجل منهم لا يكلف الغير بشىء يعمله له حتى ولا زوجته فهو الذى يخدم نفسه ، ومن عادات زعماء الدين أنه عند انتخاب أحدهم يظل الأسبوع الأول دون أن ينام و يلبث ستين يوما يغتسل ثلاث مرات كل يوم بمراسيم خاصة ، و يؤدى الصلاة بملابسه المبللة . وهم يقدسون يوم الأحد لأنه يوم الشمس . و يؤدون صلاتهم باللغة المندية (Mandai) التى يتعلمها الجميع فى الصغر .



(شكل ٧٩) بصرة تتفقها سعاب شط العرب وتلك الزوارق (بلم) مطنهم الرئيسيه

ولا يبقى من هذا المذهب إلا بقية آخذة فى النقص ، وعددهم بضعة آلاف غالبهم يقطن حول عمارة على دجلة شمال القرنة ، وكذلك فى بلدة الناصرية وسوق الشيوخ على الفرات ، وعملهم الرئيسى بناء الزوارق الصغيرة ، ويظهر أن لهم صلة بالكلدانيين وبالشعوب التى تقدمتهم ، يؤيد ذلك أنهم يعتقدون فى التنجيم ويشتركون معهم فى كثير من العقائد والأسماء ، لكن دينهم يشجع طهارة القلب والإيمان الوثيق فى الآخرة .

قمت عائداً إلى البصرة ، ومنها أقلنى قطار بغداد مسافة ٥٥٠ كيلو متراً قطعناها فى يوم كامل ، فلبثنا نسير وسط سهول رملية مهملة لم يتخللها شجر ولا عشب ، ولبثنا الليل كله وسط تلك الرمال التى كان هباؤها يتطاير فيدرك كل شىء ، وفى الصباح كنا فى : (أور) الكلدانية التى ولد فيها سيدنا ابراهيم ، وعندها شعبة للسكة تؤدى شرقاً إلى الناصرية ، ومن هنا بدأت المزارع تتزايد فى بقع متناثرة ، وكانت القرى نادرة صغيرة فى بيوت من الطين ، وكلما تقدمنا زاد خصب الأرض وكثر عدد القرى ، وفى نحو نصف الطريق وقفنا ببلدة السماوة وتمتد إلى غربها بادية السماوة المشهورة ، وعندها عبرنا الفرات إلى الديوانية فالحلة وعند الغروب دخلنا بغداد .



(شكل ٨٠) الصائغ مهرة فى أشغال النحاس

قمت با كورة الصباح (الاثنين ٢٥ سبتمبر) عائداً إلى الشام مودعاً بلاد العراق تلك التى كانت مهد الإنسان الأول والتى فاخرت بمدنياتها القديمة و بأنها مقر جنة عدن ومدفن كثير من الأئمة الأطهار وموطن هرون الرشيد والسندباد البحرى ، على أن تلك الظروف الطبيعية الجميلة التى جعلت الجزيرة مهد الإنسان الأول هى التى كانت عوامل هدمها إذ أطمعت فيها من حولها فغزاها جنود أشور وميديا والأغريق والفرس والروم ثم الساسانيون من الفرس ، وهم بناة ايوان كسرى . ثم المسلمون وأخيراً الإنجليز . قمت وذكريات ذلك الماضى خالدة مجيدة يراها الزائر ماثلة فى خياله فحسب ، و يزيدها امعاناً فى الخيال ما رأيته من اعتقاد القوم إلى اليوم فى السحر والسحرة مما أذكرنى بسحر بابل وهاروت وماروت ، ولا يزال كثير من الناس يسمى العراق ببلاد السحر ، لأن خرافاتهم لا حد لها ، رغم أن الإسلام محا منها الكثير ، من ذلك اعتقادهم فى الحسد وأثر العين الخبيثة ، فبعض الناس حساد بفطرتهم تؤثر عيونهم فى الغير أثراً سيئاً ولو كان ذلك خارجا عن إرادة أولئك الحساد والويل لمن عرف عنه ذلك ، وكم من مرة طلق الزوج



(شكل ٨١) القطار اثناء سيره بسهول الجزيرة المهمله

روجته لاعتقاده أنها حاسدة وهم يتقون العين بلبس اللون الأزرق وتعليق الخرز الأزرق فى بيوتهم وزوارقهم وسياراتهم ، و يظهر أن تلك العادة أثرت حتى على بعض بلاد أوروبا ، لذلك كنت أرى لون القيشانى بالمساجد جميعاً فى لون أزرق وحتى السيدات يحكن فى طرف إزارهن بقعة زرقاء . كذلك كنت أرى كثيراً من أبواب البيوت قد دق عليها حذاء قديم وأنت تسمع دائما عبارة (ما شاء الله) يقولها الناس جميعاً ، و يتركون عيون الأطفال قذرة وأرديتهم مهلهلة مخافة العين وقد تطوف الأم على سبع فتيات عذارى فى بيوتهن وتعطى كل واحدة قطعة من رصاص تضعها فى فمها وتبصقها بين ثوبها وجسدها حتى تسقط على الأرض ، ثم تأخذها الأم وتصهرها فى روث البقر و يوضع ذلك على رأس الطفل ، وكثيراً ما كنت أرى الطفل يرسل شعره و يلبس لباس الفتيات خشية أن يحسده الناس لأن الفتيان مفضلون على الفتيات .

وكثيراً ما يلجأ الزوج إلى (فتاح الفال) فيكتب له ورقة يضعها على رأسه ثم يقرأ تعاويذ و يأمره أن يذيبها فى الماء و يشرب بعضه و يحاول أن تشرب زوجته الباقى ثم يعطيه بخوراً يحرقه عند الغروب ، و بعد ذلك تحمه روجته . ورأيت رحلا



(شكل ٨٢) المدفع المحوط بأسرار السحر ويسمى (أبا خزامه) فى بغداد

يغسل يده من دجلة ثم رمى فيه بيضة وعقب وراءها بحجر وذلك لكى يحبب فيه من يريد . ولشفاء السعال الديكى الذى يسمونه هناك (حميرة أو خنزيرة) يذهب الرجل إلى بائع أحذية و يفاجئه قائلا : (يا كلب سوى لى كلب خاطر الكلب ابن الكلب) فيسلخ له قطعة جلد يحملها الطفل المصاب فيشفى ! و بعضهم يسقى الطفل ماء ولغ فيه كلب أو خنزير .

و يجب أن تحبو المرأة العقيم تحت جمل واقف لينفك عقمها . والمسيحية تركع تحت نعش فى الكنيسة ، وكل النساء من مختلف الديانات يعلقن خرقا حول مدفع قديم يسمونه (أبا خزامة) رأيته عند القلعة القديمة فى بغداد وقد رأيت سيدة تضع رأس طفلها فى فوهة المدفع ليعيش طويلاً ، وروى لى البعض أن سيدة من الأغنياء مرض طفلها فلبست خرقاً مقطعة ، وخرجت بها وهى عارية الأقدام تستجدى من سبعة بيوت بقولها (من بركتكم) ، وابتاعت بما تجمع لديها قطعة ذهب وكتبت عليها (يعيش) . ثم لبسها طفلها ، وقد تستجدى من سبعة أطفال باسم محمد ثم يصهر ما جمع و يعلق فى رقبة الغلام ليعيش طويلاً .

و إذا خشيت فتاة ألا تتزوج أدت فريضة الحج إلى الكاظم أربعين يوماً .



(شكل ٨٣)   الشارع الرئيسي في كرمان شاه

تخرج كل يوم مبكرة عارية القدم ولا تكلم أحداً ، و إذا وصلت الضريح قرعت بابه ونبهت الإمام أنها حضرت إليه ، و بذلك تضمن زوجاً سريعاً ، كذلك يهتم فتيات العراق بأخذ نصيب من الحلوى التي توزع في الأفراح و يأكلن منه ، لأن ذلك يعجل بزواجهن ، والشيعة يعدون الأيام الأولى من محرم شؤماً ، لأن الحسين قُتل فيها ، وكذلك أيام صفر لأن النبي مات فيه ، و يوم السبت والخميس أسعد الأيام . و إذا القمر خسف في رمضان وجب إزعاج الحوت الذي يقترب من القمر في زعمهم وقد يبتلعه . لذلك يعمدون إلى الطبول والصفائح يقرعونها إرهاباً له . وفي تقليم الأظافر يجب البدء بالخنصر . ثم الوسطى ، ثم الإبهام ، ثم البنصر ، وأخيراً السبابة هذا في اليد اليمنى . أما في اليسرى فيبدأ بالإبهام فالوسطى فالخنصر . فالبنصر . فالسبابة ، وكثيراً ما يلجأون إلى سيد من سلالة الرسول — حتى اليهود والمسيحيين — لطرد الجن من الأطفال ، وأكل قلوب الصبية الصغار شفاء لبعض الأمراض . لذلك يحاول الكثير اختطاف الصبية وقتلهم لهذا الغرض و يعتقدون أن الجن قد يحب فتاة آدمية قد ينديها فتقوم وراءه ليلاً إلى سراديب الدار : ثم تعود . والجن في زعمهم لا يتعرض لمن يحمل طفلة صغيرة

بأذى قط . لذلك لا تجرؤ امرأة أن تمر فى مكان مظلم موحش إلا وهى تحمل طفلة ، والبيوت لا تسكن إلا إذا شاع عنها الخير ، وقد يبقى البيت الجديد طويلاً دون أن يستأجره أحد خشية أن يكون مجابة للنحس ، وكثيراً ما يسمون الأطفال : (مش عاوز) ، أو (وحش) ، أو (حصـبة) خوفاً عليهم ، و إذا سقط إناء ولم ينكسر وجب كسره و إلاّ كان شؤماً ، و إذا طارت بومة فوق النائم صاح قائلاً (ملح وسكين) ، و إلاّ حل النكد لا محالة ، ومن أمثال تلك الخرافات شىء لا يحصى ، ويخيل إلىّ أن كثيراً من خرافاتنا وصلت إلينا عن طريق الجزيرة و بابل وما فيها من تخمين وأوهام وسحر .

هضبة إيران

بلاد فارس

نبذة تاريخية : فارس بلاد ذات مدنية قديمة وماض مجيد . وهى مقر الآريين الأصليين الذين كانوا منبت اللغة الآرية التى انسلخ عنها كثير من لغات أوروبا وأنت تلمس ذلك فى كلمات كثيرة تراها مشتركة فى لغتهم ، ولغات أوروبية أذكر من بينها ما يلى :

كلمة أخ = برادر بالفارسية ، وفراتر باللاتينية ، و برودر بالألمانية و برات بالروسية .

وكلمة أب = بدر بالفارسية ، و باتر باللاتينية ، وفاتر بالألمانية .

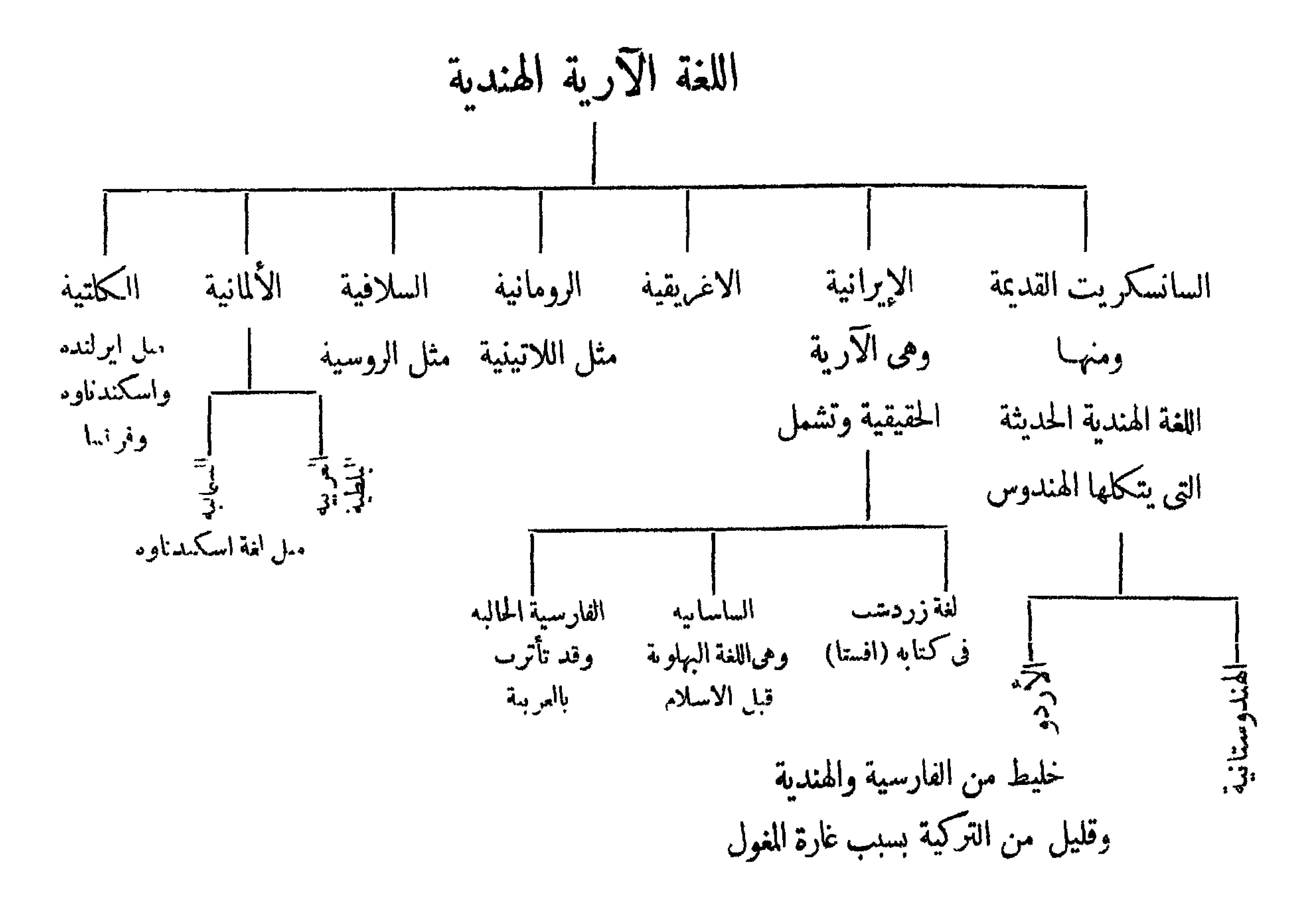
وكلمة أم = مدر « ، وماتر باللاتينية ، وموتر «

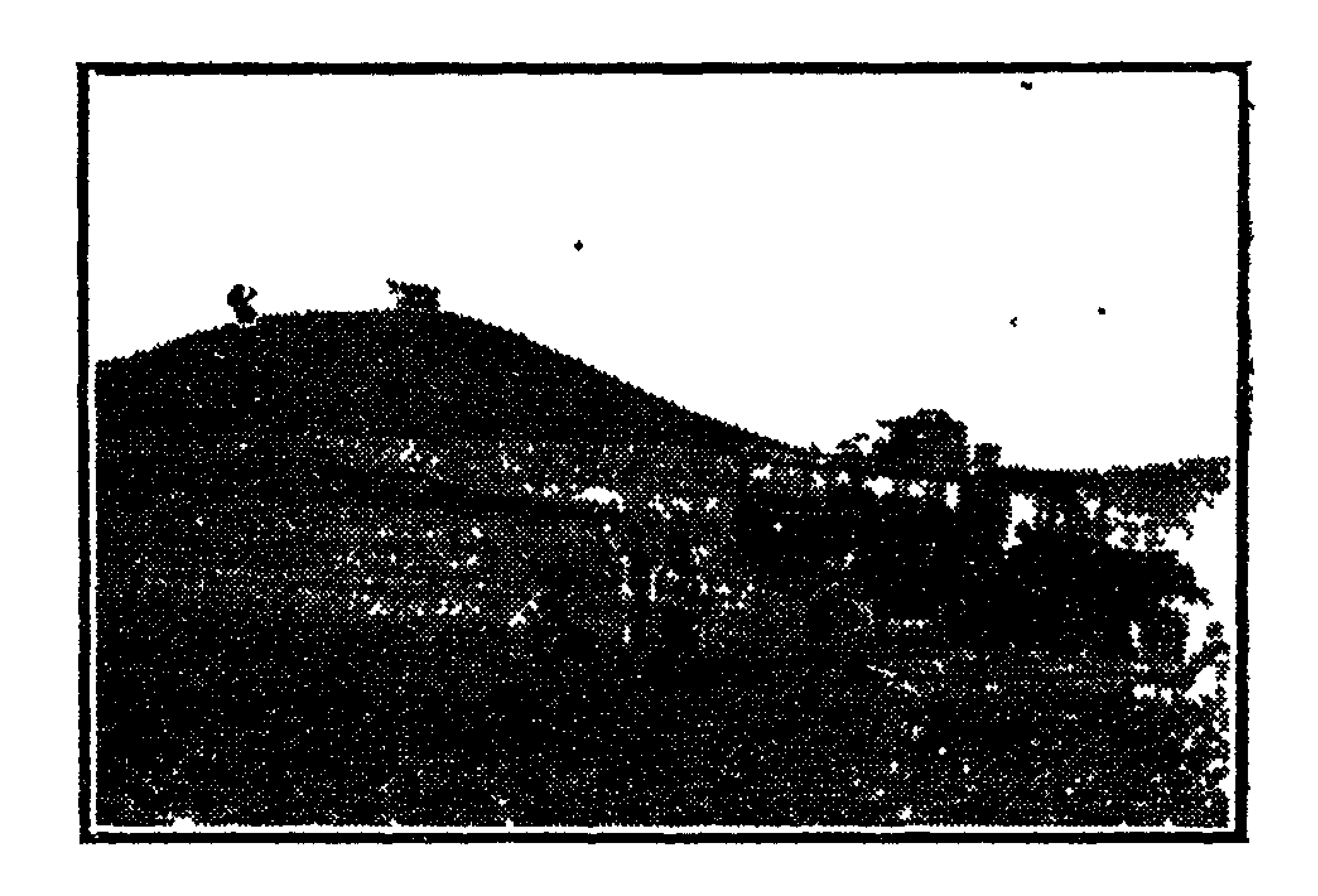
وكلمة ابنة = دختر « . وتختر بألمانية ، ودوتر بالانجليزية .

وكلمة باب = دِر « ، وتر « ، ودور «

وكلمة يحمل = بردِن « ، و برد « ، و بردن «

وكثير من الأفعال الفارسية تنتهى بمقطع (en) مثل الألمانية تماماً كذلك النفى بالفارسية نى أو نيست وكذلك كلمة باد بمعنى ردىء وكلمة حَرم بمعنى دافى وهاك تشعب اللغات الآرية :


اللغة الآرية الهندية
السانسكريت القديمة ومنها اللغة الهندية الحديثة التى يتكلها الهندوس
الهندوستانية
الأردو
خليط من الفارسية والهندية
وقليل من التركية بسبب غارة المغول
الإيرانية وهى الآرية الحقيقية وتشمل
لغة زردشت فى كتابه (افستا)
الساسانيه وهى اللغة البهلوية قبل الاسلام
الفارسية الحاليه وقد تأثرت بالعربية
الاغريقيه
الرومانيه مثل اللاتينية
السلافية مثل الروسيه
الألمانية
مثل لغة اسكندناوه
الكلتية مثل ايرلنده واسكندناوه وفرنسا



(شكل ٨٤) « اللورى » : أداة النقل الهامة فى فارس

ولقد دخل الفارسية كثير من الألفاظ العربية بنسبة ٢٠٪ فى لغة العامة و٣٠٪ فى لغة الخاصة ، و٤٥٪ فى لغة الصحافة ، و٦٠٪ فى لغة القانون و٨٠٪ فى لغة الدين والأدعية .

وإليك أظهر الخطوات والحوادث فى تاريخ فارس :

فى سنة ١٠٠٠ ق م كانت أول هجرة الآريين .

وحوالى سنة ٧٠٠ ق م انتشر دين زرداشت فى فارس كلها .

« « ٥٥٠ ق م جاء كورش .

« « ٥٠٠ ق م جاء دارا وأخاميس وكان مقرها فى الربيع برسبولس وفى الصيف همدان (اكباتانا) ، وفى الخريف بابل ، وفى الشتاء سوسا ، وهذا هو العهد الذهبى الأول لفارس .

وفى سنة ٣٣٠ ق م اجتاح الاسكندر البلاد .

وبين القرن الثالث والسابع كان العهد الساسانى ، وهو ثانى العصور الذهبية وبعده كان الفتح الإسلامى على يد عمر ، وفى ستين عاماً اجتاح الإسلام البلاد .

وفى ١٠٠٠ م كتب الفردوسى الشاهنامة فى ستين ألف بيت من الشعر حوت تواريخ فارس وأقاصيصها .

وفى القرن الثانى عشر والثالث عشر كانت غارة المغول .

وفى ١٥٠٢ ظهر الصفويُّون .

وفى ١٦٠٠ ولّى الشاه عباس الكبير واتخذ أصفهان عاصمته ، وهذا ثالث العصور الذهبية .

وفى ١٧٣٦ جاء نادرشاه الذى كان بائع جلود ثم أصبح جندياً وانتصر على الأفغان وأضحى سلطاناً فتح الهند ومد حدود فارس من السند إلى القوقاز ، ولما قتل تدهورت الدولة بعده عاجلاً .

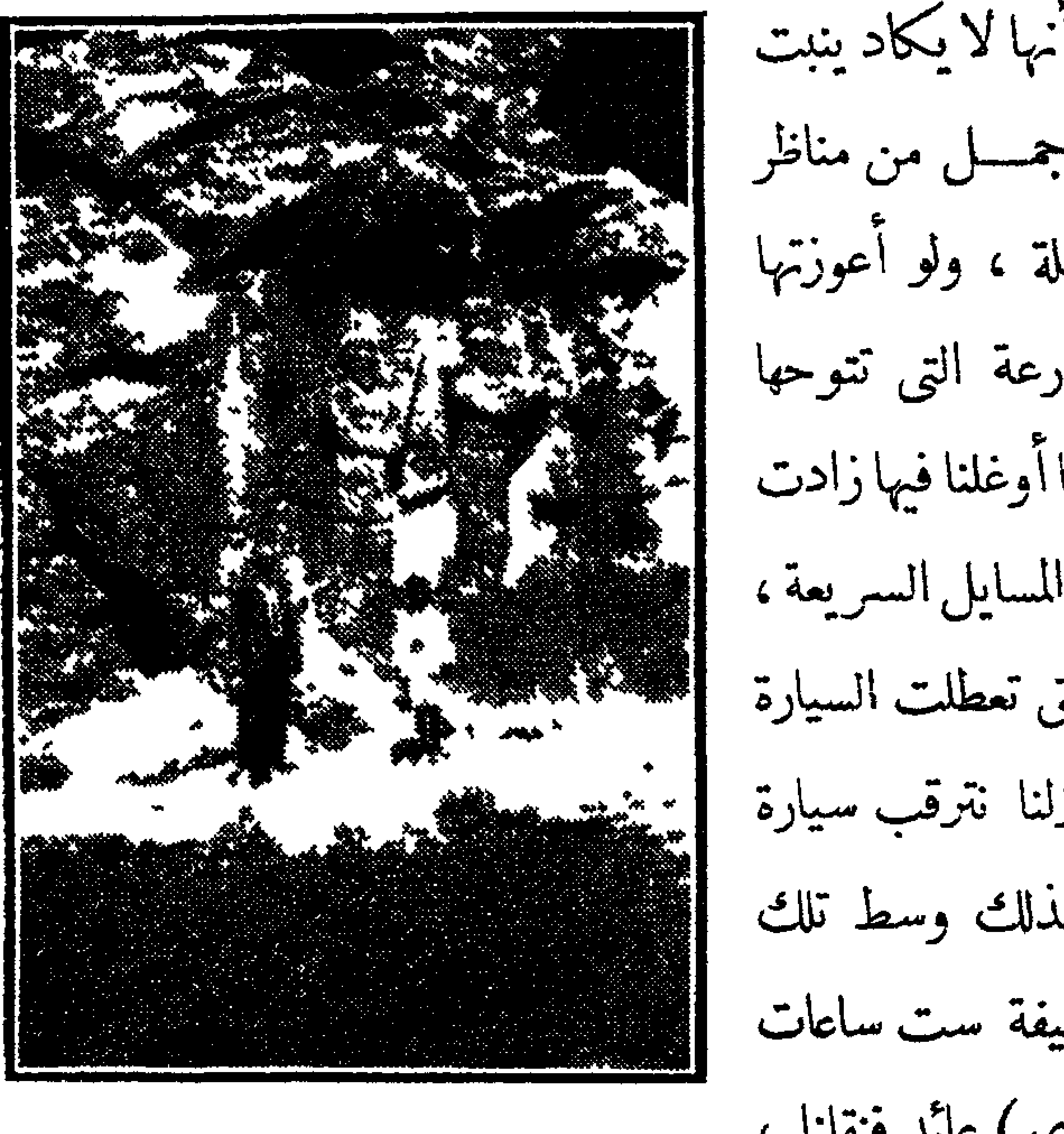
وقبيل ١٨٠٠ ظهرت أسرة قاجار ، وكان أظهر ملوكها الشاه نصر الدين الذى قتله بهائى .

وفى ١٩٢١ فتح رضا خان طهران وأصبح وزير الحربية .

وفى ١٩٢٥ توج رضا شاه بهلوى ملكاً .

الى كرمان شاه : قام بنا القطار صوب بلاد العجم ؛ فقطع المسافة بين بغداد والخانقين عند حدود العراق فى نحو عشر ساعات ، وكنا نسير فى سهول العراق العادية شبه الصحراوية المهملة ، والأراضى غالبها ملك للحكومة ، ولا تزيد ملكية الأهالى على خمس مساحة العراق كلها ؛ وذلك فى ظنى أكبر سبب فى أنها مهملة ، ولاأدرى لِمَ لا تقطعها الدولة للناس كى يخدموها ويزيدوا فى موارد البلاد ، والخانقين بلدة كقرى الريف عندنا استأجرنا بها السيارات لنوغل فى بلاد العجم إذ لا يكاد يشق هضابها خط واحد لسكة الحديد ، وكان حظى أنا فى سيارة كبيرة من نوع (اللورى) ، وتلك أكثر السيارات ذُيوعاً هناك . فأخذت تسير بنا فى أرض مغضنة تزيد جبالها تعقيداً كلما تقدمنا ، وكنا نرتقى هضبة إيران تدريجاً ، وعلوها يتراوح بين ثلاثة آلاف قدم وخمسة آلاف ، وكانت مناظر

الجبال جميلة ، لولا أنها لا يكاد ينبت بها زرع ، وهى أجمل من مناظر العراق المبسوطة المملة ، ولو أعوزتها روعة الجبال المنزرعة التى تتوجها الثلوج ، على أنا كلما أوغلنا فيها زادت الشجيرات وكثرت المسايل السريعة ، وفى منتصف الطريق تعطلت السيارة وكسر محركها ؛ فنزلنا نترقب سيارة أخرى ، ولبثنا كذلك وسط تلك الصحراء الجبلية المخيفة ست ساعات حتى وفقنا إلى (لورى) عائد فنقلنا ، ثم واصل السير بنا ، ولقد بدا الفرق

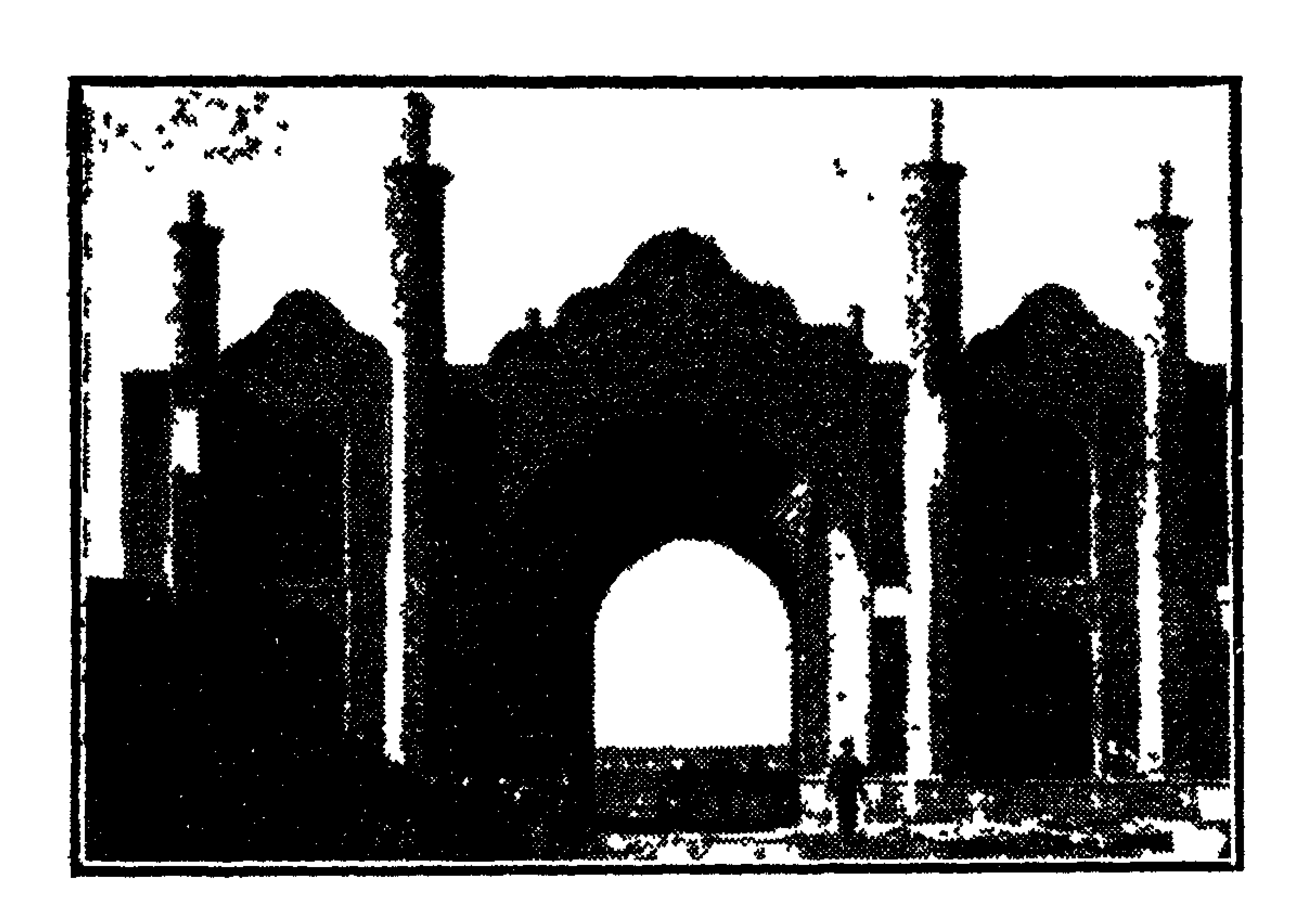


(شكل ٨٥)
آثار دارا فى طريقنا إلى همدان

جلياً بين أهل العراق الكرماء وبين أهل العجم ، فمثلاً كنت أنا الذى أدعو رفقاء السيارة إلى تناول الطعام ؛ أو المرطبات ، ولم يحاول أحدهم ذلك ، عكس ما رأيت فى تنقلاتى ببلاد العراق ، وأول ما آلمنا من أهل فارس المعاملة السيئة التى لاقيناها فى الجمرك ، حيث كان التفتيش شديداً شدة غير معقولة ، فقد أخرنا عمال الجمرك سبع ساعات فى غير ضرورة ، وكنا كلما حللنا محطة حديدة طُلبت جوازات السفر وفحصت ووقفنا ننتظر التأشيرات طويلاً وبعد تمام أربع وعشرين ساعة دخلنا :

كرمان شاه : وهى مدينة أشبه بالمراكز المتأخرة عندنا ، حللت بها نزل (فرنسا) أجمل فنادق البلدة ، والطعام فيه شرقى شهى ، ولقد مكثت فيه يومين لأستعيد قواى بعد عناء اليومين السالفين . أخذت أجول فى المدينة ؛ وإذا سيل المتسولين دافق بحيث لا تمضى دقيقة دون أن يتوسل إليك أحد طالباً الإحسان

وكثير منهم يتخذون الأمر حرفة ، وما كاد الأصيل يقبل حتى أدهشنى سيل السيدات يختلطن مع الرجال ، وهن نصف محجبات يلبسن إزاراً شبيهاً بإزار أهل العراق ، لكن النقاب شبكة من قماش أسود مقوى تقف مائلة أمام الوجه ، وما كان أشد دهشتى عندما علمت أن جل أولئك من المبتذلات ، ولعل سبب ذلك الفقر ، والعوز المالى ، وزواج المتعة المنتشر فى فارس كلها ، وضعف صحة الرجال لإدمانهم الأفيون ؛ مما جعل ألوانهم شاحبة ، وجسومهم ضامرة ضعيفة ، وقد ساعد ذلك على عجزهم حتى عن العمل ، فزاد فى فقرهم ، وفى عدد متسوليهم ، وكم كنت أرى من الشبان من لا يكاد يسير على قدميه فى تقاطيعه الغائرة ، ولونه المصفر ، وكثير منهم يبدو فى هيا كل عظمية ، وقد علمت أن الحكومة قد أباحت شرب الخمور بعد أن كانت محرمة كى يقبل الناس عليها و يغفلوا الأفيون . لكنى لاحظت الكثير منهم يدمن النوعين معاً ، وزراعة الأفيون فى بلاد فارس قديمة ترجع إلى عهد سومر و بابل منذ ستين قرناً قبل الميلاد وتنتشر فى نحو ١٨ مديرية من ٢٦ ، و يقدر إنتاج البلاد منه بنحو مليون ونصف مليون رطل ، و يعيش على تجارته خلق كثير ، فمثلاً ربع سكان أصفهان يشتغلون به وهو ثانى الصادرات (بعد البترول) ، و يصدر ثلثا محصوله بعد أن تتسلمه الحكومة لأنه حكر لها ، وقد بلغ الصادر منه سنة ١٩٣٠ بنحو ١٫١٥٠٫٠٠٠ جنيهاً ، وغالبه يصدر إلى الشرق الأقصى عن طريق سكة حديد سيبريا ، والأفيون الفارسى من أجود الأنواع فى العالم . و يستهلك ثلث المحصول فى فارس نفسها ، وجزء كبير يباع فى البلاد تهريباً ، فهو يدر على الناس ما لا يقل عن ربع مليون جنيه من الأرباح ، وتدخينه منتشر فى كل البلاد خصوصاً الجنوبية وفى طهران نفسها فمن سكانها الذين يبلغون ربع المليون أكثر من ٢٥ ألفاً يدمنون تناوله . أما فى كرمان من بلاد الجنوب فيتناوله ٢٥ ألفاً من ستين ألفاً مجموع سكانها حتى يقول الفرس وهم يمزحون (فى كرمان يدمن الأفيون أربعة أشخاص من كل ثلاثة من السكان) ورغم أن



(شكل ٨٦) باب خراسان ، و بوابات طهران القديمة تسترعى النظر بجمالها الفنى

عصبة الأمم لا تبيح أكثر من استهلاك ١٢ رطلا لكل عشرة آلاف نسمة ، ففى فارس يستهلك كل عشرة آلاف ٤٥٩ رطلا ، أى ثمانية وثلاثون ضعفاً ، ويساعد نشره هناك و يبرر تدخينه بعض الشىء أنه مورد كبير لهم ، وأن له بعض الفوائد ، فهو ينفع ضد قرصة البرد التى تصيب القرى الجبلية شتاء وقد عرفت فائدته فى التخدير ، وكان يضاف إلى لحوم بعض الأفاعى وسمى (تيريس) أو (تريا كا) ، والفرس اليوم يسمونه تريا كا والمدمن له تريا كى ، ورغم أن الحبة الواحدة منه تضر ضرراً بليغاً ، فان الفارسى يبتلع حبات عدة ولا يموت لكن ذلك قد سمم جسمه ، ومن أخطر أضراره : انحلال الجسم ، وا كتئاب الفكر ، وغباء العقل ، وهم لا يكتفون بتناوله أو تدخينه كباراً بل يعطونه مخففاً للأطفال ، فالأمهات يسقين الأطفال منقوع قشر الخشخاش لينيموهم ، ويسمونه هناك (شربات باشا) أى شراب الأطفال ، و بعضهن يضع حبة منه تحت ظفر الأصبع ويتناوله الطفل ليرضع منه وينام . أليس فى ذلك أكبر الخطر على أجيال الفرس المقبلة من الوجهة الصحية والعقلية ؛ و يبلغ من قوة تأثير الأفيون أن الحيوانات

التى تعيش فى حجرة تدخين الأفيون تعتاده فتضطرب إذا منع عنها ، فكأنه أثر حتى على حيوانهم فأضحى مدمناً ؛ والحكومة هى التى تبيعه اليوم فى أصابع تلف فى ورق وثمن الواحد قران ونصف — والقران اثنى عشر مليا — وكنت أرى رفقاء السيارة أينما سرت يدخنونه فى دواة اسطوانية مغلقة تماما إلا فى ثقب يضعون فيه نصف هذا الأصبع أو ثلثه وللدواة (مبسم) فى طول الشبر يضعونه فى الفم ، ثم يعمدون إلى قطعة من الجمر فى ملقط و يقربونها من قطعة الأفيون حتى تنفد ، ولا يصعون الأفيون فى (التمباك) أو التبغ كما كنت أظن من قبل .

ولقد كنت أعتقد أن أسوأ مايرى البؤس مجسما فى بلاد الهند التى زرتها من قبل ، ولكنى أكاد أقول بأنه هناك أشد وأنكى ، فلا تكاد تقع العين فى أى مكان إلا على من شوه البؤس أبدانهم ، هذا نائم من غير حراك ، وذاك يحمل طفلا ، وتلك تبكى فى كثرة مخيفة ، فهل خص الله تلك الجهة بذاك الفقر المميت ؟ ألق بقشرة من بطيخ أو تفاح وأنت تذعر لهجمات عشرات الناس عليها يلتهمونها ! وكنا نرى طوال الطريق الناس يحمل كل رغيفاً من الخبز يكاد يبلغ نصف قامته طولا ، والخبز هناك رقيق ممطوط كأنه الفطير يشوى على الجمر فيبدو أسمر محبباً .

الى طهران : قمت أغادر كرمان شاه تلك البلدة الفقيرة بمناظرها الغنية ببؤسها إلى طهران مسيرة ٤١٤ ك . م . بعد أن تعطلت يوما آخر ، وذلك لأن المسافر مضطر أن ينتظر السيارات المسافرة إن لم يرد استئجار سيارة خاصة وهذه تكلفه كثيراً ، وكانت السلطة العسكرية إذ ذاك تسطو على سيارات الناس لتضع فيها جنودها ومؤنها عنوة و بدون أجر وتقوم بها صوب الحدود التى كانت ثائرة هناك ، لذلك كان كثير من أصحاب السيارات يخفونها فيفتش المسافر عنها سراً حتى إذا ما تكامل عدد الركاب قامت بهم السيارة ، وفى طريقنا مررنا بآثار منقوشة على الجبل فى فتحتين ينبع من تحتهما ماء مثلوج وهى لدارا يسمونها : (طاق بستان) أو (بسيتون) و بجوارها صخر نقش بثلاث لغات منه أمكن العلماء



(شكل ٨٧) باب الجرك فى طهران

فك طلاسم التاريخ القديم على نحو ما خدمنا حجر رشيد فى مصر ، ثم مررنا بقرية (أسد أباد) الصغيرة وهى موطن السيد جمال الدين الأفغانى ، وقد لقب بالأفغانى خطأ فأثار المكان على صغره فى نفسى أجل الذكريات . وكانت سيارتنا (فورد) عتيقة بدا عليها الضعف ، فتعطلت بنا مراراً حتى انا قطعنا المسافة إلى همذان فى ثمان ساعات ، وزاد الطين بلة أن زملاء السفر بينهما اثنان ممن تأخذ الخمر بلبهما ويدمنون الأفيون ، فكلما مررنا بمقهى أو (شاى خانة) ، وتلك كثيرة على طول الطريق ، أوقفوا السيارة ونزلوا يشبعون أمزجتهم ، أما أنا فكنت أطلب الشاى يقدم لنا بدون سكر ويضع الرجل فى يدك بعض قطعه الصغيرة ، تلقى بالقطعة فى فمك وتشرب عليها الشاى وتلك طريقتهم فى شربه فى بلاد فارس كلها ، وكان من الرفقاء واحد يعرف قليلاً من العربية ، فأخذ يحدثنى عن بلاده فى نغمة المبالغة ويحاول اظهار كل شىء بمظهر الفخامة والعظمة فتعرض للتاريخ ، وأشاد بماضى فارس المجيد ، وثنى على الإنجليز والروس ، وأخذ يلعن ويطعن ويقول بأن الفرس نجحوا تماما فى طرد هذين الكابوسين وكلاهما مبغض

لجميع أهل فارس ، كذلك فهم يبغضون أهل العراق و يطمحون إلى تملك بلادهم يوما وهم جميعاً يمقتون العرب المقت كله و يتبرأون منهم و يقولون بأن العرب رغم أنهم أدخلوا الإسلام فى بلادهم واحتلوها طو يلاً ، فإن فارس حافظت على شخصيتها ولغتها ، وهم ينظرون إلى العرب نظرة احتقار و يفاخرون بأنهم من أصل آرى لا سامى ، ولعل ذلك راجع إلى أنهم يثأرون لماضيهم الذى هزه العرب يوم فتحوا بلادهم . حدث أن عرفنى هذا الرفيق بآخر لاقيناه فى نزل فى همذان وقال له بأنى مصرى أتكلم العربية ، فكان جوابه فى غير ذوق ولا أدب : إننى أمقت العرب مقتاً .

ومن مبالغات صاحبى هذا : أنه قال بأن طهران تحكى فى عظمتها برلين و باريس ، فلما جئتها لم أجدها شيئاً يذكر إلى جانب أسيوط مثلاً ، ونغمة التفاخر وحب الفخفخة طبيعة فى أهل فارس جميعاً ، ورغم أن ذلك ضعف خلق فإنه فضل من جانب العصبية القومية والاعتزاز بها .

وكنت أعجب لتلك الوحدة القومية التى كنت أشاهدها تسود أهل فارس جميعاً رغم شقة الخلاف الجنسى واللغوى هناك ، فالتقاليد الفارسية لا يكاد يكون لها وجود بينهم لكثرة الامتزاج الجنسى ، ومع ذلك كانت الوحدة القومية قو ية جداً ، وهم كالإنجليز من أكثر الشعوب اختلاطاً ، فأول من نزل بلادهم القاطنون حول بحر الخزر ، ثم دخل الآريون النورديون من شرق الروسيا ، والطورانيون المغول من غرب سيبريا منذ ٢٠٠٠ ق م ، وقد قيل إن بلاد العرب خضعت لثلاث قوى جعلت منها وحدة سياسية : اللغة ، والدين ، والتقاليد ، وهى أكبر مساحة فى الدنيا حل بها هذا ، وساعده تشابه البلاد فى الظروف الطبيعية ، أما فارس فعلى نقيض ذلك ، تقوم بها نحو ست لغات مختلفة ، تنقسم كل منها إلى لهجات عدة — وان أخذت تسود اللغة الفارسية اليوم بفضل انتشار المواصلات والتعليم والخدمة العسكرية ، فنحو ثلاثة أرباع الناس يتكلمونها اليوم — كذلك فى الدين



(شكل ٨٨)   قمة دماوند : أعلى درى فارس ، وهى بيت الله فى زعم المجوس

ترى شيعاً مختلفة هناك ، وإن كان غالب السكان من الشيعة الذين يفوقون عشرة ملايين ، ولا يزيد السنيون على ثلاثة أرباع المليون ، ويحلون نواحى كردستان ، وأذربيجان ، وبلوخستان ؛ ومن الأقليات : المسيحيون ، والبارسى عبدة النار ، والصوفية ، والبهائية التى أثرت على العقول المثقفة هناك زمناً ، وبدرجة قد تفوق أثر الإسلام ، ولقد قاومت الفلسفة الزردشتية هناك الاندماج فى العرب ، ولذلك لا يعد الغزو الإسلامى نصراً من هذه الناحية ، ويخال البعض أن سبب ذلك يرجع إلى أن جنود العرب لم يصحبوا نساءهم معهم فتزوج غالبهم من الفرس ؛ فتبع الأبناء أمهاتهم ووعوا ما لقنوهم من تقاليدهنّ الفارسية ، فخرج من ذلك نشء جديد يغاير الحاكم والمحكوم ، ويقول المستشرقون إن الفرس كانوا أرجح عقولاً وأكثر مغامرة ونشاطاً من العرب سادتهم ، ولما اجتاح بلادهم المغول عهد هولاكو وتيمورلنك استخدموا موظفين من الفرس ، وأبقوا القوانين الفارسية ، ولما جاءت أسرة الصفويين وحدت البلاد ، ولما انقضى عصرهم فى منتصف القرن الثامن عشر كانت العناصر الفارسية هى السائدة فى البلاد ، فأهل فارس وحدة

قومية قوية تفوق فى عصبيتها شعوب آسيا جميعاً ، وكثيراً من شعوب أوروبا ، والفارسى رجل اجتماعى فى مجموعه ؛ يفوق فى تلك جميع الشرقيين وأكثر الفئات ميلاً للاجتماع فى الشرق عادة الطبقات الارستقراطية الراقية فقط ، أما فى فارس فترى حتى عامة الناس والطبقات الوضيعة كذلك ، والفارسى أكفأ من العربى فى الصناعة وأقدر على إدارة الأعمال ، والظهور بمظهر الرآسة ؛ لذلك كنا نشاهد كثيراً من رؤساء البوليس فى الأفغان والعراق وفى الهند من أصل فارسى ، فالفارسى قوىّ الملاحظة سريع التعلم ، و إن مال إلى النظريات الفلسفية أكثر من ميله إلى العمليات ، وهو مرح يحب الشعر وأوتى قدرة مدهشة على استظهاره ؛ فبعضهم يحفظ ديوان سعدى وحافظ ، وقصص زهراب عن ظهر قلب ، والفرس كسائر الأمم الإسلامية ليس بينهم نظام الطبقات ، وفى تقديره للجمال يفوق الكردى والعربى والأفغانى ، وهو يخلق لنفسه السرور مما حوله من ظروف ؛ ولو كانت شديدة ، وقدرته العسكرية يؤيدها التاريخ منذ زمان بعيد .

أمضينا ليلتنا فى همدان : فى نزل جميل وتجولنا بها فى الصباح فظهرت تفوق كرمان شاه عمراناً وامتداداً تحفها البساتين اليانعة ، وارتفاعها ٦٠٠٠ قدم يشرف عليها جبل ألوند (Alvend) وموقعها جميل جذاب ، و يقولون إنها هى نفس بلدة (اكباتانا) التى نهب الاسكندر كنوزها القيمة فى عودته من الشرق ، وكان الأشوريون يسمونها هجماتانا وكانت قاعدة ملك ميديا ، و بجوارها مدفن استر (Esther ، وموردكاى Mordecai) ولذلك قدسها اليهود وأحلوها من قلوبهم محلا سامياً وهى وطن بديع الزمان و بها مات ابن سيناء .

وفى الميدان حركة هدم للقديم و إنشاء جديد وهى السنة التى يسير عليها شاه فارس المصلح اليوم ، ولذلك أحبه الناس حبا جما وزينوا دورهم ومتاجرهم بصورته ، ولا يستطيع أحد التعرض للأحزاب والسياسة ومن فعل لاقى حتفه وقد أقام من الناس عسساً على بعضهم ، وهؤلاء يجزون خيراً على تبليغاتهم والنزعة العامة



(شكل ٨٩) الاحتفال بعيد رضا شاه فى حجر دماوند

الاصلاح ورفع شأن البلاد و إيقاظها من سباتها الذى غطت فيه أجيالا .

قمنا من همدان الحادية عشرة صباحا إلى طهران ومررنا بمساحة شاسعة من سهول كثرت بها المزارع ، وفى السادسة مساء دخلنا بلدة قزوين أى بعد سبع ساعات رغم جودة السيارة ومهارة السائق ، فعجبت كيف كان القوم ينتقلون قبل مجيء السيارات — ولم تستعمل لديهم إلا بعد الحرب العظمى — كانت تنظم القوافل بالدواب من بغال وحمير لنقل الناس وجمال لنقل المتاع فكانوا يقضون فى طريقهم شهوراً متعبة ممضة وهم معرضون لخطر هجمات اللصوص ولم يكن الأمن منتشراً كما هو اليوم ، ولا نزال نرى لتلك الحيوانات بقية فى كل مكان خصوصاً فى الريف ، والقوم جميعهم مهرة فى ركوب الخيل فهى مطيتهم الرئيسية إلى اليوم ، والحق أن السيارات تلعب دوراً هاما فى تطور البلاد يشتغل بها نفرعديد ، وأينما حللت وجدت (الجراجات) تلحق بها (المسافرخانات) لنزول المسافرين ، وقزوين بلدة صغيرة ولكنها أجمل من همذان لأنها كانت يوما ما عاصمة الشاه عباس يسترعى النظر بها دار النظمية فى بواباتها الشامخة يزينها القيشانى الأزرق البديع

وآى الذكر الحكيم ، كذلك مسجدها الجامع بقبته الزرقاء الجميلة ، وقد أقام الصلاة فيه خالد بن الوليد والحسن بن على الذى كان يصحبه فى الفتح الاسلامى وكثير من أحياء البلدة قديم أقيم فى سراديب ضيقة محجبة عن وهج الشمس ، وبخاصة الأسواق الملتوية ، وقد لاحظت جودة الطرق ورصفها على جانبى همدان وعلمت أن الفضل فى ذلك يرجع للانجليز والروس إبان الحرب ، فكل فريق كان يخشى الآخر الروس زاحفون إلى همذان من الشمال والانجليز من الجنوب . واصلنا سيرنا صوب طهران وسط الربى الجافة ، وفى بلدة كرج التى تبعد عن طهران بساعة واحدة عجز السائق عن السير وقد دارت رأسه ولعب الأفيون بعقله ، فأصر أن ننام ليلتنا هناك فخضعنا لأمره ، وفى الصباح كانت البلدة وسط مزارع غنية وشجر كثيف ، وهى من أشهر الأراضى الزراعية فى إيران كلها ، لذلك أقيمت بها مدارس الزراعة ومصانع لسكر البنجر الذى يزرع حولها ، وفى ضحى الخميس ٣ أغسطس دخلنا :

طهران : فأخذنا نمر وسط بلدة مخربة متهدمة من أثر معاول الاصلاح الجديدة التى بدأت تحاول القضاء على القديم ، وتقيم العمران على أحدث نظام ، فالطرق زيد فى اتساعها ، وبدئ فى رصفها بالأسفلت بعد أن كانت بقطع الحصى ، والمبانى الشامخة أخذت فى الظهور بعد أن كانت أقبية وطيئة مغلقة وكانت تبدو على بعد جبال (دماوند) أعلى ذرى فارس (١٩٫٤٠٠ قدم) وأروعها تكسوها عمائم الثلج الأبيض الوضاء ، وخلف القمة تمتد جبال البرز و بلاد طبرستان القديمة . حللت بها نزل (جراند أوتيل) من أكبر فنادقها فى شارع (لالزار) أحدث الطرق التى تم تنسيقها عندهم ، ثم طفت بأرجاء البلدة فراقتنى بواباتها العالية المزدانة بالقيشانى والنقش البديع وهى من أخص مميزات طهران أذكرتنى بعاصمة الصين : بكين و بواباتها . أما أسواق البلدة فحدث عن جاذبيتها شعابها لا تدخل تحت حصر وكلها مغلقة بالأقبية وجماهير الناس بها متلاصقة وأصواتهم لا تخبو قط ،



(شكل ٩٠) أمام باب بهلوى الحديد وشتان بين الفن القديم والحديث

وغالب البيوت ذات مدخل مزركش بالقيشانى يؤدى إلى فناء يتوسطه حوض ماء كبير يغتسل فيه القوم و يغترفون مايحتاجون من ماء والحجرات تطل على الفناء فى مربع ذى شرفات جميلة و يغلب أن تزينه حديقة بسيطة ، والفرس مشهورون بميلهم للحدائق مثل اليابانيين و إن أعوزها التنسيق وكمال الذوق ، وبالمدينة عدة مساجد فارسية الهندسة قصيرة المآذن نحيلتها ، والمقاهى هنالك قليلة بالنسبة لما رأيته فى العراق ، وأحب وسائل اللهو دور السينما ، والنساء نصف سافرات يلبسن الأزار المهفهف وعلى الوجه ظلة مخرمة أفقية ، وقليل من لبس الزى الافرنجى . وهن أكثر حرية من نساء العراق ، وجمالهن فائق لولا طول الأنوف وتحديبها ، والمبتذلات منهن هالتنى كثرتهن حتى علمت أن فى طهران وحدها من أولئكن ثلاثين ألفاً حسب الإحصاء الرسمى ، وهذا بلاء زواج المتعة المنتشر هنالك ، ولعل للأباحة الروسية الممقوتة التى أدركت البلاد زمناً أثرا فى ذلك الانحلال المشين مما أذكرنى بالصين ، وهى هنالك تعزى إلى انتشار العوز والاباحة الروسية ، و يقينى أن همة الشاه العظيم كفيلة بمحو تلك الوصمة من جبين الدولة الفارسية .

قمت يوم الجمعة متعباً ، لأن شدة الحر لم تمكنى أن آوى إلى مضجعى إلا فى ساعة متأخرة من الليل ، والجو هنالك أميل إلى الحرارة . لكنه أرحم بكثير من بلاد العراق ، والسماء تغشاها الغيوم المتقطعة مما يخفف من وهج الشمس بعض الشىء ، خرجت أجوب أرجاء البلد ؛ وإذا المدينة هادئة الحركة ، مغلقة المتاجر ، لأن يوم الجمعة هو يوم العطلة العامة ، وغالب أصحاب الأعمال يحترمونه فيوقفون

أعمالهم ، والناس هنـاك أنظف من أهل الريف و إن كثر بينهم المتسولون كثرة مروعة ، فالتسول والفقر فى فارس آفة مهلكة . و إن وجد من بين الفرس أفراد مفرطون فى الغنى ، ومن العادات المنفرة بينهم جميعاً : التجشى ، والبصق ، والتمخط أينما وجدوا ؛ وحتى المهذبين منهم ترى الواحد لايمسح أنفه بمنديله ، بل يضغطه بين إصبعيه ، وينفر نفرة تشمئز لها النفوس ؛ على أنهم مؤدبون تسمعهم يرددون (خيلى ممنون)

(شكل ٩١)
إبداع الفن داخل مسجد سپاه سالار بطهران

ومعناها : (عظيم الشكر) دائماً ، و إن أرادوا الاستفهام ، أو النداء ، أو الرضى بما يقال صاحوا قائلين (بلى) بامالة اللام فى رقة وأدب ، و يبدأك الكبار بقولهم (سلام عليكم) والصغار بقولهم (سلام) فقط سواء أعرفوك أم لا ، وأزياؤهم اليوم تكاد تكون موحدة ، فكلهم يلبسون الحلل الافرنجية وعلى رؤوسهم القبعات (البهلوية) وهى المميز الواضح لهم جميعاً ، ولا تكاد ترى للزى القديم اليوم من أثر وهو العمامة (أو القاووق) والعباءة من الصوف ، وقد استثنى الشاه من ذلك رجال الدين يظهرون فى عمائمهم السوداء وقليل ما هى .

ويخيل إلىّ أن مستقبل طهران بل و إيران كلها سيكون عظيماً بفضل مجهود الشاه الحالى ، فهو يريد أن يرى بلاده تناظر فى القريب بلاد الغرب رونقاً ورواء ، لذلك أخذ يهدم القديم و ينشئ الحديث بسرعة عجيبة فى كل البلاد ،



(شكل ٩٢)   عرش الطاووس الذى سلبه نادر شاه من الهند
فى قصر جولستان فى طهران

ولقد أعاد لبلاده هيبة فى قلوب الأجانب انتزعها منهم انتزاعاً ، وقد كان مركز البلاد مهدداً باعتداء الروس من الشمال ، والإنجليز من الجنوب ، وزاد ذلك الخطر منذ سنة ١٩٠٦ حتى كانت الحرب الكبرى فتقدموا داخل البلاد بحجة مطاردة الأتراك ، ولما أن انسلخت الروسيا عن الحلفاء خشيتها انجلترا واحتلت بلدة (قزوين) وما جاورها : خصوصاً وقد نشطت حركات البلشفيك عند بحر الخزر وفى أذربجان . وأخذت شروط ولسون تلعب بلب الناس فى فارس تحت زعامة رضا خان ، فعرض الروس تنازلهم عن معاهدة ١٩٠٧ . واستعدادهم للتنازل عن جميع الامتيازات التى كانت للروسيا فى فارس ، وفى يونية سنة ١٩١٩ قدم ممثل السوفيت فى فارس التصريح التالى :

(١) التنازل عن الديون الروسية فى فارس .

(٢) التنازل عن التدخل فى شؤون فارس .

(٣) إلغاء الامتيازات والمنح الروسية هناك .

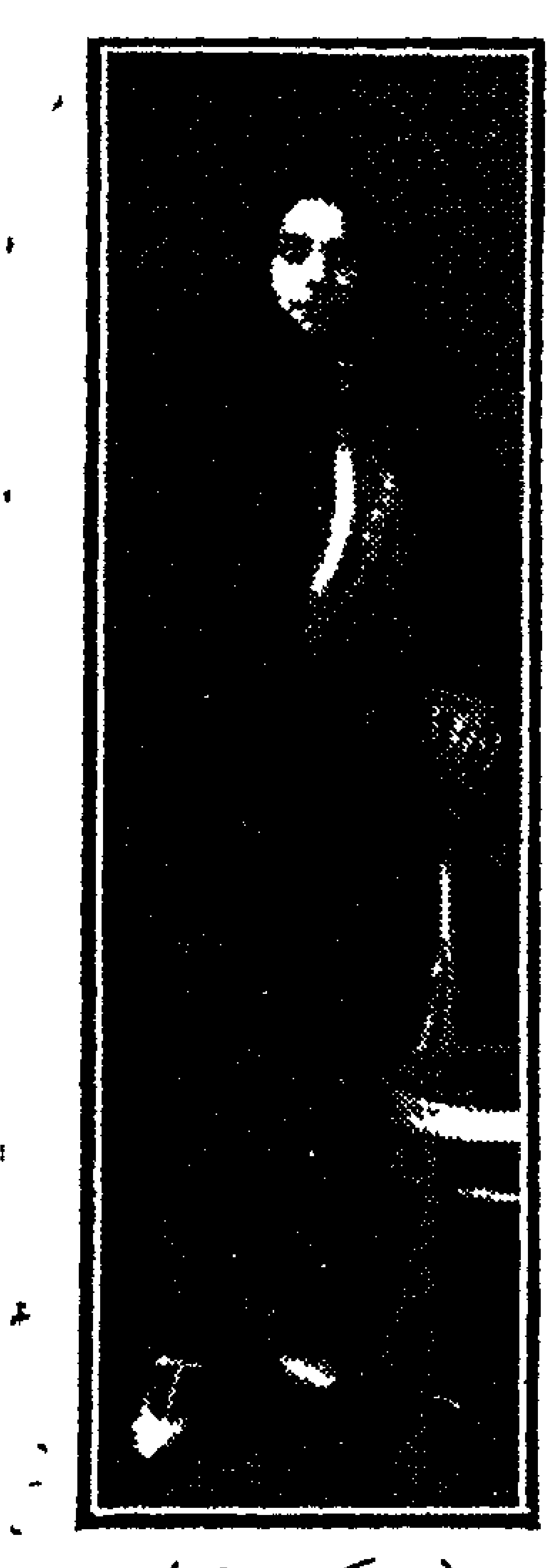


(شكل ٩٣) مثل من الحفلات الراقصة القديمة فى قصر الشاه

(٤) التنازل عن البنك الروسى فى فارس .

(٥) ترك الطرق والسكك الحديدية الروسية للحكومة الفارسية .

(٦) تنازل الروس عن كل أملاكهم هناك ، وكان غرض الروسيا من ذلك احراج انجلترا ، ولقد اعترفت روسيا باستعدادها لمساعدة فارس عسكرياً ضد أى اعتداء وجعل بحر الخزر بحراً حراً لها ، وبذلك أضحت العلاقة بين الدولتين وثيقة جداً لكن العلاقة ضعفت قليلا لما حاولت الروسيا بلشفة فارس وكانت على وشك الزحف لولا أنها خشيت انجلترا من الجنوب ، وكان الفرس مهرة فى انتهاز الفرص ، وأتاحت لهم الظروف قائداً عظيما مخلصاً (هو رضا خان) من عائلة متوسطة حارب مع الروس وأحبه جنوده فزحف بهم على طهران سنة ١٩٢١ وأصبح القائد العام ووزير الحربية ، وفى اكتوبر سنة ١٩٢٣ أضحى رئيس الوزراء ، ثم اعتلى العرش فشابه مصطفى كمال فى أنه رجل سياسة ورجل سيف معاً وهو محب للنظم الأوربية لكن يظهر أنه كان أحكم من مصطفى كمال لأنه أدخل اصلاحاته دون أن يغضب رجال الدين ، ووجه أول اهتمامه لاصلاح


(شكل ٩٤)
مسند لاجمان الفارسى

حيش فأعد جيشاً محترما من أربعين ألف مقاتل .
وبينا السلطان أحمد شاه يتريض فى الرفييرا كعادته قام رضا خان وكاد ينتخب رئيس الجلس لكنه قال بأن النظام الجمهورى يتنافى مع أصول الدين الإسلامى فتوج ملكاً سنة ١٩٢٥ ، وأجلس على عرش المغوليين فى قصر جولستان ، وكان قد اغتصبه نادر شاه من الهند قديما ، ثم عدل الدستور ، وتم ذلك دون إراقة قطرة دم واحدة ، وأخذ تواً فى إعادة النظام وأصلح الضرائب والمالية بمعاونة بعض الأجانب من أصدقائه ، وفى ١٩٢٨ فتح البنك الملى (الأهلى) ووطد علاقاته السلمية مع جيرانه ، وفى ١٩٣٢ أصبحت بلاده عضواً فى عصبة الأمم . وطالبت بما يأتى :

(١) إلغاء اتفاق الروس والانجليز سنة ١٩٠٧ وإلغاء المحاكم القنصلية والحرس القنصلى .

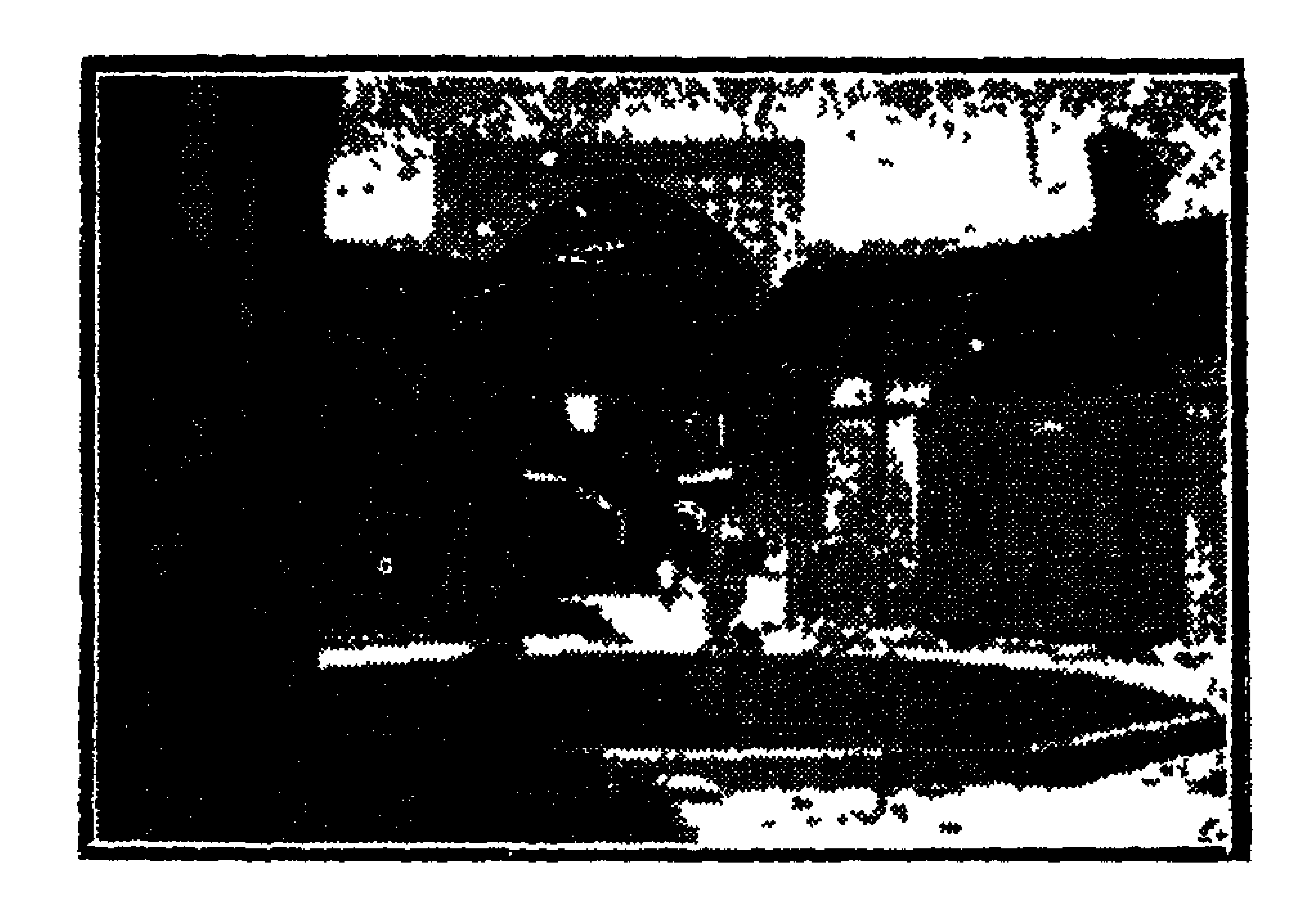
(٢) تعويض عن المناطق التى خربت خلال الحرب وإلغاء المنح لمالية لتستقل البلاد ماليا .

(٣) تثبيت الحدود الفارسية ، لكن الانجليز اشترطوا أن تتعاون فارس مع انجلترا وأن تقبل مستشارين منهم ومدربين للجيش الفارسى فكان رد الشاه على ذلك الرفض فى إباء والتهديد بالحرب فكأنهم اعتمدوا على نفوسهم وأزاحوا الكابوس الأجنبي ، وألغوا الامتيزات التى كانت تفت فى عضدهم . وأضحى بغضهم للأجانب شديداً ؛ وبخاصة الإنجليز . ونشأ شعب فارسى يتصرفون

فى كل ماله علاقة بالأجانب فى شدة وصرامة لا تقبل هوادة . بلغنى أنه حدث مرة أن أحـد الألمان زار طهران ، ولما عاد لبلاده كتب نقداً لفارس عموماً ؛ ولاستبداد الشاه خصوصاً ، وكانت الكتابة ماسة بكرامة البلاد ، فعرض سفير الفرس فى برلين الأمر على القضاء فحكم ببراءة الكاتب ، وبمجرد وصول الخبر لمسامع الشاه أصدر أمراً بالاستغناء عن جميع الموظفين من الألمان فى بلاد فارس كلها — وقد كان جل الخبراء الأجانب الذين تستعين فارس بخبرتهم من الألمان والفرنسيين — فكانت تلك مباغتة قاسية عاد الألمان يصلحون مركزهم بعدها من جديد ، وقد لاقانى عالم ألمانى فى مشهد : (الدكتور باسوقتس) ، وهو ممن يقومون هناك بإصلاح ذات البين ، وإرجاع المركز الألمانى لما كان عليه لدى الشاه . تصرف حازم يدل على مبلغ احترام القوم لأنفسهم والمحافظة على قوميتهم .

دهشت كيف تكون بلاد كهذه نحن نفوقها فى التقدم بخطى واسعة قد تحررت من الامتيازات الأجنبية ، ونحن نرسف فى أغلالها ؟ أليس الأمر مجرد جرأة فى الإقدام على إلغائها فى غير تردد فنحفظ بذلك كرامتنا وندل على أنّا شعب جدير بالاحترام ؟

بعد أن اطمأن لإلغاء الامتيازات وعدم تدخل الأجنبى ، بدأ بإصلاحاته الداخلية ، فمن الوجهة المالية اتخذ الذهب معياراً للنقود ؛ بعد أن كانت الفضة من قبل . وجعل التجارة الخارجية احتكاراً حكومياً ليقاوم زيادة الواردات ، ومنع دخول الفضة بتاتاً ، وعدل الضرائب ، فبلغ الدخل خمسة ملايين جنيه . يضاف إليه ضريبة السكر والشاى ، وهى حول مليون جنيه ، وضريبة الطرق حول ستمائة ألف جنيه ، وضريبة البترول ، وهى ١١٥١٩٧٩ جنيها ، وقد نفذت ضريبة الدخل — ولا نستطيعها نحن خوفاً من الأجانب — منذ إبريل سنة ١٩٣٠ وتشمل ٣٠٪ من أرباح الشركات ، وبين ١ و ٣٪ ممن زاد دخلهم على ٥٠٠ تومان (والتومان اثنى عشر قرشاً) والجمارك أهم موارد الدخل



(شكل ٩٥) لا يخلو بيت من أحواض الماء فى فارس
ويرى هذا الحوض وسط سوق طهران والرجل يغتسل منه

العام وهو ينفق على الجيش ٤٤٠/٠ من مجموع الدخل .

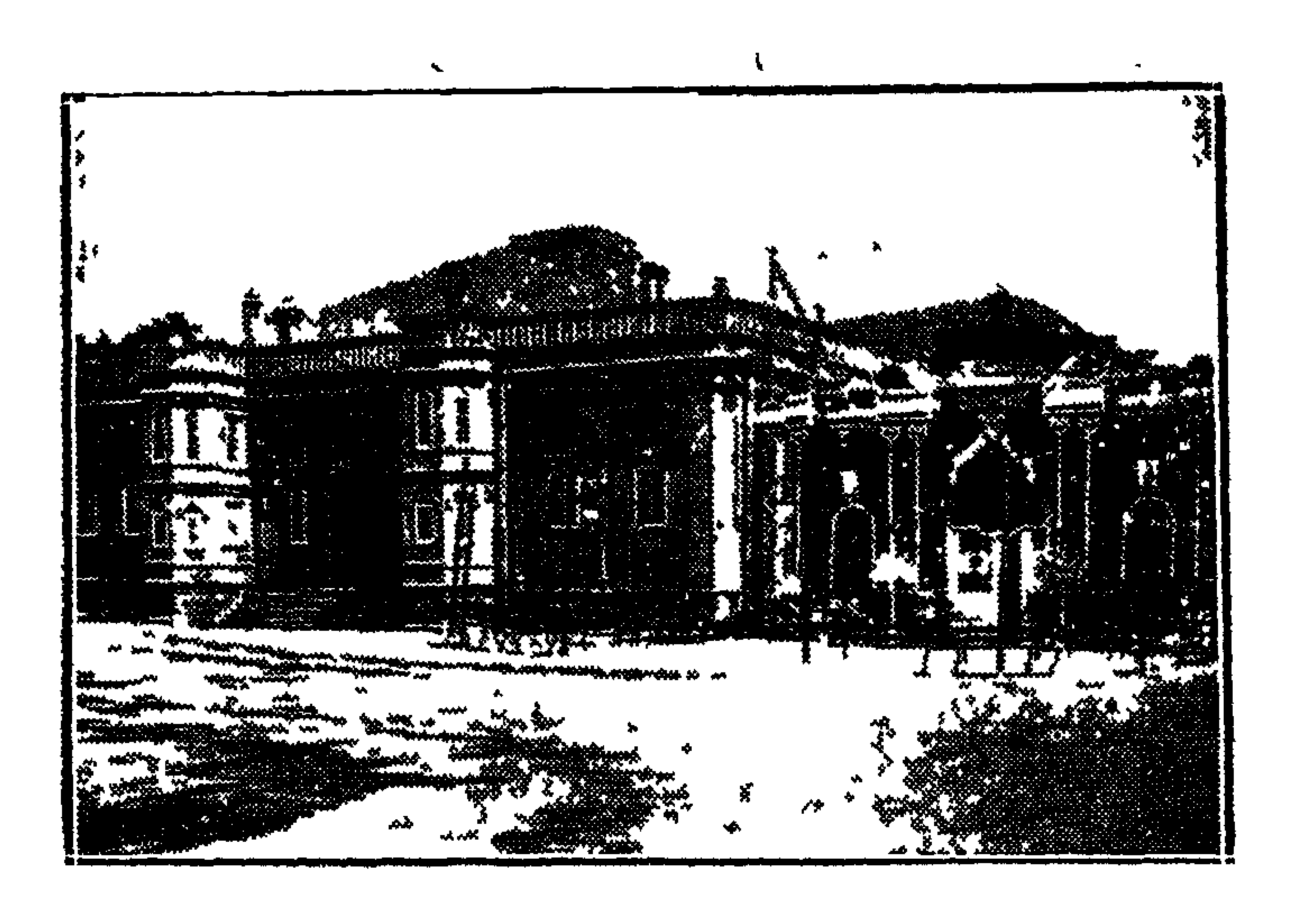
ولقد بدأ إصلاح الجيش بمعاونة مدربين من السويد ، وفى سنة ١٩٢٦ جعل التجنيد إجبارياً ، فخريجو الجامعة لابد أن يخدموا فى الجيش سنة واحدة ، وطلبة المدارس الثانوية سنة ونصفاً . ومن يعولون أسرة يخدمون أربعة شهور ونصفاً ، ويشرف على وزارة الحربية الشاه نفسه ، ومجموع الجيش النظامى اليوم كامل العدد ثمانون ألفاً ويحاولون إبلاغه مائة ألف ، وفى طهران مدرستان حربيتان يدخلهما الحاصلون على الشهادة الثانوية فضلا عن البعوث الحربية الكثيرة إلى ألمانيا وفرنسا ، وقد بدئ نواة الأسطول البحرى والجوى ، والحربية غير مسئولة أمام البرلمان بل أمام الشاه وحده .

أما فى التعليم فقد عمم المدارس القروية ومدتها أربع سنين ، ومدارس المدن مدتها ست . ثم المدارس الثانوية ست أخرى وبعدها المدارس العليا ؛ وهو يحاول جعل التعليم إجبارياً ، وأهم ما يرمى إليه التعليم هناك الاعتزاز بالوحدة القومية ، وتمجيد ماضى البلاد وتثقيف العقل والجسم والتربية الدينية .



(شكل ٩٦)   بعض الأحياء القديمة فى طهران

ويعنى الشاه اليوم بالطرق العناية كلها . حقاً شهر الفرس بذلك من زمان بعيد حتى قيل إنهم أول الأمم فتحاً لها ، فقد عبدوها منذ سنة ١٧٠٠ ق . م ، وكنا نشاهد بعض أطلال من القناطر والجسور القديمة لا تزال باقية ، ولقد كانت شهرتهم تفوق فى الطرق شهرة الروم ، ولقد كان النقل إلى الحرب الكبرى بالدواب ، لكن تدخل الإنجليز والروس ساعد على العناية بالطرق وربطت أطراف البلاد بالسيارات ، كذلك شجعت الظروف الحربية إقامة المطارات ، وقد تسلمها الفرس اليوم ، وبفضل العناية بالطرق زاد نفوذ الحكومة المركزية ورخصت أجور نقل السلع التجارية ، وخفت ويلات المجاعات ، وقد أمن الشاه تلك الطرق بإقامة المخافر على امتدادها فى فترات قصيره وحتى وسط الجبال المقفرة التى لا يقطنها أحد إلى ذلك الاكثار من (المسافرخانات) أو (كرافان سراى) فى كل مكان ، ومن أول ما يشغل اهتمام الشاه السكة الحديدية التى يفكر فى نشرها جدياً ، وقد بدأ العمل فى وصل البحرين : الخزر والخليج الفارسى بخط حديدى لكى تستقل البلاد عن جاراتها فى أمور النقل والتجارة ، وهو ماض فى



(شكل ٩٧) دار البرلمان فى طهران

مدها رغم كثرة الصعوبات التى تواجههم كرداءة الثغور فى البحرين وكثرة الجبال فبين طهران و بحر الخزر مالا يقل عن ٢٥ ميلا من الانفاق ، لذلك ستكلفهم السكة عاليا ، و يرى المعض أنه يفصل مد الخط بين طهران و بغداد ، ولم يقبل الشاه أن يعرض الأمر على شركات أجنبية بل يعتمد فى النفقات على ضرائب السكر والشاى التى تزيد وحدها على مليون جنيه كل عام ، ويخال بعض الاقتصاديين أن فى ذلك خطراً على ثروة البلاد وتعطيلاً لأموالها التى هى فى حاجة إليها فى أمور أخرى ، على أن ما قاسوه من عبء التدخل الأجنبى الممقوت جعله ينأى ما استطاع عنهم وعن رؤوس أموالهم .

على أن البلاد ينقصها الشىء الكثير ، من ذلك الشئون الصحية والعناية بها ، فمياه الشرب مثلا من مشكلات هناك حتى فى طهران نفسها . فهم اعتادوا من زمان بعيد أن يتعقبوا منابع العيون ويخضعوها لحفائر تسير منها سراديب إلى أحواض تختزن فيها وكلما طغت سال الماء الزائد إلى المجارى التى تسقى البلدان وتراها تجرى على جوانب الطرق مكشوفة لكل عابث . فترى هذا يغتسل و بعده

آخر يسقى ، ثم ثالث يبصق ، ورابع يلقى بالماء القذر فيها ، وقد شاهدت فى طهران قوما يغسلون وجوههم من ماء يجرى بعد أن غسل به الطريق ولما وقفت مدهوشاً قالوا أليس ماء جاريا ؟ لذلك يشترى غالب الأجانب ماءهم من السفارة الانجليزية التى أقامت لها مضخة ومرشحاً خاصاً ، فليس بمستغرب إذن أنك ترى الأمراض منتشرة و بخاصة الجدرى الذى يشوه وجوه الكثير وتشويه العيون والقرع منتشر حتى بين الطبقة المثقفة ، فيندر أن ترى رجلا من الطبقات الفقيرة سليم الرأس ، و يزيد ذلك سوءاً عدم صرف القاذورات ، فكثير من بيوتهم تخلو من (الأدبخانات) وغالبهم يقضى حاجته فى الخلوات و يغتسلون على مجارى المياه التى يستمد منها غيرهم ، والأطباء هناك قليلون ولذلك كان متوسط المتاع الصحى فيمن تتراوح سنهم بين ٢٥ و ٥٠ سنة أقل من نظرائهم فى البلدان الراقية بعشرة أضعاف .

الى خراسان : اعتزمت القيام إلى أرض خراسان حيث مقر الامام الرضى أحد أئمة الشيعة وابن الامام موسى الكاظم فى بغداد وضريحه فى مشهد ثانية مدن فارس وأولى البلاد المقدسة فهى كعبتهم تبعد عن طهران مسافة نائية هى فوق مائة وستين فرسخاً ، والفرسخ وهو وحدة قياس المسافات عندهم نحو ستة كيلومترات أعنى نحو أنف كيلو متر أو يزيد كان القوم يقطعونها على متون الإبل والبغال والحمير فيما بين أربعين يوما وستين ، وهى بالسيارات اليوم بين يومين وثلاثة . أخذت مكاناً أمامياً فى سيارة كبيرة من ذوات العجل المزدوج برفقة ركب من الحجج يناهز الخمسة والعشرين عدا بين نساء ورجال وشيوخ وشبان و بدأنا السير ليلا وكلهم إيمان صادق لا يبتغون من وراء كلفهم تلك ونصبهم هذا إلا زيارة قبر الامام ومعهم زادهم ، أما أنا فكنت أعتمد على المحاط وما فيها من وسائل ساذجة للنوم والطعام ، و بين آونة وأخرى كان يصيح الجمع فى ابتهال قائلين : (لاهم سل ألى مهمد آلى مهماد) .

وأخذنا نمر بالمحاط التى يسميها القوم مسافرخانات أو كرفان سراى ، وهناك نجد أمكنة تحكى الخان بها حجرات فقيرة الأثاث وغذاء بسيط كنا نتزود منه ونأخذ قسطاً من الراحة ثم نستأنف السير ، ولم تكن تقوى القوم لتنسيهم ملاذهم فقد كان الفريق الأكبر منهم يحمل الغلايين لتدخين الأفيون فينتحون جانباً من المكان ويمر الغليون عليهم جميعاً ، وكان فى جوارى إلى جانب السائق أحد علماء كربلاء بعمامته السوداء الضخمة ولحيته المرسلة وسحنته الناحلة وكان يتيه على الآخرين بعلمه وبأنه من سلالة هاشمية ومن نسل العلم والعلماء ، ولأولئك على الناس حق العطاء ويسمونه (حق الخمس) يقصدون الأغنياء كلما أعوزهم المال ليأخذوا منهم حقهم هذا لأنهم من السادة سلالة الرسول ، ولما علم الشيخ بأنى سائح سأكتب عن رحلتى قال لى أكتب عنى (أنا العلامة حجة الإسلام وفخر الملة والدين السيد . . . .) على أنى لما تحدثت إليه لم أجد من علمه ما يؤيد تلك الألقاب إلا أنه رجل طيب القلب وديع الخلق كريم الطبع .

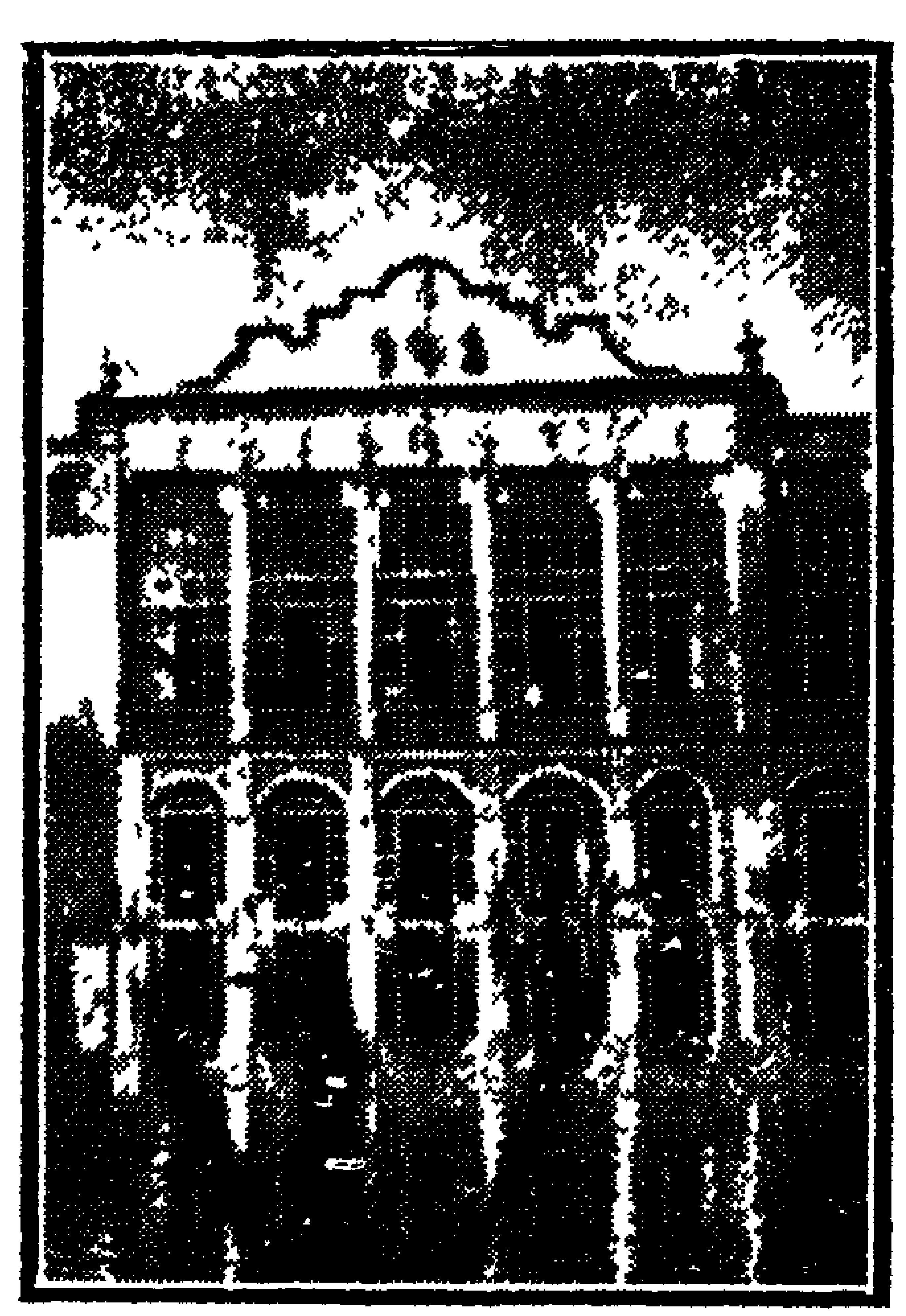
(شكل ٩٨)
دار المفوضية المصرية العامرة فى طهران

جد السائق فى السير على ضوء القمر وقبس مصباحه فخانه نظره ولم نشعر إلا والسيارة تنحدر بنا عن الطريق وتنزل هوة من دونها وادى سحيق ، فكادت تنخلع لرجاتها قلوبنا وصاح الجميع وارتطم هذا بذاك وذاك بجانب من السيارة ، ثم

كانت صدمة عنيفة وفرقعة أصمت آذاننا وإذا هى صخرة كبيرة ناتئة فى منحدر الوادى توقف السيارة قبل أن تنقلب وقد أصيب من الركاب كثير، ونالنى من ذلك شج بين العينين سال منه الدم سيلا ، وصدمة شديدة فى الركبة اليمنى أحدثت بها كسراً لا أزال أعانى منـه ، فقفزت من السيارة ونمت على الصخر تائهاً حتى الصباح حـين رأيت العجلة قد كسرت من أساسها ، ولولا لطف الله لـكنا اليوم فى عالم غير الذى نحن فيه . أمضينا يوماً كاملا فى تلك البرية المقفرة ولم يكن لدى زاد ولا قوت فتباغت بكسرة أعارنيها أحد الحجاج حتى عاد السائق ومعه بديل عما كسر ، وكان قد رجع إلى طهران ثم عاد إلينا وأصلح ما أفسدت غفلته واستأنفنا سـيرنا حامدين شاكرين الله أن أنجانا من خطر الموت فى تلك الناحية النائية ، وكم من سيارة خانها الحظ العاثر فهوت وهلك من ركابها الـكثير فى تلك الطرق الوعرة . ولقد عزا القوم سلامتنا إلى رضى الامام عنا ، وما كدنا نسير بعيدا حتى وقفت السيارة فجاءة وتبين أن البنزين قد نفد ولم يكن لدينا منه شىء ، فلبثنا مكاننا حيارى ساخطين جزعين أربع ساعات حتى مرت بنا سيارة أخرى أعارتنا بعض البنزين ، والسيارات الـكبيرة تمر تباعا ذهاباً ورجعة فى كثرة هائلة كلها تحمل جماهير الحجاج ، ويقولون بأن هذا الخط على وعورته أكثر البلاد حركة فى نقـل المسافرين لأن مشهد خير لديهم من مكة المـكرمة تغنيهم عن بيت الله الحرام فى زعمهم ، فترى الفانى منهم والفقير المدقع يدخر أجر السفر ليصل إليها ، ويود لو يموت بها ليدفن فى أرضها الطاهرة .

لبثنا نسير وسط الربى وصعدنا ما هو بالغ الوعورة فى طرق لياتها المتعاقبة من الأعاجيب وكلها مجدبة عريت عن النبت إلا فى بعض بطون من الأودية حيث كنا نرى سيلا من المـاء يتلوى ، وتقوم القرى على جوانبـه بأبنيتها الوطيئة من الطوب واللبن ، وبعـد يوم ونصف دخلنا سهولا غالبها صحراوى ، وتلك بداءة أرض خراسان التى بدت أكثر جدبا من سابقاتها ، ومن البلدان الـكبيرة التى

مررنا بها (سمنان ودمغان وشاروت وسابزوار) ثم نيسابور وكلها كمراكز الصعيد عندنا حولها تكثر البساتين والمزارع ، وعجبت لأنى رأيت القطن يزرع هناك بكثرة ويؤتى محصولاً لابأس به ، وقد أقاموا له بعض المصانع التى تستهلك غالب الخام ، وقد بلغنى أن ثمنه قد انتعش وأنا هناك فبلغ ١٢٠ قرشاً للقنطار بعد أن هبط هبوطاً مخيفاً ، وزراعة الحبوب خصوصاً القمح والشعير منتشرة فى كثير من



(شكل ٩٩) فى لوقنطة
وهو مثل من القصور الفاخرة القديمة

بلاد فارس خصوصاً خراسن ، وقد يزيد المحصول على حاجة الناس لكن رداءة طرق المواصلات وغلوها توقف تصديره وتجعله كثيراً رخيصاً فى بلد وشحيحاً غالياً فى مكان آخر أهله يتضورون جوعاً ، لذلك اضطرت الحكومة أن تحتكر الحبوب فى بعض الجهات ، وهى تتقاضى ضرائب الأرض حبوباً فى بعض الأحين وبذلك حفظت أثمان الحبوب عند حدها المعقول ، وقاومت المجاعات التى كانت تفتك بالناس من قبل فتكا ذريعاً ، وقد أقامت مخازن القمح فى البلدان الكبيرة لمقاومة ذلك ، والعادة أن الناس هناك يأكلون خبز القمح ممزوجاً بالشعير أما فى مناطق الشمال على مقربة من بحر الخزر فالأرز عمادهم ، ومن النبت الكثير النمو هناك الطباق والفاكهة والتوت لتربية دود القز . ويزرع قصب السكر حول بحر الخزر ، والبنجر فى جهات عدة ، فالزراعة الآن هى عماد البلاد : والصناعة



(شكل ١٠٠)
سنستريح قليلا فى إحدى (المسافرخانات) التى تنتشر فى غالب طرق العجم

فى بدئها ، وتحاول الحكومة رغم فقرها إقامتها مقتفية أثر اليابان فى ذلك خصوصاً مصانع النسيج وتجفيف الفاكهة والسكر ، ولا يزرع من أراضى العجم أكثر من عشرها فقط ، وفوق نصف المساحة كلها لا يصلح حتى للمراعى الفقيرة إذا فرضنا أن رأس الغنم يحتاج إلى ثلاثة أفدنة فقط ، أما الأغنام ذوات الذنب المنتفخ الغليظ الذى يزيد وزن الواحد على ثمانية عشر رطلا أواخر الربيع ، فيلزم للرأس منها عشرة أفدنة فى العام ، ومع ذلك ترى الأذناب ضامرة جداً فى فصل الشتاء وكنا نرى من هذه الكثير فى سيرنا ، والرعاة ربع سكان العجم وهم طبقة مغيرة يخشى بأسها و بخاصة أهل خراسان ، ومثلهم مع المزارعين مثل الذئاب مع الحملان والأراضى غالبها فى ملكية طائفة قليلة من الملاك ، لكنهم يحسنون معاملة المستأجرين لقلة الأيدى العاملة ، والملاك هم الذين يقدمون الماء والبذور ويدفعون الضرائب مقابل استيلائهم على نصف المحصول ، والزراعة على قلتها عماد ثروة البلاد رغم أن المزارع يغالب الطبيعة القاسية .

فمطر البلاد نادر وثلجها لا يسقط إلا فى الشتاء والربيع ، و بفضله أمكن الزرع ولما كان المطر غير ثابت أثر على الينابيع والمجارى فى الجهات الخصبة ، لذلك لا تكاد



(شكل ١٠١) فى خيابان بهلوى أكبر شوارع مشهد إلى جوار صديق السورى

تزرع الأراضى الصالحة إلا مرة كل خمس سنين فى المتوسط ، ويخال البعض أن طريقة الزراعة (البعلى) تفيدهم كثيراً لو لجأوا إلى استخدامها .

وحالة الفلاح هناك لا بأس بها يسكن بيوتاً من الطين وغذاؤه القمح والجبن واللبن الحامض ويسمونه (دوك) وفى الصيف يستهلك قدراً كبيراً من الفاكهة والخضر ، أما اللحم فمرة كل أسبوع فى الشتاء فقط . وأحسن الطبقات حالاً التجار وهم معروفون بالمكر والدهاء حتى جرى المثل قائلاً : أرمنى واحد يغلب عشرة من الأغريق ، لكن فارسياً واحداً يلعب بعقول عشرة من الأرمن .

استوقفت السيارة قليلاً فى نيسابور مثوى رفات (عمر خيام) الذى عاش فيها فى الربع الأخير من القرن الرابع عشر ، وأوصى أن يدفن فى بقعة تظلها الأشجار ويكسوها ورقها الذابل مرتين فى كل عام . زرت قبره وسط الحقول تظله حقاً أدواح عالية قديمة ، وبجانبه قبة أنيقة عنى بإقامتها ونقشها العناية كلها فخلتها له وإذا هى مدفن محمد المحروق من سلالة الحسين . وقد أسموه بمحروق لأنه نزل ضيفاً على أحد سراة القرية ولما أن خيم الليل اعتدى على بنت مضيفه فأحرقه الناس فى مكانه هذا ، ورغم جرمه هذا شيد قبره وقدسه الناس لأنه من

سلالة طاهرة ! ويزور الخيام من الأجانب خلق كثير لأنه قد خلد ذكراً بما كتب فى رباعياته التى ترجمها الناس إلى جميع اللغات ، ولقد أبى عليه علماء الدين تشييد مدفنه لاتهامهم إياه بالزندقة لأنه كان إباحياً فى شعره ، والحكومة تنتوى إقامة بنيان يليق بمقامه ، لكنها لا تزال تخشى غضب رجال الدين . عادت الربى فتسلقناها ثم أشرفنا على مشهد وهى فى حجر الجبال بعد أن لبثنا فى الطريق ثلاثة أيام وأربع ليال كاملات قاسينا خلالها كثيراً . هنا وقف السائق ونبه القوم أن ها هى مشهد فارقبوها تبركا ، فأخذوا يحاولون رؤية القبة وسط الضباب والدخان المنبث ، وكل من لمح منها قبساً قرأ آيات التبريك وعمد إلى قطع الأحجار يجعلها فى كومة ثم أقبل على السائق يهبه من أنعامه ما تيسر .

مشهد مقدس : (طوس قديماً) دخلنا مشهد تحفها المزارع والبساتين وهى فى منطقة غنية بالفاكهة و بخاصة العنب و يسمى (أنجور) والخوخ واستوقفنا البوليس لفحص الجوازات ، وقد تكرر ذلك فى الطريق أكثر من عشر مرات ثم أخذنا نخترق طرقاً فسيحة يحفها الشجر وتقوم عليها المبانى الحديثة الوطيئة ، وقد كانت من قبل أزقة مختنقة كسائر بلاد فارس لكن يد الاصلاح تناولتها اليوم على نحو ما فعلت فى طهران ، وقد حللت نزل (مهما نخانة ملى) وهو جميل نظيف ، وقد استرعى نظرى بناء القنصلية البريطانية بعظم امتداده وهو أثر من آثار النفوذ الانجليزى الذى كان يسيطر على البلاد حتى قال القوم بأنه حدث مرة أن حاول بعض الناس أن يعلو ببناء بيته الملاصق لها فمنعه القنصل إذ لا يجوز كشف حرمة الدار الانجليزية ، وقد كانت هذه البلدة داخلة فى النفوذ الروسى يوما ، لذلك لاقيت من الروس هناك الكثير وغالب الأهلين يتكلمون الروسية . أما النفوذ المطلق اليوم فللفرس وحدهم . قصدت زيارة :

ولد بها الغزى والفردوسى صاحب الشاهامة



(شكل ١٠٢) المدخل الرئيسى للحرم الشريف فى مشهد

ضريح الامام الرضى : الذى بدت لنا قبته الذهبية البراقة من أميال وإذا المسجد والحرم فاخر إلى حد كبير مداخله عدة الباب تلو أخيه فى زخرف جذاب وفن شرقى بديع بالنيشانى والبللور والمرمر والرخام ، وأمام كل واجهة رئيسية — بهو (أو صحن) مربع تحفه الحجرات المزركشة أقيمت لطلاب العلم فى طابقين وتتوسطه قناة الماء يغترف منها الجميع للشرب والغسل وتنظيف الملابس والأحذية ومآرب أخرى ، والباب الرئيسى للضريح يكسى كله بالذهب الخالص فى فجوات وتعاريج جذابة ، وفوق الضريح قبة تكسى بالذهب الخالص ، وللمسجد مئذنتان دقيقتان عليهما غشاء من ذهب إلى ذروتيهما . أما عن العالم المتراص كالموج المرتطم هنا وهناك فحدث فى دهشة فائقة . كنت أسير ولا أكاد أشق لى طريقاً بينهم ، ومنهم المتقف أنيق الهندام ، والمتسول البائس فى خرق بالية والأقذار التى يشع منها الوخم وينبعث منها مكروب المرض . فيوشك أن تخترق أجسادنا . هذا إلى العلماء فى عباءاتهم وعمائمهم السوداء للشرفاء منهم والبيضاء لغير الشرفاء يخضبون خاتم المرسلة بالحناء . ومن زوار الأجانب خلق كثير

عراقيون وهنود وأفغان ومن كافة العالم الإسلامى ، وإلى جوانب الجدران كلها يرتمى الكثير فى خمول زائد ، وجلهم ممن أضناهم المرض وشوه البؤس أجسادهم ويتوسط أحد الأفنية سبيل مذهب أنيق فى داخله نافورة حولها السلاسل تحمل القعاب للمحتسين ، ويشرف عليهم كهل توقد حوله الشموع صباح مساء ، وبين آونة وأخرى يمد (مغرفة) يحرك بها الماء ، والسعيد من استطاع أن يتذوق هذا الماء الطاهر ويسد الجماهير المكان سداً .

أخيراً دخلنا باب الضريح الفضى وإذا المدفن وسط شباك الفضة والذهب ترصعه الجواهر الثمينة ، وقد أتممت طوافى حوله فى ثلاث ساعة كدت أختنق خلالها من كثرة الزحام ، وهنا رأيت عجباً ، نواح وصياح ولطم وتقبيل واستلقاء على الأرض ولمس للأعتاب بالخدود ، وما إلى ذلك مما تقشعر له الأبدان هنا أسرع شيخ يطوف بى وناولنى أدعية مطبوعة يجب أن أقرأها وأركع وأسجد وأقبل ، فأسرعت بالتخلص منه بفضل زميل فارسى عرفته فخاطب المطوف قائلا : بأنى عالم قارئ خبير بكل أولئك ، وقد علمت بعد أنى لو رفضت الاذعان للأمر وحدى لظن أنى ملحد ولكان ما لا تحمد عقباه . خرجت إلى الفناء وإذا فى كل ركن من أركانه عالم يرتقى منبراً وحوله خلق كثير جلوس على الأرض فى وجوم وشبه ذهول ، وهو يقص عليهم أنباء على والحسن والحسين والأسرة الشريفة كلها وجميعهم يبكون ، وكلما أشار فى قوله إلى الفاجعة صاحوا عالياً ولطموا جباههم وخدودهم فى فرقعة مؤلمة ، ومنهم الطفل والمراهق والسيدة والعجوز والكهل الفانى والمثقف والأمى الجاهل ، وكنت أعجب لسيل دموعهم وبكائهم المر وذاك التبشير يظل طوال اليوم فى جميع أركان الأفنية ، وما أن أوشك الغروب حتى سمعت من شرفة الباب الأوسط طبولا تقرع فى نقرات مثلثة ، ثم أعقبها صياح ، وتلا ذلك نفخات من أبواق طويلة مزعجة ، وظل ذلك حتى غربت الشمس ، فكأنهم يودعونها كما يفعل المجوس بذاك الذى يدخل الرهبة ويلقى

الرعب فى القـــلوب ، وفى وقت الأذان ترى عددا كبيراً كل يصيح فى ناحية ، ثم تقوم الصلاة ويجلس صبية صـغار على المنابر يصيحون بعبارات التبليغ والقوم يصـلون . جهـل فادح واعتقاد فى الترهات والبدع ما كنت إخاله بالغ هذا الحد ، فكأنهم يعبدون الرضى من دون الله ، فما مر من الأبواب فرد كائناً من كان إلا واجه الضريح وانحنى وتمتم ثم قبل الباب وانصرف وهم يرمقون شذراً كل من جاز الباب من الغرباء ولم يفعل ذلك . فقلت



(شكل ١٠٣)
فى داخل الحرم يسقه مجرى الماء

فى نفسى أهكذا يفعل رؤساء الدين بأذهان البسطاء من أفراد الشـعب لا ابتغاء مرضاة الله بل لملء جيوبهم هم وذراريهم الذين لا يحصيهم عد ؟ وهل خلقنا للبكاء والعويل وإهاجة الشجون بتـكرار أقاصيص ما أنزل الله بها من سـلطان ؟ تأخر معيب وتدهور يعطى الأجنبى عن البلاد أسوأ الفـكر . وحتى تقضى حكمة الشاه على كل أولئك سيظل حجر عثرة فى سبيل تقدم البلاد .

وبجوار المسجد مكتبة حوت مجموعة قيمة من المخطوطات فى سائر العلوم الإسلامية حتى قالوا إنها أكبر مكتبة إسلاميــة فى الدنيا وفيها بعض المصاحف بخط سيدنا على نفسه . وفى وسط أحـد الأفنية مصلى يسمونه جوهر شاه ، وكانت بيتاً لسيدة اسمها جوهر ، فلما أراد الشاه إقامة المسجد رفضت أن تبيعه إياه فتركه لهـا وأقام مسجده حوله ، وبعد إتمـامه أقامت هى فى مكان منزهـا

مصلى ولذلك سميت (جوهر شاه) ، ويؤدى كثير من أبواب الحرم إلى أسواق مشهد المسقفة الملتوية وهى من أجمل أسواق فارس ويحرم على غير المسلمين دخولها لأنها داخلة ضمن الحرم المقدس وأرضه مقدسة ، ولمجرد الشك فى شخص غريب ينهالون عليه ضربا مبرحاً ، وكثيراً ما مات من الغرباء لهذا السبب ، وكم من مرة سئلت إن كنت مسلماً ومن أية ولاية جئت ؟ فكنت أجيب (بلى مسلم) ، وكان بعضهم يعود فيسأل (مسلم شيعى ؟) فأعيد الجواب (بلى مسلم) وهم يمقتون السنيين مقتهم للكفار ، وكلما شرب أحدهم قال : (لعن الله عمر و بنى أمية) إذ يكرهون اسم عمر جداً ، وأكثر الأسماء بينهم ذيوعاً حسين ثم حسن ثم على ثم محمد . عصبية عمياء و إيمان فى غير تفكير ولا تعقل ، ويناهز الحجاج إلى المكان سنويا الملايين و بخاصة فى شهر رجب ، وعربات نقل المسافرين لا تغيب عن العين ساعة واحدة .

أخذت أتجول فى القسم المستحدث من المدينة وهو جميل طرقه فسيحة يجانبها الشجر وتجرى إلى جوارها قنوات الماء ، وتقوم عليها المبانى الوطيئة وهناك بعض متنزهات لا بأس بتنسيقها تكتظ بالمتريضين فى كثرة هائلة ، ومن بينهم كثير من الأرامل طالبات زواج المتعة ويغلب أن يكن من الفقراء ، يقصد الرجل و إياها إلى الفقيه العالم معلنين إياه أنهما يريدان زواج المتعة (أو الصيغة) ليلة واحدة أو اثنتين مقابل كذا فيقرهما و يعد الأمر بعد ذلك مباحا ، والأمراض السرية لايكاد يخلو منها أحد وجل موتى الغرباء بسبب (الزهرى) وقد حاولت الحكومة جعل البغاء رسمياً فى مناطق معينة لتخفف من و يلات تلك الاباحة فلم يقبل علماء الدين ذلك .

قصدت زيارة الحضرة يوم الجمعة فكان الزحام فوق كل تصور ، وحاولت دخول الضريح فلم أستطع لأن أرضه فرشت بالزائرات بحيث لم يبق موطىء قدم وكان يسير فى الطرقات كثير من المهرجانات يصيح الصبية حولها إحياء ليوم الجمعة



(شكل ١٠٤)   مدفن نادر شاه فى مشهد

و بأيديهم الأعلام و بعد صلاة الغروب أخذ العلماء يقصون على الناس نبأ فاجعة على والحسين والجماهير حولهم عرايا الصدور يضربونها بأكفهم تارة و بسلاسل ثقيلة تارة أخرى وفق نغمات موحدة فى شكل بشع مرعب ، وهكذا تتحكم الشعوذة فى قلوب القوم تحكما معيباً ، حاولت دخول الضريح رغم الزحام الكثيف لأرى قبر هرون الرشيد الذى علمت أنه بجانب قبر الرضى نفسه غير أنى رأيته منبوذاً فى ناحية غير ظاهرة حتى أننى لم ألاحظه فى المرة الأولى وقد وضعوه بحيث يلمسه الزائرون بأدبارهم عند ما يطوفون حول الرضى وذلك احتقاراً لشأنه وكثير منهم يلعنه بعد الزيارة و يرفسه برجله ووجهه مقابل للإمام و يقول : (لعن الله المأمون وأباه) وذلك لأنه سنى أولاً ولأنه والد المأمون الذى اتهم فى دس السم فى العنب للإمام ثانياً وقد سافر الرشيد إلى هناك فى حملة ضد أحد الحكام الذين مالأوا بنى أمية فوافته منيته هناك فأوصى بأن يدفن فى هذا المكان الذى أقام عليه الإسكندر المقدونى علماً وتنبأ بأنه سيكون مدفن رجل عظيم ، ولما جاء المأمون ولى الرضى حاكماً على تلك البلاد من قبله ولما عاد إلى بغداد وهزم أخاه الأمين وتم له الأمر دس للرضى فمات ودفن إلى جوار الرشيد .

وعند مدخل المسجد مكان القصاص لمن أذنب داخل أرض الحرم والحكم لرئيس الحرم فكأنها حكومة وحدها ، وفى خارج الباب مضيفة يعد فيها رئيس الحرم طعام الغداء يومياً لمن طلب من الغرباء ذلك . وقد مات أحد العلماء ويسمونهم (مولاه) فكانت جنازته مهيبة ، وفى صباح الجمعة قام عالم يؤبنه ومن دونه الجموع المحتشدة جلوس على الأرض يبكون وكانت عبارات التأبين من قصة الحسين أيضاً وعلمت أنه منذ خمس سنين فقط كان إذا مات أحد العلماء وجب تعطيل مصالح الحكومة واغلاق المتاجر والبنوك ثلاثة أيام كاملة .

وللإمام الرضى من الأوقاف شىء كثير فكل المبانى التى تقع فى الحى كله ملك له ، هذا غير الأراضى الزراعية والهدايا الثمينة التى تقدم إليه فكلما مات غنى أوقف جل ماله عليه ، وفى أحد أبواب المسجد فيروزة معلقة فى حجم بيض النعام يقولون بأنها لا تقوَّم ويقصون عنها فى الخرافات ما لا يقبله العقل ، فمثلاً لما احتل الروس البلدة إبان الحرب الكبرى ربطوا خيولهم داخل (الصحن) وضربوا القبة بالقنابل فلم تصبها وحاولوا ضرب تلك الفيروزة مرات فطاش سهمهم ، وحجر الفيروز كثير هناك ومناجمه فى قرية فيروز أباد فى جنوب شيراز ، وفيها جبل جل كتلته من الفيروز على اختلاف طبقاته .

والحى الذى حول الحرم كله محرم على غير المسلم تطوقه السلاسل عند مداخله وكثيراً ما كان يلجأ إليه المجرمون والقتلة والمدينون ليحتموا فيه فترفع عنهم العقوبة ماداموا داخله .

والذى شجع الفرس على اتخاذ مشهد كعبة مقدسة الشاه عباس أكبر الصفويين هناك وعاش أوائل القرن السابع عشر ، وكان عصره ثالث العصور الذهبية فى تاريخ فارس كله . صرف قومه عن زيارة مكة المكرمة لكراهتهم للعرب ولكى يوفر على قومه ما كانوا ينفقون من أموال طائلة فى بلاد يكرهونها وكثير من الحجاج كانوا من السراة . فاتخذ مشهد كعبة وجه إليها الشعب ولكى

يزيدها قدسية حج إليها بنفسه ماشياً على قدميه مسافة تفوق ١٢٠٠ كيلو متر فتحول إليها الناس جميعاً و يندر من يزور الحجاز اليوم وهم يحترمون كلمة (مشهدى) عن كلمة (حجى) لأن من زار مشهد لا شك أكثر قدسية واحتراماً ممن زار مكة! وكم كنت أسمعهم ينادون بعضهم باسم (مشهدى فلان) حتى فى مشهد نفسها.



(شكل ١٠٥) الموسيقيات المتحولات (والتارة) أحب الآلات الموسيقية عندهم

وقد لاحظت من بائسى الروس هناك عدداً كبيراً رجالاً ونساء وأطفالاً وكلما دخلت (النظمية) مقر البوليس وجدت مهاجرين منهم وافدين من بلادهم هروباً مما يقاسونه من مضض الجوع والبؤس وأنت ترى الفتيات يجلسن على جوانب الطرق تفرش كل واحدة منديلاً أمامها لتستجدى المارة، وكثير من الفرس يتزوج من الروسيات وغالب خدام النزل منهن. وقد زرت مدفن (نادر شاه) الذى مد نفوذ بلاده، وفتح الهند وأخذ من الأسلاب القيمة شيئاً كثيراً من بينها عرش الطاووس الذى لا يزال يعرض فى قصر جولستان فى طهران وعليه توج الشاه الحالى، والمدفن يقوم وسط حديقة فسيحة تحوطها الأسوار العالية وتكاد تكسوها الأدواح الكبيرة. وملاهى القوم قاصرة على المقاهى ودور السينما، أما الراديو والتمثيل والمراقص فنادرة، وموسيقاهم شرقية بحتة وهى أقل تشذيباً من الموسيقى التركية وأحب الغناء ما كان صيحات أشبه بأغنية

الفلاح المصرى وهو يسق زرعه بالعود فى صعيد مصر ، وغالب الأنغام من (نغمة العجم) مما يؤيد أن هذه البلاد هى أصل تلك النغمة ، وأحب الآلات الموسيقية لديهم عود يسمونه (تاره) ذو أربعة أوتار مزدوجة من السلك الرفيع ولا تشد عالياً ، ورقبته بالغة الطول وهى مقسمة بأربطة ، وبطن العود (القصعة) دقيقة الوسط منتفخة الجانبين ، وهى أصغر من (قصعة) عودنا ، ونغمته مطربة بين (المندلين) و (الطنبور) ، والدف والناى مستعملان بكثرة والكمان على قلته .

وحساب الأيام عندهم شمسى يقسمون السنة إلى اثنى عشر شهراً كل شهر من الستة الأولى واحد وثلاثون يوماً ، ومن الثانية ثلاثون ، وعامهم هذا هو سنة ١٣١٢ ، وبدؤة الهجرة النبوية . على أنه افترق نحو أربعين عاماً بسبب زيادة أيام السنة القمرية ، وأسماء الشهور متفقة مع البروج الفلكية (الحمل والثور والجوزاء الخ) بأسمائها الفارسية التى ترجمت عنها إلى العربية ، ويكتبون برج كذا بدل شهر كذا ، وهم يحتفلون بأول السنة ، وهو أول يوم فى الربيع ، ويسمونه النيروز (نو معناها جديد و روز يوم) وفيه تعطل الأعمال ومصالح الدولة أسبوعاً ، ويظل الاحتفال فى البلاد نحو عشرين يوماً ، ويرعاه المسلمون والزردشتيون ويرجعونه إلى عهد جمشيد الأكبر الذى حكم قبل الطوفان ، ويقولون عن هذا الملك إنه عاش سبعمائة عام ، وفى السنة الأخيرة من عمره بلغ قوة الآلهة ، فأرسل صوراً منه ونصباً له فى جميع الجهات ليعبدها القوم ، وفى العيد يلبس الناس زينتهم ويروون قصص زهراب ورستم وكوش على مسمع من الأطفال . أما شهرا محرم وصفر فأيام حداد لا يدار فيها لهو ولا موسيقى ، ويحيون لياليها بمجلسات الحداد يستمعون لقصص على والحسين وهم يبكون ، وغالب البيوت تراعى ذلك ليلة الجمعة من كل أسبوع حتى فى غير هذين الشهرين ، وفى يوم عاشوراء (العاشر من محرم) تقام حفلات فى البلاد كلها لمأساة الحسين ، فتقرع الطبول وترفع المشاعل ويسير الجماهير ويضربون صدورهم وجباههم بالسيوف



(شكل ١٠٦)
كبار الحكام فى (اسلام قلعة) يشرفون على تفتيش متاعنا على حدود أفغانستان

والسلاسل ، وإذا سار الموكب جيء ببعض الخيل وألبست أردية بيضاء ، وجواد الحسين عليه ثوب خضب بالدماء تخترقه السهام ، ومن خلفه الحسين والعباس وباقى أفراد العائلة المقدسة على الخيل فى كامل أسلحتهم ، ومن ورائهم الناس فى أردية خضراء ، ويلى ذلك هودج يمثل حجرة الزواج لقاسم الذى كان زفافه ليلة الفاجعة ، وكان عبد الله رضيعاً لذلك يحمل فى مهده وحوله أطفال يركبون الخيل ، وبعد ذلك جماهير حملة السيوف والسلاسل ثم من ورائهم (شمر) اللعين الذى قتل الحسين ، ومعه أتباعه فى أردية حمراء ، وتنتهى الحفلة بتمثيل موقعة كربلاء والقتال بين الفريقين . ثم تحمل جثة الحسين والعباس وعبد الله وغيرهم وأيديهم وأرجلهم مطلة من ثيابهم تقطر دماً ، وترفرف على جثة الحسين حمامتان مخضبتان بدم ، وتقول خرافاتهم إن الحمام هوى على جثة الحسين يبكى فتخضبت أرجله بالدم ، ولبس الحداد فى رقابه ، ولذلك نرى أرجل الحمام حمراء ورقابه يطوقها السواد ، وإلى جانب الجثة تسير فتاة تمثل بنت الحسين ، وقد نفشت شعرها ولطخته بالعشب والوحل ، وكثير من المشيعين يحملون يداً مبسوطة هى

شعار الشيعة ، لأن يد العباس قطعت وسقطت مبسوطة على الأرض — لذلك كثيراً ما كنت أرى من المتسولين المشعوذين فى فارس يحملون يداً من صفيح على عصى طويلة يستجدون بها — ويحمل رجل عصى من حديد تتدلى منها أشرطة من قماش تمثل لسان (شمر اللعين) وقد مزق كل ممزق وكل من قطع واحداً باركه الله وأجاب سؤله ، وكثيراً ما يمثلون الفاجعة برواية تعرض على المسارح ويحضرها الأطفال جميعاً .

من خراسان إلى الأفغان : اعتزمت زيارة بلاد الأفغان رغم ما سمعت هناك عن وحشيتها وافتقارها للنظام والأمن ، وكأن الظروف جميعها تضافرت على تعطيلى فقد لبثت أربعة أيام وأنا أنتظر قيام سيارة إلى هيرات وكل يوم يرجئنى صاحب (الجراج) إلى الغد حتى كان مساء الجمعة آخر ميعاد وعنده رجانى أن أظل حتى الصباح ، ثم جئت فى الصباح أخاطبه تلفونياً فقال : عصراً نقوم فاحمل متاعك إلينا فى الرابعة مساء فكان ذلك ، وهناك استبقانى حتى يكمل عدد المسافرين وظل ذلك إلى ما بعد العشاء ولما هممنا بالركوب اختلف أحدهم وهو أفغانى وأصر أن يجلس إلى جانب السائق وهو المكان المعد لى وله أجره الزائد وظلت المناقشات والمحاورات إلى العاشرة مساء فغضب الرجل وأضرب عن السفر فقالوا تعال صباحاً فعدت إلى النزل وآويت ليلتى ، وفى الصباح لم يكن النزاع قد فض فعرضوا علىَّ أن أسترد نقودى لأن الرجل يصر على الانسحاب هو وسبعة من صحبه فقلت هل هذا مقدار محافظتكم على عهودكم ؟ أهكذا تعاملون ضيفاً تعطل نحو أسبوعاً انتظاراً لسيارتكم ! فأخذت السائق الحماسة وقال إننى أوثر أن أقوم براكب واحد مثلك على كل أولئك وأخيراً اتفقنا أن نحشر نحن الاثنين إلى جوار السائق رغم أن الرجل كبير الجثة عملاق القامة . تحركنا التاسعة ونصف صباحاً والمسافة كلها فوق ستين فرسخاً أى ما يقرب من أربعمائة كيلو متر

قطعنا ثلثها إلى الرابعة مساء حين وقفنا نستريح فى مسافر خانة بدوية صـــغيرة بها حجرات مختنقـة من طين أمامها بســتان غير مشذب ولم نجد من الطعام إلا الخبز الأسود السـميك والبيض المقلى والشمام فأكلنا أكلاً شهياً لأن الجوع والاعياء كانا قد أخذا منا مأخذاً . بعد ساعتين قلت هلم نستأنف السير فقال السائق : سنقف ساعة أخرى نصلح خلالهـا بعض ما فى السيارة ، وتلك

(شكل ١٠٧)　　أمحـ ماق التركمان تلك القلنسوة من جدائل الوبر والصوف ، وكانوا خطراً على الأمن فى طرق إيران وأفغانستان الوعرة

الساعة أسفرت عن ثمـان كاملات أمضيناها فى هذا المكان الموحش . فقلت فى نفسى ما الذى دفع بى إلى هـذا المسلك الوعر الممل ! ومالى و بلاد الأفغان التى يقصون عن همجيتها ما يثبط العزم و يصرف المسافر عنهـا ؟ لـكن عدت فقلت فى نفسى وهل اللذة إلا فى مغالبة ذلك وتحقيق غايتى التى وضعتها نصب عينى وهى أن أزور بلاد الأرض ما استطعت ، وهل المرء فى الدنيا إلا مجاهد يحاول إصابة هدف جعله قبلته فإن وفق أرضى ثورة النفس و إلا فالخير قصد ؟ سأمضى مهما كان الطريق وعراً مخوفاً . قطعنا مرحلة أخرى إلى الفجر حين اضطرنا التعب أن نأوى إلى خان خرب نمنا فيه على الأرض حيث لم يكن ثمة فراش ، وفى الصباح لم نجد ما نسد به رمقنا غير خبز قفار أسود سميك ، وشاى يعلم الله مبلغ

ما حوى من أتربة وأقذار . وقبيل الظهر كنا فى الجمرك الإيرانى فى قرية كاريز هنا تجلى اهمال الموظفين و بطؤهم المسئم فى فحص متاعنا ، ثم جاءت الثانية بعد الظهر فذهب الرئيس للنوم تاركاً إيانا فى مكان قفر ليس به ما يقى وهج الشمس ولا غبرة الجو ولم تمض الجوازات إلا عند الغروب ، وكان يطالب القوم بنقود وهم يرجونه تخفيفها وأخيراً قبض منا ما تيسر ضريبة غير مشروعة عياناً .

بعد ذلك تهامس السائق و بعض الركاب قائلين بأن الأفضل إمضاء الليل هنا فثرت محتجاً وقلت كفى إبطاء وعطلاً ، فالمسافة كلها كان مقدراً لها يومان وها قد مضى اليومان و بقى فوق ثلث الطريق قالوا إننا سنقضى الليل فى غير طائل على الحدود الأفغانية وهى أمعن فى الجدب والوحشة وسوء المعاملة فأمضينا ليلتنا فى ذاك المكان القفر ورجوت صاحب الخان أن يمدنى بفراش على (مسطبة) فى الشارع لأن داخل الخان قذر لا يطاق ففعل ونمت نوماً عميقاً ، وفى باكورة الصباح قمنا إلى الحدود الأفغانية فى أسلام قلعة .

أفغانســــتان

أرض الجبال

أسلام قلعة : وصلنا الحدود فى ساعتين ، عندها مخفر فارسى أبرزنا له جوازاتنا ، ولم تمض إلا بعد أن عززناها بقروشنا ثم دخلنا القلعة و إذا اسمها أكبر منها وهى عبارة عن بناء كبير خرب أقيم من الآجر كنت أخال حولها مدينة فاذا بها تقوم وسط صحراء مجدبة ، يكسو أرضها الحامول والعاقول والهالوك اليابس ، وقد كانت من قبل تسمى (كافر قلعة) يوم كانت ملكاً لفارس ، وكانوا يطلقون عليها ذاك الاسم لاعتقادهم أن الشيعة من الفرس كفار ولما أن ضمها ملك الأفغان السابق (أمان الله خان) لبلاده أسماها (أسلام قلعة) . وقفنا وسط تلك الصحراء أو الداشت كما يسمونها أمام مدخل القلعة ، وكان يتقدمها بعض الجنود فى سراويلهم الفضفاضة تكسوها إلى الركبتين جلابيب طويلة وعمائمهم منتفخة فى شال ممدود تترك منه ذؤابة خلفية هادلة إلى العجز . طلبت لقـاء رئيس القلعة فدخلت إليه فى غرفة تفرش بالبسط ، وهو ووكيله جلوس على الأرض فسلمته خطاب التوصية الذى حملته من سفارتهم فى طهران ، بعد أن عاونتنى فى ذلك مفوضيتنا العامرة هناك فأشار أن أجلس وأشرب الشاى . والرئيس ذو وجه مقطب وسحنة غاضبة أمى لا يعرف القراءة لذلك ناول الكتاب لوكيله الذى أطلعه على ما فيه . طاف الغلام علينا بأقداح الشاى الأخضر ، وناول كلا منا بعض فتات السكر فى أيدينا كى نلقى بقطعة فى أفواهنا ونشرب وراءها الشاى ، وكلما فرغ القدح عاد فملأه لنا جميعاً رغم أنى كنت أشير بأنى اكتفيت ولا أستطيع المزيد ، فكرر ذلك إلى القدح السادس ، وهنا اضربت عن تناوله فبدت عليهم علامات التأثر ، وعلمت

بعد من السائق أن من الواجب على أن أبقى فى القدح بعض الشاى ثم أنكسه بما فيه فوق الطبق علامة الاكتفاء . نزلنا لمحص الأمتعة فأقبل جمع من الموظفين والرقباء بعمائمهم المنتفخة وأحذيتهم الملتوية فى ذؤابات رفيعة ومقوسة أمام الحذاء وخلفه ، وجلس الجمع على الأرض و بيد كل منهم ورقة ثم أخذ الجند يحملون المتاع من السيارة قطعة قطعة و يفتشونها بكل دقة و بطء ، وكلما وجدوا شيئاً غريباً أوجديداً أمسكوا به وأداروه عليهم جميعاً ، وأخذوا يقصون حوله الأقاصيص فى بطء عجيب حتى أننا لم نفرغ من هذا العمل إلا بعد ثلاث ساعات . قلت هلم فقد تم كل شيء فقالوا إنا ننتظر الجوازات ولبثنا على تلك الحال النهار كله إلى الرابعة مساء ، وخلال كل ذلك كان يطالب المسافرون بنقود دفعوها أربع مرات لأشخاص مختلفين ، والجدل والمساومة والممانعة فى تسليم الجوازات كانت علانية . وكلما وجد جنودهم شيئاً يروقهم فى متاع المسافرين أخذوه ثم تكون مجادلة بين الجندى وصاحب المتاع حتى يتفقا ، وقد أعجب جندياً أبريق من نحاس لكن صاحبه استعاده وهو غاضب ، ولما وضعه فى السيارة وأوشكت أن تستأنف السير أقبل الجندى خلسة وأخذه دون أن يعلم صاحبه . كل ذلك ولم يكن لدى طعام فأمضنى الجوع حتى رجوت جنديا أن يجهز طعاماً من البيض والخبز والشمام ، فكان شهياً رغم ما كان يسوده من حصى وقش ورمال . قمنا نشق طريقنا الوعر الردىء وسط تلك البادية ، و بعد ساعة استوقفنا جمع من الناس غفير يريدون مكاناً فى السيارة لأحد (الملاه) رؤساء الدين . ولا يمكن رفض ذلك و إلا كان مالا تحمد عقباه ، فأخلى جارى مكانه للشيخ ، وأخذ الجميع يتكاثرون على يديه تقبيلاً رغم شيخوخة الكثير منهم ، وطول لحاهم التى نال منها الشيب (والمولاه) هناك هم المسيطرون على أذهان الناس ، وهم أكبر مقاماً وأنفذ كلمة من الحكام أنفسهم ، وكان كلما رآنا أحد فى الطريق يحيي الشيخ و يظهر له الخضوع والإجلال ، وقد كنت أتفاهم مع الشيخ بصعوبة ، وهو من عائلة المحددى ، وطبقة (الملاه) يكادون يقسمون



(شكل ١٠٨) تلك القمة والمآذن السبع بقايا مساجد العباسيين فى مدخل هيرات

البلاد ، فلكل ناحيته التى يطوف عليها بين آن وآخر ليقوى علاقاته بالناس و يتقاضى حقوقه الواجبة عليهم قبله . لبثنا نسير فى تلك السهول الصحراو ية تحفها على بعد سلاسل جبلية وطيئة ، ولم يتغير المنظر منذ خروجنا من مشهد ، إذ عاب أرضه مبسوطة وحيثما يظهر الماء القليل تقوم القرى الصغيرة وكثير منها بالطين فى صفوف من الأقبية (كالقطاطى) وكثير من سقوف الأفغان مسطحة ، وقد مررنا بقر ية جل أهلها من مهاجرى التركستان الر وسية هر وباً من جور الروس وكان رجالهم وصبيتهم يحاولون التفاهم بصعو بة لأنهم يتكلمون الروسية فقط . كانت التاسعة مساء و بينا نحن نتحدث عما بقى من المسافة إلى هيرات مبتهجين لأنها لا تجاوز الساعة الواحدة و إذا بالسيارة تقف فجأة والسائق يعلن نفاد البنزين فكدنا نصعق لأن الوقت ليل بهيم والمكان مقفر مخيف ، والجو عاصف مترب كادت الريح أن تقلب السيارة على ثقلها — وشهور آخر الصيف وأوائل الخريف ريحها هناك شمالية عاصفة لا تكاد تحتمل فى بلاد الأفغان جميعها — لبثنا الليل كله ولم أنتقل من مكانى بالسيارة وصفير الريح وشدة البرد وكثرة التراب لا تحتمل وزادها ضغثا أن زجاج نافذة السيارة كان مكسوراً وأنى كنت جائعاً خاوى البطن لأنى كنت

أتوقع تناول العشاء فى هيرات . أرأيت كيف يتعرض المسافر فى تلك البلاد للأخطار وضياع الوقت ؟ يعتزم السفر والعودة فى ميعاد محدود و يؤكد القوم ذلك و إذا بالساعة عندهم يوم واليوم شهر . و يخيل إلىّ أن وسائل النقل الرديئة هناك هى التى ولدت فيهم عدم احترام الميعاد أو تقدير قيمة الزمن ، ترى السائق منهم وأنت تستعجله السير يلاقى زميلاً له فى الطريق فيقف وتبـدأ الأقاصيص بينهما ، وهو لا يقدر مسئولية قط يقف بسيارته حيث كان وسط القفر من سهل وحزن ، غير أن تلك الوسائل على ابطائها الممض اليوم خير من الإبل والحمير والبغال التى كانت تقطع تلك المسافات فى شهور وكنا نمر بها فى سيرها الوئيد ليلاً ونهاراً فى قاطرات طويلة تحمل المتاجر وتتدلى من رقابها أجراس ثقيلة لتنبه عن وجودها ، أخيراً قدر لنا أن نصل هيرات صباحاً وقد مرت بنا سيارة صغيرة حملت إلينا ما أعوزنا من بنزين فاذا هيرات (أو هرات) بلدة حقيرة على عظيم امتدادها فى حضن جبل يكاد يطوقها وتحفها المزارع الممدودة ، مبانيهـا باللبن وطرقها مختنقة وفى غير نظام اللهم الا بيوتات عليه القوم التى أقيمت من الآجر الأبيض والأصفر ، وشارعان متعامدان حديثان صفت عليهما الحوانيت الجديدة من بقايا ما خلفه الملك السابق (أمان الله خان) لما أن حاول الإصلاح . أما عن التراب والأوساخ فحدث فهى أكداس فى كل مكان ، وأظهر ما فى المدينة بقايا مسجد قديم بقبابه ومآذنه السبع التى كانت تكسى بالقيشانى الملون الجميل إلى أعلى ذراها بدت مشرفة ونحن على بعد أميال من البلدة . بحثت عن نزل آوى اليه فعلمت أن ليس هناك من أمكنة معدة للنوم قط ، حتى ولا مسافر خانات ، فحرت فى أمرى وقلت لصاحب (الجراج) أليس لديك مكان أنام فيه ؟ قال (ناخير) أى كلا ، اقصد إلى أحد علية القوم ليضيفك عنـده فى داره قلت ألا توجد مطاعم عندكم ؟ فقادنى إلى المطعم الوحيد الذى لم يمض على وجوده فى البلدة شهران فأكلت فيه ، ثم رجوت صاحبه أن يعد لى فراشاً بسيطاً لديه فقال (أنجا أغاخوب نيست) أى

لا يليق هـذا المكان ، قلت هو خير من لا شيء فزودنى ببساطين (سجادتين) واحد افترشته عنـد مدخل المطعم والثانى التحفت به واستخدمت حقيبتى وسادة ولم يكن للمدخل باب يحجبـه عن الشارع ، فكنت كأنى أنام فى الطريق ، وكم من مرة كنت أنظر فأرى جمعاً من الناس يقفون وهم يرمقوننى ، وأنا أقرأ أو أكتب جالساً أو مضطجعاً ، وبعد يومين علمت أن الرجل قد أقام غرفاً



(شكل ١٠٩) تكسى المآذن القديمة فى هيرات بذاك الابداع الفنى من القيشانى رائع الألوان

فى أعلى المطعم لم يكمل بناؤها فرجوته أن أنام فى إحداها ولما تكن قد سقفت وحولها أكداس الطوب وأنقاض البناء فآثرتها على مكانى عند مدخل المطعم . وهيرات ثانية مدن الافغان بعد كابل ، وقد علمت أن كابل نفسها وهى عاصمة البلاد ليس بها إلا نزل صغير واحد . أما قندهار ثالثة المدن فهى شبيهة بهيرات تماماً . بلاد لا تزال فى معزل عن العالم الخارجى فى كل شيء تعيش على الفطرة التى لم تفسدها المدنية فى زعمهم .

تناولت العشاء وأغرب شيء فيه أن الأرز يقوم مقام الخبز تدفن فيه قطع اللحم (الجوشت) وإلى جانبه بعض الباذنجان يسبح فى الزيت أو الروغان كما يسمونه . سألت الخادم وكان اسمه (أفغان) أن يقودنى إلى المراحيض ، وسرت

وراءه حتى جاء خرابة مكشوفة على جانب الطريق وقال : (أنجا) أى هنا قلت : كلا ، فأنا أريد مستراحاً ، فعلمت أن ليس لذلك وجود ! يقيمون أبنيتهم و يغفلون هذا اتكالاً على الخلوات والأمكنة الخربة وسطوح المنازل ، وهذه حالهم فى جل بيوتهم إلا النادر ، وفى الصباح أردت الاستحمام فقيل لى : إذهب إلى الحمام ، وهم هناك وفى فارس كلها لا يقيمون حمامات فى البيوت مهما عظم شأنها ارتكاناً على الحمامات العامة التى لا يطمئن المرء إلى نظافتها وطهارتها أبداً ، على أنهم فى فارس يستعيضون عنها بحوض الماء الذى يتوسط فناء الدار دائماً . آما فى الأفغان فليس لذلك من وجود لأن الماء شحيح ومستمده الآبار العميقة . طفت بأرجاء البلدة وراقتنى قلعتها المشرفة التى يحتلها الجيش فى هندامه المرقع ، ومنها أوغلت فى أسواق المدينة (بازار) وهى ضيقة مغلقة مظلمة ، لكنها بالغة الطول غاصة بالمتاجر ، وهيرات أشهر بلاد الأفغان كلها فى التجارة .

والنساء هناك محجبات لدرجة مبالغ فيها ، فالأزار الخارجى يحكى (الكيس) قد زر عند الرأس بحيث يلبس فيها وهو فضفاض من أسفله ، وأمام العينين قطعة منه مثقبة بخروق للنظر والتنفس ، وتحت الأزار سروال أسود سميك يتدلى إلى الحذاء و يربط فيه ، فترى السيدة تمشى وهى تدب دبيباً فى كتلة واحدة تسترعى النظر و بقدر ما رأينا من اباحة الفرس كانت الرجعية هنا فى أشدها ، وغالب القوم هنا سنيون يمقتون الشيعة وتصرفاتهم ورغم أن الحكومة اليوم تشجع لباساً للرأس جديداً كأنه قانسوة يكسوها و بر أو جديل أسود فإنك لا ترى واحداً فى المائة ممن يلبسونها وكلهم يلبس العمائم ذوات الذؤابات الطويله ، والأحذية العتيقة تنتهى بذؤابتين طويلتين معقوفتين حتى الأغنياء منهم ، لذلك لم أعجب للانقلاب السياسى الذى حدث وطردوا من أجله الملك السابق أمان الله خان ، فهو لم يفهم قومه قط إذ كيف ساغ له أن يلبسهم القبعات و يرغمهم على السفور ، وما إلى ذلك مما أتاه مصطفى كمال و يحاوله اليوم رضا خان بهلوى ؟ هم لا يؤمنون إلا



(شكل ١١٠) على ضريح الفخر الرازى
من أكبر مفسرى القرآن فى هيرات

بتقاليدهم ، ويتمسكون بدينهم فى إيمان شديد ، ويكاد يحكم البلاد جماعة (الملاه) الذين يجب على الحكومة إرضاؤهم قبل الشروع فى إنفاذ شيء جديد .

ولم أكد أرى أجنبياً واحداً بينهم ولا غير مسلم ، ولذلك كانوا يرمقوننى أينما سرت فى شى من الريب . ويسألوننى (مسلمان) فأسرع بالإجابة (بلى) وسوادهم أمى وفى جهل عميق وعالبهم يتكلمون بالفارسية ، وقد ظهر لى أن جل ثقافة المتعلمين منهم فارسية يجيدون كتابتها ويروون أشعارها وآدابها ، وقد نقلوا جل آدابهم عن فارس ، وفى مدارسهم الساذجة يقرأ الصبية الأدب الفارسى إجبارياً ، وتكاد تكون اللغة فى الطرقات هى الفارسية ، وكثير منهم يتكلم الهندوستانية ، ولغتهم خليط من الفارسية والهندية ، لذلك كنت ألمس فيها ألفاظاً عربية كثيرة كانت هى وما عرفته من الفارسية عوناً لى على التفاهم بعض الشيء ، والأفغانيـة الصحيحة يتكلمها أهل قندهار فقط . أما فى هيرات وكابل فالفارسية والهندية . وموسيقاهم خليط من الفارسية والهندية أيضاً فى نغمات سائغة لآذاننا ، على أنها بدوية والغناء أميل إلى الصياح المرتفع ، وأحب الآلات الطنبور وآلة أخرى أضخم منه يسمونها (مادام) .

والحالة الاجتماعية تثير الدهشة فرغم الحجاب الذى يحوط المرأة فإن الفساد

منتشر سراً ، والأمراض السرية شائعة ، والعجيب أن ذلك يقع رغم إقامة الحدود فإذا ثبتت جريمته بشهادة ثلاثة شهود أو واحد يزكيه اثنان محترمان ألقى الجانى علانية من فوق قلعة البلدة إلى الأحجار المتراكمة من دونها مسافة لاتقل عن خمسة وعشرين متراً ، ويغلب أن يموت ، والزانية توضع فى كيس يحوطه الجند ويؤمر المارة برجمها إلى أن تموت . واليوم كان موعد قصاص ثلاثة من اللصوص ثبتت عليهم جريمة السرقة فأحضروا إلى السوق ، وكان قد أعلن مناد ذلك فى المدينة ونفذ فيهم قصاص قطع اليد فتقدم رجل البوليس ولف حبلاً حول ساعد الرجل وضغط الرسغ بين عضادتين من خشب كى يمنع سيل الدم ثم أمسك رجل البوليس بيد الجانى وأتى الجلاد بالسلاح الحاد ثم شرع يقطع الجلد والعروق فى احتراس وبطء شديد ثم أعقب ذلك ضربة قوية بآلة ثقيلة من حديد فانفصلت اليد بعيداً ثم غمر الجرح على الفور فى زيت (روغان) يضطرب غلياناً وقد نفذ ذلك فى ثلاثة أشخاص ، وهم فى تألم شديد ونقلوا بعد إلى مستشفى البلدة البسيط حتى تلتئم جراحهم وقد حاولت أخذ صورة لذلك فأبدى القوم امتعاضهم فامتنعت واعتذرت لهم ، وكان يزاملنى الدكتور باسفنس الألمانى . والعادة أن السارق لأول مرة يسجن وإذا تكررت قطعت يده ثم رجله ! والذى يحكم بذلك (المولاه) وهو مفتى الحكومة ، وطبقة العلماء هم القوام على القانون فى تلك البلاد وقد شاهدت رئيس الشرطة ونحن فى مجلسه مرة يسأل الألمانى عما يفعلون لمنع الفساد فوق ماهم فاعلون اليوم ، فقال بأن شيئاً من الحرية والتسامح فى الأحكام خير وأجدى ! وقد اقترح إباحة البغاء الرسمى فى مناطق معينة ، وهو هناك لا يباح قط .

وسرنى ما لاحظته هناك من عدم وجود التسول رغم فقر البلاد وعوز أهلها مما أشعرنى بأن فى نفوسهم شمماً يأبى عليهم الاستجداء عكس ما لاقيته فى فارس التى يرى الإنسان فيها من أمر المتسولين وكثرتهم عجباً ، والحكومة الأفغانية تحرم التسول ، وقد أعدت (دار أيتام) فى البلدة يأوى إليها العجزة والمعوزون ،



(شكل ١١١) الخبز يعرض فى سوق هيراب ، وكأنه ألواح حجرية منقبة

وهنـاك مستشفيان أحدهما عسكرى ؛ والآخر مدنى لعلاج المرضى و إيوائهم مجاناً وتلك فضيلة أخرى ، و يلحظ الزائر الفرق الشاسع فى أجسام الناس فى تلك البلاد فهى ممتلئة تبدو عليها علائم القوة والصحة عكس أبناء فارس النحال الهزال من سوء التغذية والإسراف فى المسكرات ، والأفيون والغانيات ، ولأن كثيراً منهم من اللقطاء الذين أهملتهم أمهاتهم من زواج المتعة فشبوا مفتقرين إلى الرعاية الصحية والتغذية الوافية .

زرت يوماً أحد سراة القوم وهو مختار زادة من أكبر تجار هيرات ، وكان معى له خطاب توصية من بعض خلانه فى مشهد ؛ فدخلت داره ، و إذا مدخلها من السوق صغير لا يشعر بعظمة ، لـكنى ألفيتها من داخلها فخرة . قسم الحريم منعزل فى الداخل . والجزء الظاهر (وهو المضيفة) أعد بالبسط الثمينة والحشيات

والتكآت ، ويتوسط كل حجرة مصباح فى طول قامة الرجل يوقد بزيت البترول وقد استقبلنى بعض ذويه ، وشربت شايهم الممتع ، ولبثت أنتظر حضور صاحب الدار نحو ساعتين فلم يحضر ، فقمت وشكرتهم ، وتركت لهم خطاب التوصية ، وأفهمتهم منزلى من المطعم السابق ذكره ، وكنت أنتظر من كرمه الذى سمعت عنه أن يزورنى فى مكانى فلم يفعل ذلك ، فقلت فى نفسى وأنا آسف أن زرته هل يقع مثل ذلك فى مصر ؛ وهل يجيزه الكرم المصرى ؟ وخيّل إلىّ أن الكرم الذى سمعته عن ذاك الرجل لا بد أن يكون كرماً نفعياً يختص به عملاءه ومن لهم قبله مصالح مادية ، وهيرات محط أغنى المولين فى إيران ؛ لأنها أكبر المحاط التجارية ، وحولها مزارع غنية ، وأرض خصبة ، وماء وفير ، وخير ما تصدره القطن ، والأفيون ، والرعى ، والفستق ، والجوز ، واللوز ، والبندق ؛ على أن افتقار البلاد للتعليم ورؤوس الأموال لم يمكنهم من استغلال أرضهم ، ويخضع لولاية هيرات نحو مليونين من مجموع سكان الأفغان البالغ عددهم ستة ملايين ، ووحدة النقود الأفغانية (القران الأفغانى) ، وكان يعادل القران الفارسى سك من معدن خفيف كأنه الألمنيوم الممزوج بالنحاس فى لون أغبر قذر ، وهو أكبر أنواع النقود ولا يزيد حجمه على القرش عندنا ، وله كسوره النحاسية الكبيرة وليس فى البلاد نقود ورقية (بنكنوت) قط لأنهم يحرمون إقامة المصارف ، فالتعامل التجارى كله بالقران . فالتاجر يقبض دينه أو ثمن بضاعته منه مهما كثرت لذلك ترى كلا منهم يحمل آخر اليوم أكياساً ثقيلة كبيرة ، يكاد ينوء الواحد بحملها ، وترى كلا ينتحى جانباً ، ويكدس النقود بجواره ، ويشرع فى عدها ، ويستغرق فى ذلك زمناً ، وكان سائق السيارة التى ركبتها عائداً إلى فارس يحمل كراءه من القرانات فى أكياس ثقيلة ؛ أعنى خمسة عشر جنيهاً كلها من تلك النقود المعدنية ؛ وكانت فوق ألف قطعة ، وكم كان ارتباكى عظيماً عندما دخلت فارس ولم يكن معى سوى ورق فارسى قيمته اثنى عشر جنيهاً ، فلم يقبله منى أحد



(شكل ١١٢) قلعة هيرات ، ومن فوقها يلقى بالزاني إلى هوة وراءها

اللهم سوى جمهرة من صيارفة اليهود وقد تقاضوا عليه عمولة فاحشة ، وهم لايقبلون أى نوع آخر من النقود أو الورق ، أما الشيكات التى كانت معى فلم أستفد بها هناك قط ؛ لذلك اقترضت من السائق ما احتجت إليه فوق ما معى من نقودهم ؛ على أن أردها إليـه فى فارس ، وقد أودعت معه بعض الشيكات رهينة حتى صرفتها فى مشهد وأعطيته حقه .

ويظهر لمن يزورها لأوّل وهلة أنها بلدة قديمة أثرية بناها الإسكندر المقدونى على نهر آريوس الصغير ؛ المعروف بنهر هراة أو هرى وسماها آرية باسم النهر ، والإسكندرية باسمه ، وقد فتحها الأحنف بن قيس فى خلافة عمر وأظهر ما يرى فيها أطلال سورها القديم ، وقلعتها المشرفة ، وبقايا مسجدين فاخرين تقوم منائرها السبع وإحدى القباب ؛ يغشاها جميعاً القيشانى فى لون اللازورد والفيروز ، وفى أشكال هندسية ؛ وقد بناها هرون الرشيد ، وفى البلدة مدافن لكثير من أولياء الإسلام وعلمائه ، أذكر من بينهم الفخر الرازى ، وعبد الرحمن الجامى . وعبد الله الأنصارى ، والحجة عبد الله المصرى ؛ ويقصون عن كراماته أن ماء البئر التى فى مدفنه يرد من مصر ؛ ويقولون إن الأولياء الذين يدفنون حول أولئك إثنى عشر

ألفاً ، لذلك تسمى هيرات عندهم بلدة الأولياء وقد زرت كثيراً منها وغالبها متهدم ولعل أفخرها مدفن الأنصارى المؤرخ فى ٨٥٩ هـ ؛ فهو وسط مسجد فاخر حول فنائه مجموعة من الأولياء ، و به مدرسة لحفظ القرآن ، ووقفت بقبر الفخر الرازى طو يلاً ، وهو من كبار مفسرى القرآن الكريم ، وصاحب كتاب مفاتيح الغيب ، وكل تلك المدافن فى حجر الجبل وحولهم المزارع والأشجار ، وفى مواسم خاصة يحج الناس إليهم ، و ينامون فى أماكن أعدت لذلك .

وفى المدينة بعض المنشآت التى اختطها الملك السالف (أمان الله) فى شوارع فسيحة أقيمت على جوانبها المبانى المتشابهة من الآجر الأصفر الكبير ، يتوسطها بعض الشجر والزهر ؛ لكنى ألفيت غالبها متهدماً من يد الثوار ؛ فقد كان ذلك الملك مصلحاً طموحاً إلى رفع شأن بلاده ، وكان فى أخريات حكمه ينقل نظمه كلها عن تركيا وألمانيا ؛ و يجاهر بالنفور من الأجانب ؛ و بخاصة الإنجليز لأنه علم بمدى مطامعهم فى بلاده المجانبة للهند ، لكن أولئك انتهزوا فرصة غيابه فى رحلته ، و بثوا الدعوة ضده ، وقام (لورنس) يهب الأموال للعشائر و يشوه سمعة الملك ، وأنه أضحى ملحداً يريد الاعتـــداء على الدين ؛ كما فعل مصطفى كمال فى تركيا بدليل أنه يريد نشر القبعات ، واختلاط السيدات بالرجال ؛ ومحاصرتهم إياهنّ ، ونشر بعض صور الملك وزوجته يرقصان وسط الرجال فى مراقص أوروبا ، حتى قالوا إن المال الذى أنفق فى سبيل ذلك مليون ونصف مليون جنيـه ، وكان (أمان الله) قد نقل كثيراً من العادات والأزياء الأوروبية حتى لبس كثير من أهل هيرات الأردية الأفرنجيـة وظهرت القبعات فاهتاج الشعب الساذج وقام بالثورة وحطم كل ما أقامه أمان الله من إصلاح ، حتى آلات توليد الكهرباء التى رأيناها محطمة هى والأسلاك التى مدت فى أرجاء المدينة ، على أنى كنت أسمع من الكثير نغمة الندم على ما فعلوا لأنهم أدركوا مبلغ وطنيته ولاحظوا مدى بسط النفوذ الأجنبى اليوم ، وإن كان



(شكل ١١٣) حول باب قندهار — أجمل البوابات الخمس لهيرات
والأسوار من الطين ، وعلوها خمسة عشر متراً

خفياً ، وكان يتفقد جنـده بنفسه و يوصيهم بقوله : اعملوا لوطنكم أولا ثم لدينكم ثانياً ثم لأنفسكم ، وكان ذلك مما أهاج عليه المولاه رجال الدين لأنهم فهموا أنه يريد القضاء على شعوذتهم كما فعل مصطفى كمال .

وكان يسترعى نظرى كثرة السحن الصينية وأولئك من التركان إذ أن جزءاً من التركستان داخل فى حدود الأفغان ، وتركستان الروسية على مسيرة أربع ساعات من هيرات فقط ، وهؤلاء يتكلمون لغة خاصة وأعجب ما فى لباسهم غطاء الرأس فهو للرجال كرة هائلة من الوبر أو الصوف الأسود المنفوش وللنساء شبه أسطوانة كبيرة القطر لكن ارتفاعها لا يعدو عشرة سنتيمترات تكسى بالقماش الملون . والأفغانيون طيبو القلب . إلا أنهم على شىء من الجفاء فى الحديث والخشونة فى اللفظ وعالبهم سذج لايزالون على فطرتهم . و يبدو أفتقار البلاد إلى المال من بساطة دور الحكومة وما فيها من أثاث لا يكاد يعدو ابسط تفرش و يجلسون عليها فى حلابيبهم وأمام مدخلها الأحذية الغريبة تراها تصف فى شكلها البدوى و بعضها

لعلية القوم ملونة مزركشة (بالقصب) كذلك رجال البوليس والجيش فهندامهم مختلف بعضهم بالجلابيب والبعض بالحلل المهلهلة ، وعلى رءوسهم قبعات فطساء من أمام ومن خلاف ، وفى قبعة الضباط ذؤابة من جدائل لامعة تتدلى إلى اليمين من وجوههم . وقد زرت رفقة صديقى الألمانى رئيس الشئون الخارجية (مأموريتى خارجى) ويجب على كل زائر أن يمر عليه ليتسلم منه جواز السفر مؤشراً عليه منه وإلا لا يسمح له بالخروج وهم هنالك كثيرو الشك فى الوافدين والراحلين تسلمو الجواز منى بمجرد دخول السيارة البلدة وحفظوه فى (النظمية) وعند السفر كان لابد من الذهاب لتسلمه من رئيس الخارجية . هنالك قدمت خطاب التوصية فأحسن استقبالنا وشربنا الشاى ، وبعد القدح الثانى نكسته فى الطبق بعد أن أبقيت فيه جانباً فسألنى رفيقى الألمانى عن سبب ذلك فأفهمته ففعل مثلى وبعد أن تسلمنا الجوازات ضرب المأمور معنا موعداً أن يوافينا عصراً لزيارة بعض أماكن هيرات بمعاونته فشكرناه وانصرفنا على أنه لم يف بوعده ولم يعتذر فلم يرقنا منه ذلك رغم ثقافته ومكانته فى بلاده .

لبثت أقيم على مضض منى فى هيرات انتظاراً لسيارة وفى كل يوم يؤكد لى صاحب (الجراج) أن السفر (فاردا) أى غداً ، وفى اليوم الخامس قمت صوب قندهار وبعد مسيرة يوم فى تلك الأرض الجبلية المقفرة تعطلت السيارة ولم نقطع ثلث الطريق ، وفهمت أننا سنقف حيث نحن طويلاً وإذا بسيارة راجعة إلى هيرات وهى تنقل سلعاً تجارية ففضلت أن أعود فيها لأنى خشيت فوات الوقت علىّ وفى هيرات مكثت يومين آخرين رفقة زميلى الألمانى وكنا نجول سوياً ونجلس فى المطعم نتناول الشاى ومن حولنا بعض أهل البلدة ، وقد بلغت بهم سذاجتهم أنهم كانوا كلما رأوا معنا شيئاً أحبوا أن يهدى إليهم وحتى الكوث (الشبشب) طلبه أحدهم منى وأصر على أخذه ، وكانوا يسألوننا بعض صور السيدات فقط فقدم لهم (باسفتس) بعض صوره هو فرفضوا وقالوا ما لنا وهذه نحن نريد صوراً لسيدات



(شكل ١١٤) بقايا منشآت (أمان الله خان) والى جانب
أحد تلك الأبواب المفتحة أمضيت أسبوعاً كاملا

جميلات ، وكانوا يشربون جميعاً (النرجيلة أو الشيشة) و بعضهم يمضغ مسحوقاً أخضر من مركبات خمسة أو أكثر عرفت منها الطباق والجير والملح والزرنيخ و يظلون يبصقون بشكل منفر بصاقاً أخضر كريهاً .

أما رفيقى باسفتس فرجل واسع الاطلاع يتجول لحساب حكومته و يعمل على توطيد العلاقات بينها و بين البلاد التى يزورها وهو يجيد عشر لغات ومعه من الآلات الكاتبة وآلات التصوير الدقيقة شىء كثير وقد قص علىّ أنه كاد يفقد حياته لما أن دخل الحرم فى مشهد ، ولم ينقذه من المسلمين إلا شهادة ابتاعها من علماء طهران تقول بأنه مسلم ، وتلك يعطيها عالم خاص هناك لكل من طلبها مهما كانت ديانته مقابل دفع عشرين توماناً (أى نحو جنيهين ونصف) فأبرزها لهم وادعى أنه مسلم فعفوا عنه ، والأفغانيون شديدو التعصب أيضاً ، وقد حاول دخول مسجدهم الجامع فى يوم الجمعة فأبوا عليه ذلك ، وكان المسجد مكتظاً بالمصلين وكانت جميع الأعمال معطلة لأنهم يحترمون يوم الجمعة احتراماً كبيراً .

قمت صباح ٢٩ أغسطس أتوقع خبراً بالسفر من رب (الجراج) شأنى فى

كل يوم ، وقد نفد الصبر وملات البقاء هنالك و إذا بسيارة كبيرة تقف أمام المطعم يناديني صاحبها فاستبشرت وودعت الرفيق الألمانى الذى كان ينتظر سيارة إلى كابل وركبت برفقة وفد من المسافرين يقصدون مشهد وفى طليعتهم (مولاه) أفغانى الأصل ، لكنه يقيم الآن فى مشهد . رجل وقور نال منه الشيب وأرسلت لحيته تحت فمه الكبير وأنفه المنتفخ الغليظ ، و بعد أن قرئت الفواتح والدعوات وانهال الناس على يديه تقبيلاً تحركت السيارة بسم الله مجراها ، وما كدنا نستغرق ثلاث ساعات حتى اعتراها عطب جوهرى ، و بعد محاولة فاشلة لإصلاحها استغرقت ساعة حمل السائق محور العجلتين (الأكس) رجلاً وكلفه أن يعود إلى هيرات ماشياً على الأقدام ليصلحه و يعود إلينا ، وقد قرر الجميع أنه سيعود فى (بنج ساعات فقط) فقلت : أيقطع الرجل فى خمس ساعات ما قطعته السيارة فى ست ذهاباً و إياباً مما أنبت لى عدم درايتهم بالزمن قط ، ولبثنا ننتظر اليوم كله إلى الصباح . أى : نحو خمس عشرة ساعة ، وكان وقوفنا هذه المرة فى جوار رهط من البدو ضربوا خيامهم بجانب الطريق يجاورهم مجرى للماء فأحاطوا بنا ؛ وسرعان ما أحضروا خيمة أقاموها للنساء من ركبنا ، ثم دعوا فريقاً منا لزيارة خيامهم ، وكانت الداعية هى رئيسة القبيلة عجوز شمطاء قد أحنى ظهرها كرّ السنين ، وقد بدا لنا أنها صاحبة الكلمة النافذة فى كل من حولها . جلسنا وسط الخيام وكان عددها يناهز العشرين أقيمت فى شكل هلال ، وأخذنا نسمع جلبة فى داخلها وحركة اهتمام بأمرنا ، و بعد قليل قدمت لنا (قصعة) ملئت من فطير صب عليه المسلى فى كثرة عافتها نفسى ، و إلى جانب ذلك كثير من الرقاق وكعك أسمر ، تعوز كل أولئك النظافة ، ولم تكد النفس تسيغ الأكل لولا أنه فرض علينا ؛ وكم تعثرت أسنانى فى الحصى والأوساخ ؛ هذا إلى قذارة يد العجوز التى كنت أراها تكنس الأرض بها و بين آونة وأخرى تمخط فيها ، ثم أعدت لنا بعض الفطير بنفسها ، وقد تبين لنا أنهم فقراء مدقعون فأدهشنا هذا الكرم الذى



(شكل ١١٥)　دار البلدية فى هيرات ، ولعلها البناء الوحيد الجدير بالذكر .

لا يفارق البدو حتى فى بلاد الأفغان ، و بعد أن أكلنا نحن الأضياف نقل الإناء إلى العجوز جوارنا فأكلت منه قليلا ثم سلمت ما نخلف لرجال القبيلة فأكلوا جانباً منه وما بقى بعد ذلك حمل إلى النساء داخل الخباء ، وأكثر من ثلث سكان الأفغان من هذا الفريق المتنقل الذين يرحلون بقطعانهم من الإبل والحمير والخيل والأغنام وقد هجمت تلك علينا ونحن نأكل عند الغروب حين وفدت من مرعاها ، فكانت كأنها أليفة مستأنسة ، يقرب البعير برأسه حول وجوهنا كأنه يقبلنا وكأنه ورث الكرم عن سادته . رجعنا إلى سيارتنا وكانت الريح الشمالية تعصف فى شدة مؤلمة فلبثت داخلها أرتعد من البرد الليل كله ، أما سائر المسافرين فلديهم فراشهم وهم يتوقعون ذاك العطل دائماً ، ولذلك تجدهم لا يهتمون لشىء قط ، و يقابلون كل حادث بصبر عجيب . استأنفنا السير وسط تلك المتسعات شبه الصحراوية حتى وصلنا اسلام قلعة وتعطلنا خمس ساعات بسبب تلكؤ الموظفين ، وذلك أمر ألفناه من قبل ثم جزنا الحدود الفارسية ، وفى كاريز فتشت أمتعتنا وواصلنا السير حتى خيم الظلام فاضطررنا للوقوف حيث كنا لامضاء الليل لأن مصابيح السيارة أصابها العطب والسير فى ضوء القمر فى تلك الطرق الرديئة

خطير جداً فسحب كل فراشه ولبثت أنا أرصد النجم وسط قر البرد حتى الصباح . حين قمنا مبكرين نشق سهولا مهملة إلا فى بعض بقاع رأينا بهـا القطن فى نوره الأصفر البديع ولم يعدُ علوه القدم الواحدة مما يشعر بضعف نتاجه هناك ، والقرى التى كنا نمر بها صغيرة نادرة والأراضى مهملة إلا فى زراعة البطيخ والشمام ، وهذا جيد ورخيص كنا نشترى بخمسة مليمات ثلاث شمامات أو أقة من (الأنجور) أو العنب الذى تشتهر به البلاد ، وكثير منه (بناتى) بالغ الحلاوة ، وكنا كلما مررنا بقرية أقبل أفواج من أهلها يقبلون أيدى الشيخ (المولاه) ويطول الحديث بينهم وكان يزورهم أحياناً فى بيوتهم ، وكلما مررنا ببلدة بها ولى قصد إلى زيارته ونحن له منتظرون فلم أطق صبراً على هذا العطل الممض فأعلنت احتجاجى وكان الشيخ يفهم شيئاً من العربية فكان كل ما يقوله هو وسائر المسافرين (صبر كون) أى اصبر لكنى لبثت مظهراً الامتعاض حتى أثر فيهم وسرنا هذا اليوم بدون توقف حتى أقبلنا على مشهد الساعة التاسعة مساء وكلما هموا بالتوقف للاستراحة صحت غاضباً بالفارسية (راحات لازم نيست) وأول ما بدا قبس من أضواء المدينة المقدسة صاحوا جميعاً (لاهم سلى ألى مهمد آل مهمد) ثم قرأ العالم دعوات طويلة جلها مدح فى الرضى ، ولعنات على من قتله ، ثم أخذ كل يناول السائق بعض انعامه وكنا كلما تقدمنا نحو المدينة فى سيرنا البطىء على قبس مصابيح السيارة الفاترة تنكشف أنوار الحرم حتى بدا متلألئاً بالثريات التى تكاد تكسو مآذنه وقبابه كلها ؛ وتظل كذلك طوال الليـل على الدوام ، فيبدو مشهدها ساحراً . ثم مررنا بمخفر البوليس عند مدخل المدينة حيث وقفنا للتأشير على جوازاتنا وأخـذ رجال البوليس يتلكأون حتى ناولهم السـائق بعض ما تيسر وهكذا كان (القران) هو المذلل لكل الصعوبات فى تلك البلاد ! ونمت ليلتى فى النزل نوماً عميقاً وكنت أشعر بحمى خفيفة من أثر ما أصابنى من برد الليلتين السابقتين .



(شكل ١١٦) المسافرون يتأهبون للرحيل عن هيرات
بعد أن انتظرنا تلك السيارة أسبوعاً كاملا

وفى الصباح زرت صديقى (أمين غنيمة أغا) وهو بيروتى على جانب كبير من كرم الطبع ورقة الحاشية يتجر فى مشهد فى شئون الحاكى (الجرامفون) ويحبه القوم حباً جماً ، وكانت معرفتى به يوم حللت مشهد لأول مرة ، فبينما كنت أسير فى الطريق وإذا بشاب مهذب ينادينى بالعربية وهو يحب مصر ويشيد بذكرها وحوله زمرة من السوريين يتجرون فى السيارات ولوازمها ؛ ويربحون من وراء ذلك ربحاً طائلاً ، وفى الحق أن الشعب السورى لنشيط يسعى وراء الرزق فى أقاصى الأرض ولا ينسيه حنينه لوطنه المادة والمال ؛ فهو يقيم حيث يطيب له العيش ولا يقنع بالقليل زهداً فى التغرب والنزوح بعيداً عن بلاده ، ولقد كنت من قبل أسىء فهم السوريين لما كنا نراه من شرذمة نفعية ممن يعيشون منهم فى بلادنا ، ولكن تلك أقلية لاشك توجد فى كافة شعوب الأرض مهما سمت .

الى طهران ثانية : قمت فى سيارة صغيرة جديدة ؛ فكان حظى موفقاً هذه المرة ، إذ سرنا فى سرعة مدهشة عوضت شيئاً مما سلف فقطعت المسافة كلها فى يومين بالضبط ، وكنا نسير النهار من مشرق الشمس إلى مغربها ونستريح الليل

وقد بدا طريق خراسان ممهداً بالنسبة لطرق الأفغان الوعرة ، لكن لم تخل رحلتي هذه أيضاً من تنغيص ؛ هو التراب الذى أفسد على كل شيء مزاجي وملابسى ، لذلك كنت أضطر للوقوف مرة كل ساعتين أغسل وجهى بالماء ، وأكثر من النصف الأول من الطريق سهول تحفها التلال فى الآفاق ، وتكثر بها القرى ، وتزرع بها بقاع متفرقة ، وهنا أرض التركمان الذين كانوا نذير الفزع وقطاع الطرق ، وكانت تخشاهم حتى الحكومة نفسها ، فكم أبادوا من قوافل ، ونهبوا من متاع وأموال ؛ لكنهم اليوم عادوا أطوع للحكومة من سائر الطبقات بفضل شدة الشاه الحالى الذى ضرب على أيديهم وأخذهم بالقوة ؛ فأينما سرنا كنا نرى محاط البوليس بأسلحتهم الكاملة ، والإيرانيون يفاخرون اليوم بأن الأمن سائد فى جميع بلادهم رغم ما فيها من مخابئ ومفاوز .

ويقولون بأن الشاه يمر بنفسه على الحكام ومخافر البوليس متخفياً فى الليل والنهار مهما بعدت أطراف الإقليم ليقف بنفسه على ما يجرى ، ولا يترك صغيرة تنفذ فى البلاد كلها دون أن يجيزها بنفسه ؛ حتى ترقية الضابط أو الموظف الصغير ، وكان يرافقنى فى السيارة شيخان عراقيان وسيدة وفدوا للحج إلى مشهد ، وكانوا كلما مرت بنا سيارة تحمل الحجاج يصيحون عالياً (التماس دعاء) ولقد عجبت لكثرة تلك السيارات ؛ فقد أحصيت فى سبع ساعات من الليل ثلاثين سيارة كبيرة متوسط حمولة كل واحدة عشرون شخصاً ؛ أعنى نحو مائة سيارة فى كل يوم ، بها ما بين ١٥٠٠ ، ٢٠٠٠ من الحجاج يفدون إلى مشهد . مع العلم بأنا لم نكن فى موسم الزيارة ؛ فأدهشنى هذا الإيمان العجيب فى الرضى ومكانته السامية من قلوبهم ، وكثيراً ما سألنى رفقاء السفر (أفى مصر شيعيون ؟) فأقول كلا وعندئذ يبدون علامات الأسف . ويرمقوننى بنظرات كانت تنم عما تكن قلوبهم لنا من لعنات .

استرحنا ليلتنا الأولى فى (سبزوار) وهى عاصمة ولاية كبيرة وفى ظهر اليوم



(شكل ١١٧) جباة الضرائب خارج أسوار هيرات ، وترى
أكداس النقود أمامهم ، إذ ليس فى البلاد نقود ورقية

التالى وقفنا قليلاً (بشاروت) وهى شبيهة بسابقتها ، وبعد (سمنان) وهى من العواصم الكبيرة ، انتهت السهول وبدأت الربى بتعقيده الشديد فأخذنا نصعد ونهوى فى ليات مخيفة من دونها الهوى والوديان السحيقة ، تتوسطها مجارى الماء ومن حولها الشجر والقرى وقد كان البرد شديداً ، وبدت بقع من الثلج الأبيض فوق الذرى ، والثلج يكسو بلاد خراسان كلها وغالب بلاد فارس مدى ثلاثة شهور الشتاء ، وفيها يكون البرد قارساً والسير فى الطرق متعذراً لأن جوها قارى متطرف شديد الحر صيفاً قارس البرد شتاء . ومن هذا الثلج وما يجمد من النقائع يدخرون جليد الشرب (ياخ) فى سراديب عميقة فى الأرض ، تفرش بالغرائر (الخيش) ومن هذا تستمد المدن والقرى مرطبات الصيف . وإننا لا نكاد نمر فى طريق أو قرية إلا ونرى الصبية يحملون الماء والثلج فى كتل غير مشذبة تمازجها الأتربة والاوساخ وهم دائماً ينادون (آب ياخ) أى (الماء المثلوج) وهو زهيد القيمة جداً . ومن أعجب المناظر فى طهران الحمالون الذين يسيرون وعلى ظهورهم

كتل من الثلج فى حجم الصخرة الكبيرة يكسوها القش والأتربة يسير الرجال بها وئيدا وهى تقطر ماء من جميع جوانبها ، ويقولون بأن هذا الثلج خير للصحة من الثلج الصناعى .

هبطنا آخر الربى فبدت طهران وسط صحراء مجدبة فى بقع متفرقة خضراء كأنها الواحة ، وقد شعرنا بأنها أدفأ جداً من أرض خراسان . استرحت فى طهران يومين زرت فيهما بعض مساجدها الفاخرة بقبابها المتعددة ومناراتها القصيرة ثم البرلمان المتواضع ، وكنت أمضى كثيراً من وقتى فى دار المفوضية المصرية وهناك كان يؤنسنى آلها بما جبلوا عليه من الخلق النبيل والطبع الكريم وكم أسدوا إلىّ من خدمات سهلت لى كل عسير ، ورجال المفوضية على جانب عظيم من الإخلاص والجد والخلق العظيم يمثلون مصر فى تلك البلاد الإسلامية تمثيلا مشرفاً يشيدون بمجد مصر ويقومون لها بدعاية طيبة ، وللسفارة داران أحدهما فى وسط البلدة وبها دار لوزيرنا الهمام ينزلها شتاء ، ومنزل الصيف فى ضاحية تسمى (شمران) فى حضن جبل (دماوند) ويقطنها طبقة الارستقراطيين والأغنياء والسفراء ، والداران من القصور الفاخرة التى تدل على الفرق الشاسع بين ما كان عليه الحكام والارستقراطيون — وهم أقلية فى قوم فارس — من البذخ والرفه ، وبين ما كان عليه العامة من البؤس والشقاء ويخيل إلىّ أن همهم كان ابتزاز المال من الناس والاستمتاع به دون أن يعنوا بشئون العامة كثيراً ولا قليلاً وكان يعرف عن حكام فرس أنهم يعينون بكثرة ما يدفعون للشاه وللحكام والوزراء من مال وكانت كل الوظائف تباع ، وبعد قليل يوقف الموظف ليولى بدله ، على أن المرفوت يخرج موفور المال رغم قصر مدته فى العمل ويقص البعض أن أحد الولاة هناك بكى ليلة ، ولما سئل عن ذلك قال بأن النهار قد انقضى ولم يزد ما جمعه على ألف جنيه فقط . وكان يؤيد هذا لدىّ ما رأيته .

فبعض تلك القصور قد بلغت من الوجاهة حداً لا يكاد يرى فى الممالك



(شكل ١١٨)   الميدان الرئيسى فى رشت

الأخرى ، بينا ترى سواد الأمة فى أجحار وأقبية من الطين ليس فيها وسائل الراحة أو شئون الصحة ، حتى شهر عن الفرس التقشف وأنهم لا يعنون بوسائل الراحة والترف كما يعنى بها الأوروبى ، وقلة وسائل الترف لا تؤثر على كرامتهم أو سمعتهم فى نظرهم ، وهم يعدون ذلك فضلاً يجب على الغربيين أن يتعلموه عنهم .

الى بحر الخزر : قمت صوب شمال طهران لأرى الجزء الشمالى من إيران ، وما كدنا نخرج بوابات المدينة — وبوابات طهران فاخرة تؤدى منها إلى جميع الجهات ، ، وهى أخص ما يسترعى نظر السائح هناك — حتى استوقفنا البوليس كعادته ، ولما رأى الجواز قال هذا لا يكفى ولا يباح الخروج من طهران إلا بتذكرة من (النظمية) قلت : ولكنى سائح سأغادر بلادكم قال : هذا لا يكون ولا بد من العودة والحصول على الترخيص المطلوب ، وكان رفيقى فى السيارة من كبار الموظفين ، فتعاونا على إفهام رجال البوليس بأن تأشير النظمية موجود وأروهم طابعاً فيه ، وبعد جدل طويل غلبتهم حيلتنا وجزنا المنطق ، وقد ساعد على ذلك جهل البوليس ، فهو هناك لا يكاد يعرف القراءة .

لبثنا نسير من السادسة مساء إلى الأولى صباحاً . وقد تعب رفيقى وكان

أحدهما طالباً فى بروكسل وهو عائد لاستئناف دراسته عن طريق بحر الخزر والروسيا ، واضطررنا أن نوقف السيارة وسط الطريق ونمنا ونحن قعود بها ، وأدهشنى أن رفيقاى قد شعرا بارتباك فى المعدة أعقبه قىء من أثر ارتجاج السيارة فأذكرنى بمرض البحر وما كان يسىء إلى يوم كنت حديث عهد بركوبه ، ومسافة الطريق إلى بحر قزوين ستون فرسخاً — أى نحو أربعمائة كيلو متراً .
كانت المناظر فى النصف الأول منها مألوفة من ربى تحوط متسعات من أرض مهملة ، وما كدنا نوغل فى النصف الأخير حتى زادت عقد الجبال فى صخرها الأغبر المنحل ، وغالبه من الجير الذى اسود بمضى السنين وكثرت الالتواءات الأرضية وزادت طياتها ، وكنا نشاهد ذلك فى جوانب الجبال واضحاً وأخذ الطريق يعلو ويهبط ويلتوى على نفسه مرات متعاقبة فى وعورة لم نعهدها من قبل وقبيل:

الرشت : بنحو خمسين كيلو متراً أخذت صفحة الجبال المعقدة تتغير معالمها إذ كساها الشجر القصير فى تفرق أعقبة تلاصق عاجل ، وما نشعر إلا ونحن نوغل فى غابة كثيفة أذكرتنى بمناطق الغابات الصميمة فى إفريقية ، وكنا نجانب وادى نهر يسمونه (النهر الأبيض) فى اتساع عظيم وهو يتلوى ليات متعاقبة وسط تلك الجبال اللانهائية ، وكل أولئك جبال البرز المعروفة ، أما ماء النهر فكان آسناً ؛ إذ يفيض بالماء إبان الشتاء حين تكثر الثلوج التى تمده بالماء ، ولقد ظلت المناظر رائعة ساحرة خلاف ما عهدنا فى ربى إيران المنفرة التى عريت كلها عن النبت ، ونضبت مياه مسايلها . وكان منظر بعض الوهاد بقراها كالمناظر التى شاهدتها فى بعض جهات اسكندناوة ، أو سويسرة ؛ على أن الشجر مختلف فليس لأشجار الصنوبر من أثر حتى فى أعالى الذرى ، وكله من أسجار البلاد الحارة وتكثر حولها الطفيليات النباتية والأعشاب المتساقة التى تسد الغابة سداً ، ولذلك يطلق القوم عليها كلمة (Jungle) الإنجليزية .

وكلما قاربنا الرشت بعدت عقد الجبال وانفسح السهل وغص بالقرى والمزارع



(شكل ١١٩) على شواطئ بحر الخزر فى بهلوى

لتى شهرت من أجلها البلدة وبخاصة فى الأرز والطباق وهذه الناحيـة أشهر بلاد فارس فى الزراعة ، والطباق اليوم آخذ فى الزيادة هناك على حساب الأرز وقبيل الساعة العاشرة صباحاً دخلنا (الرشت) التى كانت عاصمة بلاد الديلم قديماً وهى اليوم عاصمة مقاطعة جيلان ، بدت مدينة عامرة كبيرة أخف روحاً حتى من طهران نفسها ، وأرضها أنظف وأهلها أكثر حركة ورشاقة ، وقد حاكت المدن الأوربية ويظهر أنها تأثرت طويلاً بالروس يوم كان لهم النفوذ فى هذه المنطقة ، لذلك كانت جموعهم كثيرة فى البلدة نساء ورجالاً ، واللغة الروسية منتشرة بين الجميع إلى جانب الفارسية ، وغالب مبانيها من طابق واحد تظهر وكأنها أقيمت كلها من جديد ، والبيوت ذوات سقوف متحدرة يكسوها الآجر الأحمر خلاف ما شاهدناه فى سائر جهات فارس ، ذلك لأن مطر المنطقة غزير جداً يفوق مقداره المتر ، ويظل المطر أكثر من ثمانية شهور وبخاصة فى شهور الشتاء . ولم تخل السماء من الغيوم ساعة واحدة ، وكان الجو أميل الى الرطوبة وسببها ريح سائدة تهب شمالية غربية من بحر الخزر على تلك المرتفعات فتغرقها مطراً وتكسو ذراها ثلجا ، وفى الشتاء تزيدها أعاصير البحر الأبيض التى تندفع من قزوين إلى بحار

الهند الدفئة ، وخفيفة الضغط حتى فى هذا الفصل الجاف ، لذلك قل بها التراب الذى كان ينغصنا فى بلاد فارس كلها ، وكان جوها لطيفاً محتملاً عن طهران إلا إذا انكشفت الشمس عن الغيوم فعندئذ يصبح الحر شديدا ، على أن الجهة تعرف بكثرة الحميات فى جوها غير الصحى بسبب الحرارة والرطوبة معاً ، وقد زادها حراً انخفاض سطح بحر الخزر وهو أوطأ من مستوى البحر الأسود ٨٤ قدماً لذلك يجرى القول على لسانهم هناك : ماذا أذنب فلان حتى يولى حاكماً على الرشت : على أن حظى كان موفقاً إذ كانت أيامى هناك أجمل أيام قضيتها فى إيران كلها . وبالمدينة مجموعة من متنزهات منسقة أنيقة تقوم بها المقاهى الحديثة ، وفيها يسمع المرء الموسيقى الشجية ، وقد اختلطت الأنغام الفارسية بالروسية وكلاهما مما تستريح له آذاننا .

أقلتنا السيارة إلى بهلوى على شواطئ بحر الخزر — ولا يسمونه هناك بحر قزوين قط — والمسافة أربعون كيلو متراً ، فكان الطريق يتلوى وسط الأحراش الكثيفة المغلقة التى حاكت الأحراش التى رأيتها فى بنغالة فى بلاد الهند ، ويقولون بأن فيها كثيراً من الحيوان المفترس خصوصاً النمر ، ومن أعجب ما رأيت فى الطريق كثرة الكروم البرية التى كانت تنمو فى كل مكان ، ويقول البعض إن كروم أوروبا جاءت عن تلك الناحية وعن القوقاز . أخذ الشجر يقل كلما قاربنا البحر حتى انعدم واضحت السهول تكسى ببساط من خضرة إلى البحر ، وكنا نرى بيوت القوم أخصاصاً من أعواد الخشب يكسوها القش الثقيل فى شكل مخروطى أو منحدر السقوف . فذكرت مساكن الغابات الاستوائية على ضفاف فكتوريا نيانزا تماماً ، والقوم يستأصلون الأحراش من مساحات يزرعونها من الأرز والطباق والقطن والكتان والعمل يقع كله على السيدات اللاتى كن يظهرن فى ملاءات بيضاء ناصعة ، وقد استرعى جمالهن نظرى : فهو مخالف للسحن الفارسية البحتة ، ويظهر أن اختلاط الروس بالفرس هناك أكسب أولئك جمالاً . عالج كبر الأنف



(شكل ١٢٠) تبدأ دخول الغابات الكثيفة حول بحر الخزر

الفارسية ، وأشرب اللون الفارسى الأبيض الناصع بعض الحمرة الروسية الجذابة . والناس فى تلك الجهة يمونون أنفسهم بكل شىء من عمل أيديهم وحتى الملابس ينسجونها ويربون دود القز .

والمنطقة المجانبة لبحر الخزر إلى شمال جبال البرز كلها كثيفة الغابات من مقاطعة (مازندران) شرقاً إلى أذربيجان غرباً ، وسكانها يفوقون مائة ألف ، وكل تلك السهول من مخلفات بحر الخزر الذى كشفها وهو آخذ فى النقص من أثر البخر الشديد . أخيراً دخلنا : (بهلوى) ، فكانت بيوت الفقراء أخصاصاً على نمط تلك التى فى الغابات يحوطها سور من غاب وحولها حدائق لا بأس بها ، وعلى البحر أقيمت الميناء تحفها مجموعة من أبنية غالبها للجمرك ومرسى السفن ، وتصف أزاءها الزوارق للنزهة ، وتلك الجهة تسمى (غازيان) ، وإذا ركبنا البحر أقبلنا على شبه جزيرة تبدو بها المبانى الفاخرة والشطآن المنسقة ، وهذه هى (بهلوى أو أنزيلى قديماً) . ركبت البحر إليها فى ربع ساعة ، وإذا بها آية فى التنسيق والنظافة بيوت فخمة وطرق مرصوفة ومتنزهات عدة . وقد مدت على شاطئ البحر الحدائق والمقاهى ، فكنت وكأنى فى إحدى مدن الرفييرا تماماً ، وفى الحق أن تلك الجهة من فارس فريدة تختلف عن سائر جهات فارس فى كل شىء : فى

طبيعة الأرض وفى الجو وفى النبت ، وحتى فى سكانها فهم أكثر نشاطاً وجمالاً . أما الناحية الخلقية فهى هنا أكثر فساداً ، ولا شك أن للإباحة الروسية المقيتة أثراً كبيراً فى ذلك . قامت الباخرة الروسية من الميناء تقل رفيقى إلى باكو فى ثمان عشرة ساعة ، ومن ثم يستقل القطار الروسى إلى بركسل ، وقد حدثنى طويلاً عن الروس وماهم فيه من بؤس مميت إذ لا يكادون يحصلون على القوت . يجبرون على العمل مقابل تذكرة تبيح للواحد منهم تناول الطعام من مطاعم الدولة وكثيراً ما ينتهى الطعام قبل أن يحصل جميع الناس عليه لكثرتهم فيطردون إلى الغد ، والحياة هناك غالية غلواً فاحشاً حتى لأهل البلاد ، ورقابة البوليس بالغة الشدة ، ولكن رغم ذلك يفد الكثير من الناس إلى البلدان المجاورة هرو باً من ظلم واقع وجوع محيق ، وقد لاحظنا من هؤلاء جموعاً غفيرة فى بلاد فارس والأفغان ، ويقول صاحبي بأن سكة الحديد الروسية القوقازية قذرة جداً . لا يجد الواحد فى الطريق شيئاً يبتاعه قط ليتبلغ به ، ومن الغريب أن الجيش والبوليس وهم نفر قليل يسيرون الأمور على هذا الحيف القاتل ، ولا يستطيع الناس القيام ثائرين لعجزهم وعوزهم ، وأنت تدهش إذ ترى بعض المنتجات الروسية تغرق الأسواق الخارجية ، فالسكر يرد إلى فارس بسعر قرانين للأقة (أى نحو قرشين) ثم يعيده المهربون من فارس إلى روسيا ليبيعوه بعشرين قراناً للروس أنفسهم ، وكذلك السجاير ، وبعض المنسوجات . تفعل حكومتهم ذلك بقصد الدعاية للسوفييت ، ولا أدرى ما قيمة الدعاية لنظام فاسد أهلك الأهاين إلا نفراً قليلاً من السادة هناك .

واليوم فقط (الخميس ٧ سبتمبر) حققت حلماً طالما جال بخاطرى ؛ هو أن أركب بحر الخزر — وهو بحر طبرستان — يوماً وأطوف بسواحله ذات الطبيعة المختلفة من غابات كثيفة تغص بها سهوله الجنوبية إلى غابات جبلية فى غربه إلى كلأ وعشب شبه صحراوى فى شرقه إلى أرض مالحة فى شماله . لكن الشبح



(شكل ١٢١) على مياه بحر الخزر
(وهو بحر قزوين فى عرفنا ، وبحر طبرستان عند القدماء)

الروسى لم يتح لى التجوال كاملاً فلبثت اليوم كله أجول فى مياهه الفارسية وراء ثغر بهلوى ، وقد كان ماؤه أملس هادئاً ؛ على أنه إبان العواصف : يعلو موجه ويضطرب ، وقد تذوقت ماءه فإذا به قليل الملح على خلاف ما عهدت ، فخلت ذلك راجعاً إلى قرب بعض المصاب العذبة من تلك الجهة ، لكن القوم خبرونى أنه أميل إلى ذلك فى كل أرجائه ، ودللوا على ذلك بكثرة أسماكه نوعاً وعدداً ، ولذلك كانت مصائده هامة للدولتين : الروسية والفارسية ، وكانت زوارق الصيد تسد الأفق سداً ، والسمك غذاء رئيسى للناس فهو والأرز عماد الطعام . وكان لهما أثر حسن فى أجسامهم ، فهى هناك ممتلئة عن سائر جهات فارس الأخرى ، إذ لم أعثر على القامات الطويلة والأجساد السمينة إلاّ فى تلك الناحية من بلاد فارس كلها .

أصبحنا يوم الجمعة والجو جميل . والسماء تنتثر بالغيوم المتقطعة ؛ وقد أمضينا ليلتنا فى نزل (سافوى) فى رشت ، وهو يطل على ميدان البلدة الجديدة الذى تمتد منه الطرق المستحدثة البديعة ؛ وتزينه المتنزهات ؛ والمنظر من شرفة النزل



(شكل ١٢٢) خيابان جهار باغ « الحدائق الأربع » فى أصفهان

رائع : السماء تنقشها الغيوم ، والخضرة تمتد إلى الأفاق ، والمبانى حولنا فاخرة ، وجماهير الناس فى أنظف ثيابهم — لأنه يوم الجمعة ؛ يوم الراحة القومية — يروحون ويغدون فى كثرة تسترعى النظر ، ولا يخلو الجمع من طائفتين : الغانيات فى أزارهن الأسود المهفهف والمتسولين الذين يمسكون بتلابيبك يصيحون فى نغمة البائس المتماوت قائلين : أرباب . . أغا . . وأكفهم مبسوطة ، وكثير منهم من يظهر فى هندام نظيف ووجه مشرق مما أثبت أنهم على شىء من اليسار ، لكن التسول أضحى فى القوم عادة متأصلة ذميمة ، وكثير من مبانى الرشت وبهلوى بالخشب لكثرة الغابات حولها ، لذلك نرى فى كل برجاً عالياً يظل فيه الرقيب ليلاً ونهاراً لينذر بالحريق إذا ما بدا دخانه أو لهيبه فى أية ناحية من البلدة .

قمنا فى الأصيل مودعين رشت ومنطقتها البديعة التى تصلح خير مستراض فى الربيع والخريف ، وأخذت سياراتنا تشق الخضرة التى زادت كثافتها تدريجاً وبعد أن قطعنا ثلاثين كيلو متراً بدت جبال البرز ، أعنى أن السهول إلى البحر تمتد سبعين كيلو متراً ، وكانت الأشجار الكثيفة تغطى الجبال إلى أعلى ذراها



(شكل ١٢٣)   قنطرة جلفا — أعجب قناطر الدنيا فى أصفهان

والربى تبدو مدرجة الواحدة وراء الأخرى وسحاب السماء يكاد يلامسها وإن لم يبد للثلج فوقها من أثر ، وكانت طيات الوديان بمائها الشحيح تختفى وراء الربى تارة ، ثم لا تلبث أن تنكشف فى مباغتة تقر لها العين ، وكان المنظر العام ونحن وافدون من الرشت أروع منه لمن يدخل البلدة قادما من طهران ، وظل جلال الغابات حولنا زهاء خمسة وعشرين كيلو متراً ، ثم ندر الشجر وانعدم فجاءة وأضحت عقد الجبال قاحلة منفرة مسافة ذرعها سبعون كيلو متراً كان الطريق فوقها طيات قاسية رهيبة خصوصاً فى ضوء القمر الشاحب وفى سكون الليل الموحش ، وفى باكورة الصباح دخلنا طهران للمرة الثالثة وكان معى موظف كبير فى المالية ومعه أولاده الصغار ، وقد ألفت نظرى أنهم يدللون النشء لدرجة أنك لو كلمت الرجل فى شأن ابنه (حسين) مثلا عاد فكرر الاسم قائلا أبنى (حسين خان) ويبيحون لهم تدخين الطباق أمامهم وهم لم يبلغوا الحلم بعد . ولما أردت أن أتشرف باسم الرجل نفسه قال فى نغمة مضخمة اسمى (أغا على خان) وقد زرت فى رفقته بعض القصور ، ثم كان وداعى لحضرات ممثلينا الكرام فى المفوضية المصرية العامرة ، وقد تناولنا طعام الغداء فى مطعم فارسى بحت يسمونه (لوقانطة)

أمام دار البرلمان وهو بيت لوزير قديم حجراته مزركشة الجدران عليها رسوم بعض ملوك الفرس وعظمائها ، وبها حجرة وسطى يحار اللب فى تعقب نقوشها وزخرفها ، والفناء مكشوف تتوسطه بركة ماء هائلة نسقت حولها الزهور ، وأخص ألوان الطعام الفارسى الأرز الفارسى عليه بعض الأفاويه ويسمونه (بيلوف) . والكباب الشهى المسمى (شيشيك) .

عرجت على (النظمية) لانجاز جواز الخروج من طهران فاضطررت أن أبقى يوما كاملا حتى فاتتنى سيارة البريد التى تقوم إلى جنوب طهران مرتين فى الأسبوع ، وتضييق البوليس فى فارس قد بالغوا فيه فأضحى من أكبر المنغصات على المسافرين حتى من أهل البلاد ، فقمت فى سيارة خاصة رفقة بعض الطلاب وقفوا بنا طويلا فى ناحية تبعد عن طهران بسبعة كيلومترات ويسمونها (حظرت عبد العظيم) على اسم عالم وولى أقاموا له ضريحاً هناك زرته فأدهشنى اتساعه وعظيم زخرفه وفى حجرة منه دفن السلطان نصر الدين شاه فى ضريح من المرمر الشفاف فى خرط بديع ، ويقوم تمثاله ومن حوله عدة علماء تعلق فوق كل منهم صورته الزيتية الكبرى ، وتلك ظاهرة استرعت نظرى إذ لم يكن يباح فى الإسلام إقامة التماثيل ولا وضع الصور المكبرة هكذا ، ويظهر أن الشيعة أكثر مرونة وأميل إلى الاباحة من أهل السنة (وحظرت عبد العظيم) مزار مقدس وبخاصة عند النساء اللاتى يعتقدن أنه يفك عسر العقيم منهن . هناك تعطلت السيارة لأن رفقائى أضافهم للغداء أقرباؤهم ، ولما طال بى المكث صحت محتجاً فتكاثروا على حتى أدخلونى دارهم فاذا هى من الداخل فسيحة مشيدة تتوسطها الحديقة الفارسية وحوض الماء ، وتلك شهرة لفارس من قديم ، وهم يقيمون أوجه أبنية البيت فى مواجهة المدخل وبيت الحريم يبعد إلى الداخل ، وفى غرفة الاستقبال جلسنا القرفصاء على البسط الوثيرة (وصموار) الشاى متقد إلى جانبنا لسقى الأضياف من الشاى الأخضر زكى الرائحة .



(شكل ١٢٤)   من قصر الشاه عباس ، أشرف على
« ميدان شاه » يزينه « مسجد شاه » فى أصفهان

قمنا نشق طريقنا وسط سهول زراعية تربتها سوداء إلى مسافة ثلاثين كيلو متراً ثم بدأت التجاعيد الجدبة المنفرة فأضحى المنظر صحراوياً شديد المحل ، وقد ظهر إلى يسارنا متسع لانهائى من بسيط تكسوه الرمال يختلط بها الملح المبيض وندرت القرى جداً حتى أنا كنا نمر بالقرية الصغيرة كل ساعتين فلا نرى بها مجارى المياه التى ألفناها فى جوانب الطرق من قبل وهى تستقى من عيون أشبه بتلك التى فى الواحات . وقد صادفنا فى سيرنا سيارة البريد التى سبقتنى من طهران ، أصابها عطب فوقفت اليوم كله فقلت فى نفسى : (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) بعد أن أسفت لفواتها أمس شديد الأسف ، و بعد مائة وخمسين كيلو متراً من طهران وقفنا ببلدة (قم) مدفن السيدة فاطمة أخت الامام الرضى و يسمونها (معصومة) وقد أقيم حول ضريحها مسجد فاخر وهو من الأمكنة المقدسة الهامة التى يزورونها فى مواسم معينة .

ومن البلدان التى مررنا بها قاشان وتشتهر بصناعة البسط من الحرير فى جميع الأحجام . استعرضت بعضها فإذا بها آيات فنية . لذلك لم أعجب من غلو أثمانها

فكان بعضها يباع بمائة جنيه للقطعة ؛ على أن الإنسان يستطيع أن يبتاع قطعة صغيرة بمائة تومان (أى : اثنى عشر جنيهاً) ، وقد أردنا إمضاء الليل هنـاك ؛ لـكنهم أخافونا لأنها تغص (بالعقارب) لدرجة مخيفة ؛ حتى أن التجار أنفسهم لا يستطيعون المبيت فيها ؛ فواصلنا سيرنا الليل كله ، وفى الصباح أقبلنا على :

أصفهان : أو أصبهان (وطن أبى الفرج الأصبهانى صاحب كتاب الأغانى وكثير غيره من أهـل العلم والأدب) ، بعـد أن قطعنا نحو خمسمائة كيلو متراً فى اثنتى عشرة ساعة فألفيناها فى حجر جبل من دونه سهول مترامية فى تربة سوداء غنية بمزارعها على أن مدخل البـلدة مترب منفر لا يوحى بشىء من العظمة التى خبرونى عنها هنالك ، ثم حللت نزل (أمريكا) الجميـل الذى يطل على أهم شوارع البـلدة ويسمى (خيابان جهار باغ) أعنى طريق الحدائق الأربع وهو فى امتداد عظيم واستقامة تـكاد تشق المدينة كلها وتعبر النهر وتمتد إلى ضاحية (جلفا) وكأنه ثلاثة طرق متجاورة الأوسط الفسيح تحفه أشجار الشنار الهائلة وهى متجاورة تـكاد تظل الطريق كله يجانبه طريقان آخران أقل سعة وبينهما وبين الاطارين شجر يماثل الأوسط ، وفى مجاورة صفوف الشجر مجارى المياه المألوفة فى بلاد فارس كلها وهو مستراض الناس طيلة اليوم وبخاصة عند الأصـيل حين يغص بالغانيات يتلمسن من المـارة رفيقاً ، وتطل على وسطه مدرسة (جهار باغ) الدينية تحت قبة زرقاء بديعة تمتد حولهـا الألونة فى طابقين لإيواء ١٦٠ من طلاب العلم وفيها يتخرج المولاه ، وواجهة أحد المداخل آية فنية فى نقوشها وزخرفها الفارسى البديع أقامها الشاه حسين سنة ١٧٦٠ ، وفى أحـد طرفى الطريق قنطرة جلفا التى تسـترعى النظر ببنائها العجيب تقوم البوائك والمقاصير على جانبيها ؛ فتتخذ مأوى لمن أراد وتتدلى خلال بعضها درجات تؤدى إلى بطن الوادى الذى لا يكاد يجرى به ماء إلا فى نقائع ضحلة آسنة لا تمنع المرور إلى الجانب الآخر ؛ مع أن النهر أكبر أنهار فارس كلها ويسمونه (زندة رود)



(شكل ١٢٥) أمام واجهة مسجد الشيخ لطف الله
بنقشها الرائع — اصفهان

الذى يصب فى مستنقع داخلى اسمه (هامون) ، ويخال البعض أنه هو الذى أغرى الشاه عباس أن يقيم عاصمته (أصفهان) على ضفافه ، ويقول بعض الكتاب عن تلك القنطرة انها أفخر قناطر الدنيا وأبهاها وقال عنها (كرزون) أنها وحدها خير مبرر لزيارة بلاد فارس . على أنى لم أر فيها من هذا الجلال شيئاً ، اللهم إلا أنها غريبة فى نظامها وهندستها ، وكان يخصص أحد جانبيها لمرور النساء والجانب الآخر للرجال ، وعلى الجانب الآخر من القنطرة ضاحية جلفا وهى مأوى لطائفة من الأرمن المسيحيين الذين خدموا السلطان عباس و بقيت لهم ولذراريهم إلى اليوم وهى أنظف فى مجموعها من أصفهان نفسها ، تتوسطها الكنيسة الرئيسية الهائلة فى الهندسة الايطالية البديعة التى بدت غريبة وسط بلاد فارس وفنها الشرقى البحت .

وفى وسط أصفهان (ميدان شاه) موضع شهرة أصفهان وهو فناء مستطيل الشكل فى امتداد لانهائى يشعر بالعظمة حقاً يتوسطه حوض ماء كأنه البحيرة العظيمة ، و يطل عليه من وسط أحد جوانبه (آلى كابو) أو الباب العالى مسكن

الشاه عباس وهو شاهق أقيم فى سبعة طوابق يرتقيها المرء بسلم حلزونى و يرد كلا منها بليات وسراديب عجيبة بعضها كالتيه كان الغرض منه اخفاء طريق الهروب ان دعت الحاجة . والجدران كلها نقوش بالذهب والألوان التى يخالها الواحد مورقة ، والطابق السادس أعد لسماع الموسيقى وجدرانه مخرمة إلى سقفه فى أشكال آلات الطرب على اختلافها ، وفى الطابق الثانى شرفة يسمونها (تالار) أقيمت من خشب على عمد مزركشة ، وفى وسطها حوض ماء أنيق كان يرده الماء فى أنابيب أرسلت من جبل شاهق فى طرف المدينة ، وفى مقابل القصر مسجد الشيخ لطف الله أقامه الشاه أحياء لذكر ذاك العالم ، وهو عبارة عن قبة لا مآذن له أقيمت على مجموعة من أقبية جوفاء تتخذ مقراً فى الصيف ، والقبة بولغ فى نقشها بالقيشانى الأزرق فى اتقان فائق تطوقها الآيات الكريمة فى خط بالغ الحجم ، وتحف بأركانها جدائل من الفيروز و يكسوها الزخرف من خارجها أيضاً ، فهى فى مجموعها قطعة فنية فى رواء خيل إلىّ أنها صنعت اليوم ، و إلى يمين القصر يطل على الميدان (مسجد شاه) ، وهنا يعجز قلمى عن وصف آياته الفنيـة فى النقش والزخرف الذى بالغ فيـه مبدعوه : قبة هائلة أقيمت على عمد ومن حولها مجموعة من الأقبية تحوطها الألونة تتوسطها أحواض الماء ، وتقوم على جوانبها الحجرات وكل أولئك يكسى بالقيشانى من داخله وخارجه فى نقوش وقفت أمامها مبهوتاً ، فهو حقاً أجمل مساجد إيران جميعاً يأخذ بلبك خصوصاً إذا ما أقبلت على واجهته الزرقاء التى تعلوها مئـذنتاه الدقيقتان الزرقاوان ، ومن نقطة وسط المسجد إذا ضربت الأرض أو صحت ردد الصـدى صوتك بشكل متكرر ومرتفع يسمع كأنه قهقهة عالية ، وفى قبالة المسجد من الجانب الرابع للميدان مداخل الأسواق ، وهى أيضاً تـكسى بالقيشانى مما أكسب الميدان جمالا مقطوع النظير ، وتروقك جلسة من شرفة قصر الشاه (تالار) تشرف على كل أولئك وأنت مأخوذ من عظمة ما ترى ، مشهد يخدع المرء فيوحى إليه بأنه أضحى من ملوك الأرض الجبابرة و يذهب



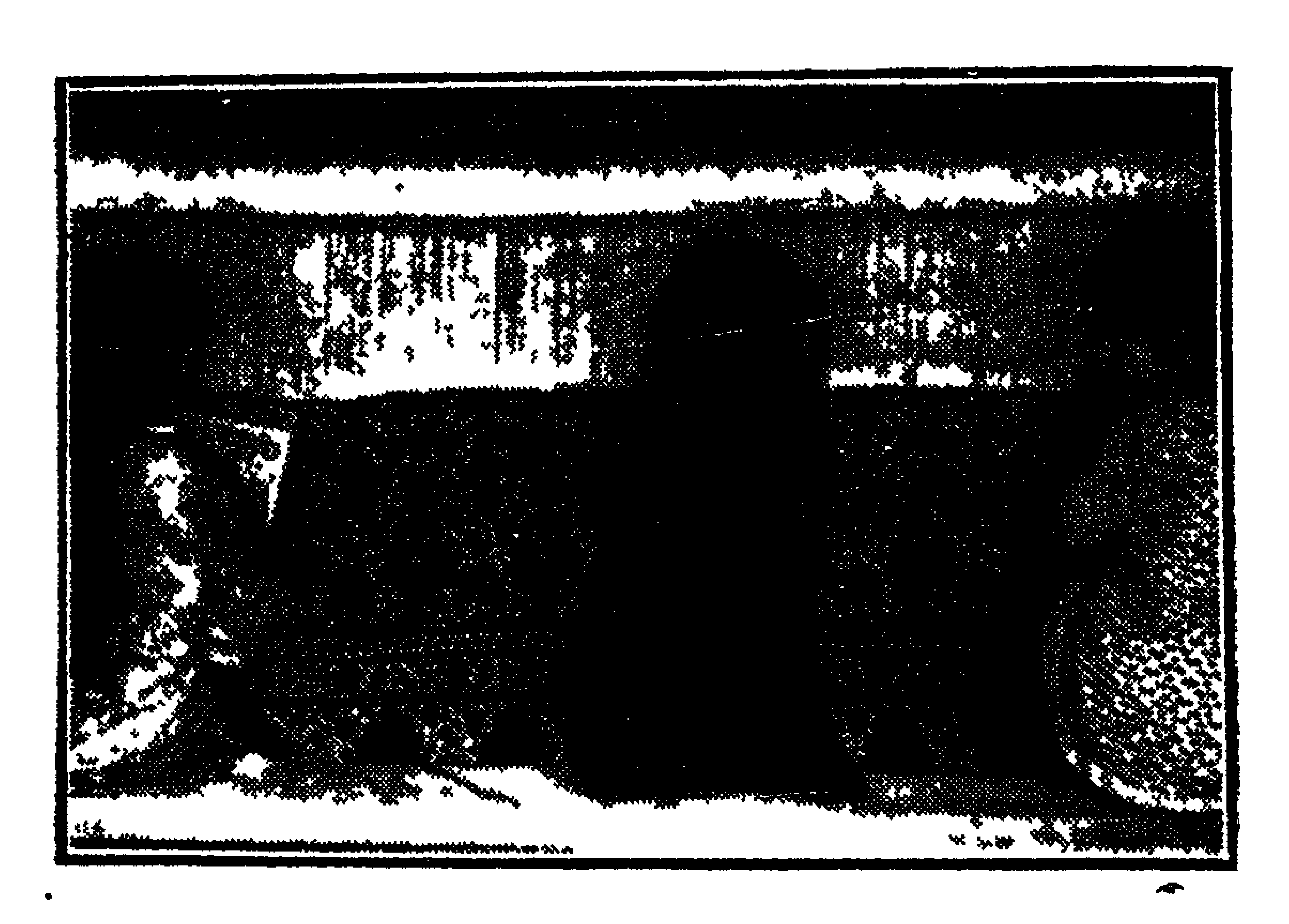
(شكل ١٢٦) (شهل ستون) بهو استقبال الشاه عباس وتنعكس
أعمدته على حوض الماء من دونه

بخيال الواحد إلى يوم الشاه عباس وما كان عليه الاقليم من عظمة ورهبة ، وقد نال منه الدهر اليوم فأخفى من روائه الكثير ، وجعل رواده من فقراء السابلة وجماهير المتسولين بعدأن كانوا من علية القوم وعظمائهم فسبحان مغير الأحوال . كان الشاه يجلس في تلك الشرفة يستقبل الأضياف والسفراء والعظماء ، و يشاهد حاضرة ملكه وما فيها من حركة ونظام . يمر أمامه الجند يستعرضون من ثكناتهم التي تطوق الميدان كأنها سور من بوائك مزركشة . وكانت تقام الحفلات الرسمية ، ومن أجلها حفلة عيد النيروز رأس السنة الفارسية ، وكانوا يشاهدون بها مختلف الألعاب ومصارعة الحيوان والحواة والفرسان . وقد احتذى كثير من الملاعب الأوربية حذو ملهى الميدان الفارسي ، وهنا لعبت كرة البولو لأول مرة أمام الشاه وكان معاصراً للملكة اليصابات في انجلترا — وكانت تلك اللعبة معروفة للفرس منذ القدم حتى روى القوم أن أحد ملوك فارس أرسل إلى الإسكندر وهو صبي كرة ومضرباً . فرد الإسكندر قائلا : ان الكرة ستكون في نظره الأرض كلها والعصى الإسكندر نفسه ، وقد عرفت فارس بعد صدق نبوءته إذ دخلها الإسكندر

وأسلمها للسلب والنهب ، وظلت تلك اللعبة سائدة فى فارس وحتى هرون الرشيد لعبها رغم أنه كان قصير القامة حتى أن عصاه لم تكد تدرك الكرة وهو ينحنى بها من ظهر جواده ، ولا تزال قوائم الملعب ترى بقاياها اليوم من حجر . ويمكن للسائح إن هو جلس هنيهة فى تلك الشرفة أن يقرأ صفحة جلية عن أهل العجم وحياتهم . فأصفهان لا تزال فارسية بحتة فى كل شىء ، وهى خير بلادهم دلالة عليهم فى أخلاقهم وحياتهم وفنونهم التى لم يكد يدخل عليها تبديل ، وقد كان حكم الشاه عباس هو العصر الذهبى للفن والبناء حتى قال الناس فيه : لما أن مات مولانا عباس مات معه تقدم الفرس وفنهم .

وقد حكم الشاه عباس ٤٣ سنة ، ونقل عاصمته من قزوين إلى أصفهان ، وقد زاره وفد انجليزى لأول مرة فأكرم مثواه ، ومن رجال هذا الوفد تعلم الفرس استخدام المدافع فى القتال ولم يكونوا يعرفونها من قبل ، وكان متسامحاً فى الدين دعا سفراء أوروبا إليه ، وكان إداريا حازماً صارماً فى الحق ، ومن قوانينه أنه جعل حكام المديريات مسئولين أمامه عما يقع فى مقاطعاتهم ، وكان يباشر كل شىء بنفسه ، ومن أوامره العجيبة (أن الابن إذا عصى القانون وجب على أبيه أن يقتله فإن تراخى الأب فى ذلك أمر الابن أن يقتل أباه فإن توانى الابن فى ذلك أعدم الولد وأبوه !) وقد شجع العلم والفن والأدب على أنه أهمل تربية أولاده مما أضعف الأسرة بعده ، وقد أعدم بعض بنيه خوفا من مزاحمتهم إياه فى الحكم لذلك أعقبه خلف ضعيف تسيطر عليهم رجال الدين (المولاه) ثم غزا البلاد الترك إلى قزوين ، والأفغان إلى أصفهان نفسها ، وخضعت فارس كلها لملوك الأفغان زماناً .

ويجرى القول على ألسنتهم بأن أصفهان نصف الدنيا ولو لم تكن فى الوجود لما خلق الله الأرض جميعاً ، ولا يزال جهالهم يعتقدون أن فى الباب العالى سراً ، لذلك رأينا كثيراً من الخيوط والخرق موثوقة به تبركاً . أما قصر الاستقبال



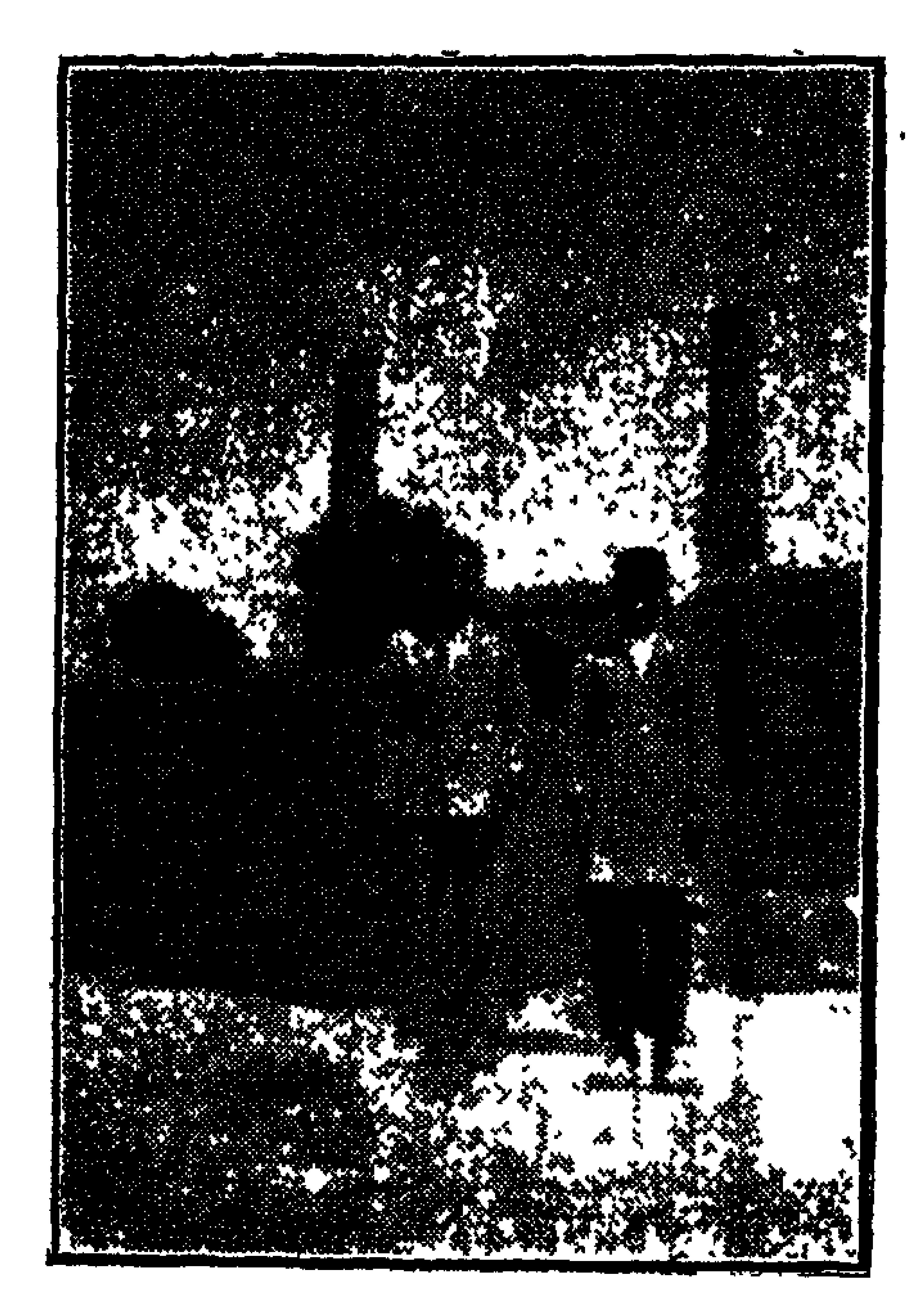
(شكل ١٢٧) حتى تلك الطنافس معقدة الرسم يشتغلها الأطفال فى العجم

الرسمى فاسمه (تشهل ستون) فى مكان قريب من الميدان وسطه حديقة فيحاء ، وهو من طابق واحد غالبه من الخشب الذى طلى من داخله ، وزين بالصور والنقوش للندامى فى مجالس مختلفة . والحسان يقدمن الشراب ، ولوقائع حربية من بينها انتصار جنود فارس على الأفغانيين مرة وعلى الأتراك أخرى ، والصور الزيتية متقنة أذكرتنى بما شاهدته فى قصر الفاتيكان فى إيطاليا ، ويتقدم القصر بهو الأعمدة الأربعين ، ولما عددتها ألفيتها عشرين لكنهم يعدونها مضاعفة لأنها تنعكس على حوض الماء المستطيل الذى يمتد بعيداً أمامها . هنا كان يستقبل الشاه عباس أضيافه يجلسون حول حوض ماء صغير تحت السقف الذى بولغ فى نقشه وخرط أخشابه ، وقد زينت الأركان بقطع المرايا والبلور ، وهى من أحب أنواع الزخرف لديهم . كل ذاك البذخ والإسراف جعلنى أنكر على الشاه عباس ما ادعاه من تقوى يوم أن قام ماشياً على قدميه حتى بلغ موطن الحج فى مشهد التى تبعد عن عاصمته بأكثر من ألف كيلو متر .

طفت بأسواق البلدة بسقوفها الوطيئة ، وشعابها المختنقة يسير الإنسان فيه

وكأنه فى تيه لا يعرف له أول ولا آخر ، ويسترعى النظر نوع من الأقمشة المهفهفة يطبع الرجل فوقها النقوش الفارسية بأختام فى الألوان التى ترغبها ، وتلك شهرة لأصفهان . ثم أشغال النحاس الدقيقة ، وهناك تكثر المطاعم وباعة الفاكهة ومن أظهرها (الخربوزه) أو الشمام ، وهى من نوع مستطيل فى لون أصفر برتقالى خشن الملمس وحلاوتها فائقة . والفاكهة هناك رخيصة فأقة (الانجور) أو العنب بنصف قرش كذلك أنواع الطعام الأخرى ، فلقد دخلت مطعماً وأكلت الكباب الشهى حتى شبعت وعند الحساب طلب الرجل قرانين أى نحو قرشين ونصف ، وقد علمت أن الأهالى يستطيعون أن يعيشوا ببضعة شاهيات فى اليوم أى دون قرش مصرى واحد .

وفى أسواق أصفهان ضمنى مجلس مع طائفة من مثقفى أهل يزد التى تقع إلى شرق أصفهان ، وهؤلاء كانوا من الزردشتيين أو المجوس عبدة النار الذين فروا فى تلك الصحراء ـ فيما بين يزد وكرمان ـ خوفا من العرب والمسلمين ولا يزال منهم عشرة آلاف فيما جاور يزد وحدها ، وكانوا يضطهدونهم حتى أنهم خصصوا لهم عباءات صفراء ، ولم يبح لهم العمائم ولا ركوب الخيل إلى أمد قريب ، وقد علمت منهم أن فى يزد (برج المسكون) حيث يتركون جثثهم تأكلها العقبان لأنهم من عبدة النار ، وقد رأينا ذلك فى بمباى فى الهند وكتبنا عنه فى كتابنا (جولة فى ربوع آسيا) وزردشت فيلسوف عاش منذ أكثر من ٢٥٠٠ سنة نشأ فى أذربيجان وكان ذا شخصية عجيبة ، وكانت تعاليمه تقوم على فضائل كثيرة وقد علم قومه أن الله (أهورا مازدا) يقول بأن هناك نضالا بين الخير والشر وأن الخير سينتصر ، وقد شجع فى قومه الزراعة وباركها وحرم قتل الكلاب ، وكان يقول بأن الجنة فوق ذرى جبال دماوند وراء طهران تتوجها منطقة بهيجة لا ليل فيها ولا مرض ولا فناء ، وظلت ديانته سائدة ثلاثة عشر قرنا حتى اجتاحها الإسلام وساعد على ذلك أن الحسين تزوج (شهر بانو) بنت آخر الملوك



(شكل ١٢٨) أمام المنارتين المتحركتين في جوار أصفهان

الساسانيين ، وبذلك ورث الحسين (العظمة الإلهية) التي ورثها من قبل الساسانيون ، وكانت لكتب زردشت المقدسة بقية فى مكتبة برسبولس وبعضها بخط يده أحرقها الإسكندر المقدونى يوم أحرق برسبولس كلها ، وتلك من أكبر الأخطاء التي ارتكبها الإسكندر .

وقد تفرع عن عبادة زردشت المجوس الزردشتية ، وظهر لهم رئيس فى نيسابور أيام أبى مسلم فدعا المجوس أن يهجروا عبادة النار ، ووضع لهم كتاباً آخر ، وحرم عليهم الأمهات والبنات والخمر ، وأمرهم باستقبال الشمس ركوعاً فى كل يوم .

وبعد ذلك قام (مانى) الحكيم يدعو إلى دين بين المجوسية والنصرانية وزعم أن العالم مركب من أصلين : النور والظلمة ، وأنهما متلازمان لكن أفعالهما متضادة : حسن وقبيح وخير وشر ، ويضم النور خمسة : النار والنور والريح والماء وروحها النسيم ، ويضم الظلام خمسة : الحريق والظلمة والسموم والضباب وروحها الدخان . وقد فرض مانى على أتباعه العشرة فى المال والصلوات الأربع والصدق وترك السرقة والزنا والقتل والبخل والسحر وعبادة الأوثان ، ويقول بأن الله بعث زردشت إلى فارس ، والمسيح إلى الروم ، ومحمد إلى العرب ، ولا يعترف بسيدنا موسى فى تعاليمه قط .

ومن الضواحى التى يقصدها السائحون هناك (الشيخ عبد الله) بها مدفن ذلك الشيخ تحت قبة تجانبها مئذنتان تسميان (منارات متحرك) ، ركبت إليها عربة زهاء الساعة فى طريق وعر مترب منفر وصعدت فوق القبة ، ثم تسلق رجلان كل فى مئذنة وأخذ الواحد يهز المئذنة فتترنح هى ، ثم تنتقل هزاتها الى الأخرى فتتبعها اهتزازاً ، ويعزو القوم ذلك إلى كرامة للشيخ المدفون ، على أنى لما أنعمت النظر فيهما رأيت بهما كسوراً وصدوعاً هى التى تسمح لأجزاء المآذن أن تتحرك ، وفى ظنى أنهما ستنهاران لاشك يوما ، وبذلك تنهار تلك الكرامة الموهومة ويثوب القوم إلى عقولهم .

الى شيراز : قمت صوب شيراز مسيرة خمسمائة كيلو متر تقريباً قطعناها فى شطر من المساء ونهار الخميس كله وسط أرض مغضنة كثيرة الربى وكلها مجدب عار عن النبت إلا القتاد ، وكان جل مسيرنا فى وديان جافة أشبه بوادى حوف عندنا ، وكم مررنا بحوادث لسيارات انقلبت بمن فيها فأصيبوا جميعاً ، وفى الخامسة مساء كنا فى قرية (سعادت اباد) وفيها اضطررنا المبيت لكى نتمكن من زيارة برسبولس صباحا والقرية تشبه القرى المجانبة للجبال فى صعيد مصر تماما أو تحكى الواحات ، بيوتها وضيعة ، ولقد دعانا طبيب الجيش وأحد ضباطه أن نشرب الشاى فى ثكنته فاذا بها خربة متهدمة ، دهشت كيف يطيقون البقاء فيها ! ولقد آوينا ليلتنا إلى مسافرخانة بسيطة ونمت فى (أطاق) زودنى الرجل فيه (بسجادة) نمت عليها ليلتى نوما عميقاً لأنى لم أنم الليلة الفائتة . وفى الصباح مررنا بكثير من الخرائب الأثرية من بينها مدر سليمان أو قبر سيروز وخرابة كوجاست أو مسكن سيروز وكلها أطلال لا تستحق الزيارة ، وفى التاسعة صباحا أقبلنا على :

برسبولس : أو بارس اصطخر أو قصر فارس ، ويسمونها أحياناً تخت جمشيد ، وقد بدت فى حضن الجبل مدينة هائلة بأحجارها المشرفة التى أذكرتنى



(شكل ١٢٩) أمام مدخل قصر دارا واجزرسيس تتقدمه
النيران ذات الأجنحة والوجوه الآدمية فى برسبولس

بالكرنك ، ويقال إنها أكبر الآثار القديمة وأفخرها بعد الكرنك عندنا ، أقبلنا على درجها الهائل ذات اليمين وذات الشمال فارتقينا بها علواً شاهقاً ، وكان عدد تلك الدرج مائة و إحدى عشرة بلغ من امتدادها وسهولة مرتقاها أن خبرنا القوم بأن الفارس يستطيع ارتقاءها وهو على ظهر جواده . فوقها رأينا بقايا تلك المدينة البائدة التى تخيرها دارا لأول بدء القرن الخامس قبل الميلاد مقراً لقصره وسط أخصب بقعة فى مقاطعة فارس Fars . بدا مدخل قصر دارا وابنه اجزرسيز تتقدمه الثيران ذوات الأجنحة والوجوه الآدمية فى علو شاهق ، و إلى جانب المدخل بهو المائة عموداً ، وقد تهدمت إلا بقية ضئيلة ، وهى من الجير الأبيض البراق نحت فى تجزيع يحكى الأعمدة الاغريقية ، وكانت تتوج الأعمدة برؤوس الثيران التى تحمل السقف على علو ٦٥ قدما ، والسقف من خشب الأرز طعم بالنحاس والبرنز والعاج ، ولكثرة البرنز ودقة صنعه ظن أن العصر كان أزهى عصور البرنز جميعاً ، وكان خرط السقوف فى آيات بينات من الفن ، وفى بقايا تلوينه فى القطع التى كشفوها من تحت الأنقاض ، والتى رأيتها فى شبه متحف هناك ما سحرنا وأذكرنا بنقوش الأندلس وقصر الحمراء ، حتى ظن البعض أن العرب نقلوا معظم فنهم من

قصر اجزرسيز هذا وابداع ألوانها و نقوشها مفخرة للشرق على بلاد المغرب ، وكانت تتدلى على جوانب الإبهاء البسط الثقيلة الفاخرة لتحجب وهج الشمس ، ولا شك أن كثرة الأعمدة الباسقة حاكت فى زمانها غابة من شجر أبيض ناصع جميل ، وثم قسم من القصر كشف حديثاً ، ولا يزال الألمان يظهرون خفاياه ، لذلك منعونا أن نرسم صوراً له . ظهرت منه مجموعة درجه كاملة الحفظ فى النقش البديع ، والكتابة المسمارية ، والدرج مزدوج يميناً وشمالاً ، و بعد قليل ينعرج منعكساً فاليمين يضحى يساراً واليسار يميناً فى أبهة وجلال تشعر بعظمة الملك ، فكم نظر دارا واجزرسيز وهما جالسان فى تلك الجنة استهتاراً بالدنيا وتيها على من سواهم من ملوك الأرض ، على أنى لما رأيت مدخل قصر دارا نفسه ، وقربه فى الشبه من بوابة الكرنك الرئيسية فى الأقصر ، ونظام الأبهاء والأعمدة المصرية وأنها دون آثارنا ضخامة وروعة شعرت بشىء من الكبرياء لأنه بدا لى أن القوم نقلوا طرفاً من مدنيتهم عنا وفن تلك البلدة خليط من المصرى والأشورى إلى حد كبير ومن الاغريقى إلى حد قليل ، واصطخر كانت مقر أبى اسحاق الاصطخرى صاحب كتاب (مسالك الممالك) وهو من أقدم الكتب الجغرافية عند العرب ، و يسمونها أحياناً (تشهيل منار) أى ذات العماد .

و بعد أن غادرنا برسبولس بنحو ستين كيلو متراً جلها جبال معقدة أشرفنا على شيراز عاصمة مقاطعة فارس ، وكانت عاصمة ابن بويه ، بدت فى وهدة وسط الجبال ، وعند مدخلها باب قديم فوقه غرفة بها مصحف كريم بخط الامام على نفسه و يتبرك به القوم فى غدواتهم وروحاتهم ، وشيراز القديمة مجموعة أزقة ضيقة بيوتها بالآجر يتوسطها (البازار) أو السوق كثير الشعاب فى أقبيته الفارسية المألوفة وامتداده اللانهائى حتى قيل إن نصف سكان البلدة من التجار وخمسهم من اليهود ، وجل دور الحكومة قصور قديمة شامخة البنيان فاخرة النقوش أذكر من بينها مكتب البرق والبريد ، ومقر الجيش قصر كأنه القلعة ، وقد اختط خارج



(شكل ١٣٠) بقية من أبواب قصر دارا
وهى قريبة شبه بأبواب الكرنك

القديم قسم من البلد حديث رحب جميل تمتد طرقه الفسيحة إلى الآفاق وتجانبها مجارى المياه ، غير أن الخضرة والأشجار نادرة بحيث تبدو البلدة تحت الجبال وكأنها حلوان ، واختلاط القوم وازدحامهم الشديد فى الطرقات الحديثة و بخاصة عند الأصيل يسترعى النظر ، وميلهم للمجون كبير رغم أن إزار السيدات هناك من النوع العتيق الذى يحكى ملابس الأفغانيين .

وشيراز تعد خير مراكز العلم والأدب الفارسى ، فيها قبر سيبويه وقد أنبتت كثيراً من علمائهم وشعرائهم نخص بالذكر منهم : حافظ وسعدى . والأول كان يميل إلى شىء من الزهد والتصوف فى شعره ويقول الغزل فى الحضرة النبوية على مثال عمر بن الفارض ، أما سعدى فألاحى اشتهر بكثرة المجون والغزل فى الغانيات والخمريات وكان يعده الفقهاء هناك زنديقاً ملحداً . وقد زرت مدفنيهما فى حجر الجبل فكان مدفن حافظ وسط بناء فاخر حوله شباك الحديد الملون و به مشرب شاى كانت جلستى فيه أقرب شىء إلى خيال الشاعر خصوصاً عند الأصيل ، وقد أشرفت على شيراز كلها فى مشهد ساحر لن أنساه . أما مدفن سعدى فأقل اتساعاً وأبهة وهو فى مكان ناء عن البلدة . وعجبت إذ رأيت حول مدفنه يوم أن زرته جمعاً من النساء والرجال والصبية مرحين يغنون ويصفقون ، فكأنهم كانوا يرددون شيئاً من نزعة الشاعر وما روى .

الى بوشير : قمنا فى سياة كبيرة إلى (أبوشهير) مسافة تناهز ثلاثمائة كيلومتر لبثنا نسير يومين وليلة استرحناها فى قرية كبيرة اسمها كزرون وكان الطريق جبالا معقدة بدرجة لم يسبق مثلها ، وبخاصة فى اليوم الثانى فى مكان يسمونه (الدرب) ، وليات الطريق وتعقيداتها فوقه تدخل الرعب فى قلوب المسافرين بل والسائقين أنفسهم ، فأنت ترى طياتها عشرات بعضها تحت بعض وهنا تكثر حوادث انقلاب العربات ، وقد شاهدت عربة انقلبت قبلنا بيومين ومزقت بمن فيها شر ممزق ، لذلك يحرم البوليس على السائقين السير ليلا ، وفى الخمسة عشر كيلومتراً الأخيرة خرجنا إلى سهول مبسوطة كلها صحارى مجدبة تمتد برمالها وحصاها إلى شواطئ الخليج الفارسى ، وقد مررنا بكثير من العيون الكبريتية ، وفى هذا القسم من فارس رأينا نخيل البلح فى بقاع أشبه بالواحات ، ولقد أدهشنى أن الجبال فى الشطر الأول من الطريق مجدبة عارية عن النبت ، وفى وسطها ، وهى أكثر الجبال ارتفاعاً تكسى بالغابات فى أشجار كبيرة متفرقة ، لذلك كنا نرى محاط لحرق الخشب وتحويله إلى فحم يستخدمه الناس فى التدفئة ، وفى الجزء الأخير فى مجاورة (الدرب) انضمر الشجر ثم انعدم وأضحت الجبال شبيهة بجبال شرق حلوان فى جدبها ، ويظهر أن ثلوج القسم الأوسط المرتفع هى التى سمحت بنمو الشجر لأنها روته بمصهوراتها التى كنا نراها تتجمع فى أودية ضيقة متلوية . أخيراً دخلنا بوشير فى أصيل اليوم الثانى فإذا بها بلدة حقيرة لم أجد بها سوى مهمانخانة قذرة حجراتها كأنها الأحجار ، وطرقات البلدة أزقة ، وحرها لافح شديد مع أن الصيف قد انقضى إذ أنى كنت هناك فى ١٩ سبتمبر مما أيد عندى أن الإقليم المجانب للخليج الفارسى فاسد الجو ، وهو أشد بقاع الأرض حرارة فى الصيف . وبالبلدة بعض المقاهى (البلدية) يجلس فيها الناس فوق مقاعد خشبية وطيئة شبيهة (بكرسى المطبخ) ويتكئون على مناضد لا يزيد علوها عن الأرض على قدم واحدة فيخيل إلينا أنا جلوس على الأرض ،



(شكل ١٣١) ندخل شيراز فى هوة بين تلك النجاد

وجانب البحر مهمل مترب قذر إلا فيما جاور الجمرك ، وأخلاق أهلها أمعن فى الفساد والانحطاط . أقمت بهـا يوماً على مضض ، وفى باكورة اليوم التالى سرت إلى الجمرك حيث فتشت أمتعتنا ثم أقلنى زورق بخارى صغير فى الخليج الفارسى مسافة سبعة كيلو مترات فى مياه مضطربة هائجة وجو عاصف أغبر كثر ضبابه ولم تنكشف شمسه ، وكم آذى ترنح الزورق من مسافرين حتى وصلنا الباخرة (ڤاسنا Vasna) من بواخر شركة الهند الشرقية ، وكانت راسية على هذا البعد لأنها لا تستطيع أن تقرب من الشاطىء الضحل ، وتلك الشركة تسير بواخرها مرتين كل أسبوع بين الهند و بين بلدان الخليج الفارسى السريعة منها (Fastmail) تمر ببعض الثغور والبطيئة (Slow) تمر بهـا جميعاً وتقف طو يلاً ، و باخرتنا حمولتها عشرة آلاف طن ، وكانت عاصة بالمسافرين بين هنود وفرس وأعراب ، وكانت تحمل وسقاً ثقيلاً من الشاى والسكر والفحم من الهند ، وتعود إليها بالبلح والشعير . رسونا فى المساء ببلدة صغيرة عند مصب شط العرب تمـاما وتسمى فاو ، و بعدها دخلنا الشط ، وفى الصباح وقفنا طو يلاً ببلدة عبدان التى ظهرت وكأنها إحدى بلاد لنكشير فى مداخنها ، وضوضاء مصانعها ، وتنسيق شوارعها ، ومبانيها التى ما كنت إخالها

تقوم فى مثل تلك الناحية النائية فاسدة المناخ ، لكن هى مقر شركة البترول (النفط) الإنجليزية الفارسية التى تجمع الزيت المستخرج من تلك المنطقة الغنية وتكرره فى مصانعها الهائلة ثم يشحن فى البواخر ، وكنا نرى عدداً من البواخر تنقل إليها صفائح البنزين المشحونة على أشرطة تسير بالبخار ، وترص الصفائح فى نظام عجيب ، كذلك فهى محطة بترول لتموين السفن بالزيت المحرك لها ، وقد ظلت باخرتنا تزود بحاجتنا من الزيت مدة ساعة بخراطيم هائلة ، ويظهر أن حافة هضبة إيران الغربية من قرب بحر الخزر إلى الكردستان إلى الخليج الفارسى مستمد هائل للبترول الذى يكاد يتغلغل فى جميع طبقات صخوره بمقادير وفيرة ، والشط هنا أكثر اتساعاً من نيل مصر ، ويسمونه شط عبدان ، وجانبه الشرقى لفارس والغربى للعراق ، ويحفه النخيل على جانبيه فى كثافة كأنها الغابات المغلقة ، وبعد أن غادرنا عبدان بثلاث ساعات وصلنا المحمرة . وهى تحكى بوشير فى حقارتها ، وقد وقفنا بها أربع ساعات نفرغ سحنتنا ثم قمنا منتصف الثالثة صوب البصرة فوصلناها فى ساعتين . وقد سبق أن ذكرنا طرفاً عن إقليمها وعن رحلتنا منها إلى بغداد ، وفى باكورة صباح الإثنين ٢٥ سبتمبر قمت فى سيارة إلى الشام فى رفقة شابين عراقيين مرحين لم يفترا لحظة عن المزاح طيلة الطريق ، وكان معنا شيخ فارسى كان موضع سخريتهم ، وقديماً كانت الكراهة متأصلة بين الشعبين فكلاهما يمقت الآخر مقتاً ، وكان رابعنا سوريا مقطب الوجه لا يميل إلى المزاح رغم حداثة سنه ، وكان يقود السيارة سائقان يتناوبان السوق لأنا واصلنا السير النهار والليل فى غير توقف ، وفى ساعتين وصلنا : الفولجة : وعندها عبرنا الفرات ، وفى ساعة أخرى وصلنا الرمادى على حافة الصحراء ، وهناك تناولت طعام الإفطار فى نزل بديع يعادل أحدث الفنادق نظاماً . بعدها أوغلنا فى صحراء مبسوطة السطح رملية التربة ليس بها من حصى ولا نجاد ، وابثنا كذلك إلى الرابعة مساء حين وصلنا الرطبة فى منتصف الطريق (والمسافة كلها ٨٧٠ كيلو مترا) ، وهى قلعة عراقية



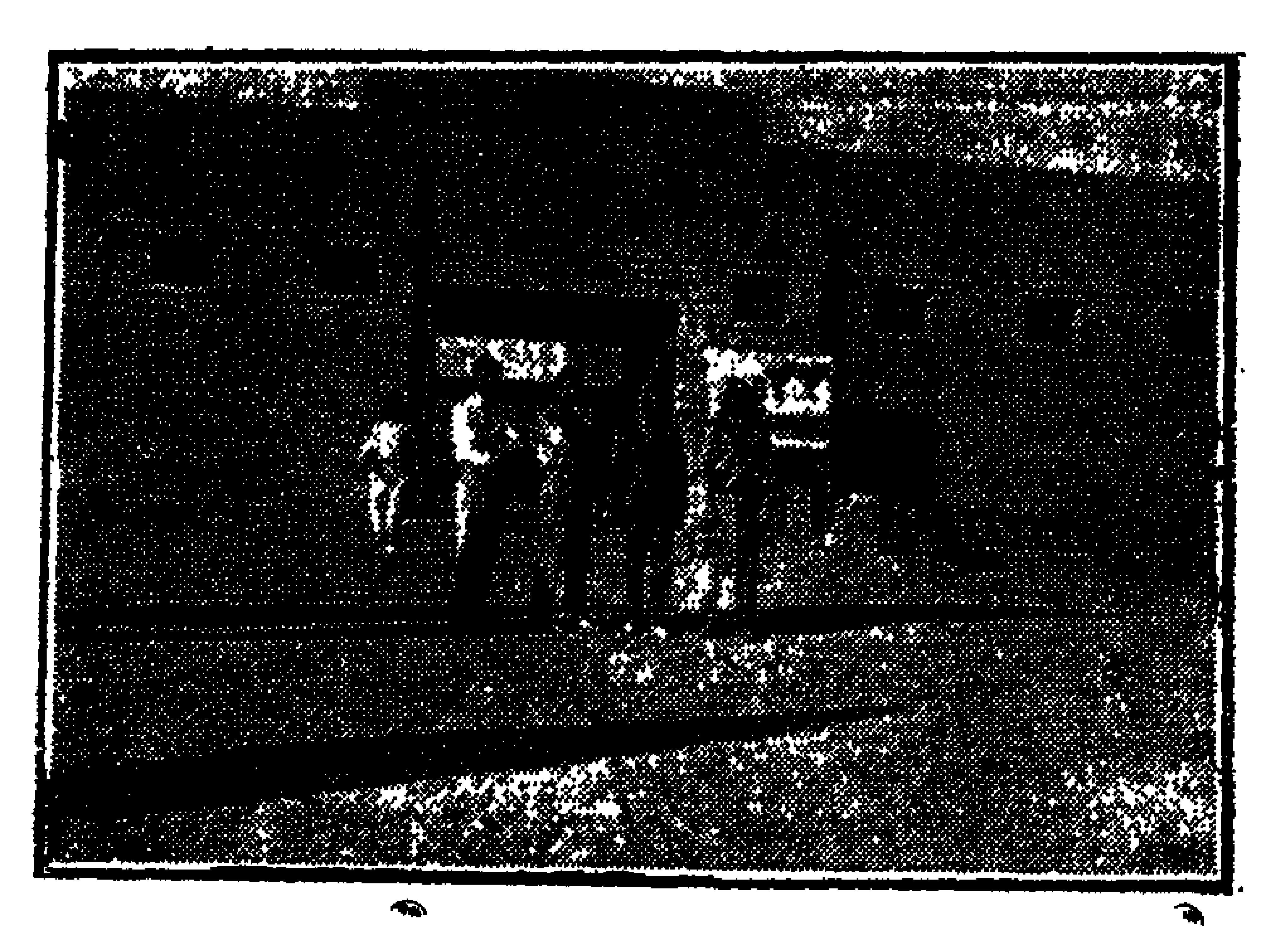
(شكل ١٣٢) نزل داك (الدرب) الوعر إلى بوشير
وشواطئ الخليج الفارسي

وسط البادية داخلها نزل فاخر ، وقد قامت حولها بعض الحوانيت والمقاهى الحقيرة تجانبها مجموعة من خيام لأعراب تلك البادية ، وهنا محطة لاسلكية ومطار هام ، استرحنا زهاء الساعة وتناولنا الطعام الشهى والشاى المنعش الذى أروى ظمأنا ، ثم واصلنا السير وأخذ أديم الصحراء يتغير وانتثر بالحصى وتماوج سطحه قليلا ، وقد مررنا بوادى حيران الوطىء ، وعلى مقربة منه دخلنا بادية الشام ، خيم الظلام وسادت الوحشة وكان يزيدها رهبة أكداس من عظام الجمال خانها الحظ وبادت ولا تزال العقبان والنسور تنهش ما تخلف من لحمها ، ولم أر ظاهرة السراب جلية من قبل جلاءها فى هذه الصحراء ، فكانت نتوءات الأرض ترى على بعد وكأنها أبنية مدينة تنعكس على بريق النقائع الفضية الوهمية التى ملأت الأرجاء بيننا وبينها . واصلنا السير خلال مرح القوم ونكتهم ومفاخرة السائق بأن تلك الفيافى أضحت مقره فهو جد خبير بها عليم بما فيها من دقائق ، وكانت آثار عجلات السيارات تميز طريقنا بحفائرها فى الرمل . وبين آونة وأخرى كان يقوم شاخص من خشب طلى باللونين الأبيض والأسود ليهدى الناس سبيلهم ، كانت فترة



(شكل ١٣٣) دار البريد فى شيراز وهى من القصور الاستقراطية القديمة

سكون قصيرة خمدت فيها أصوات الجمع وجنح السائق عن الطريق ، ثم باغتنا بوقفة فنزول عن السيارة ، ونظرة إلى السماء دلتنا على أنه ضل الطريق فكانت صيحة فزع و بخاصة من زميلنا الشيخ الفارسى ، أعقب ذلك صمت عميق ، ثم ظل السائق يحدق فى السماء و يتلمس بعض بروج النجوم ليسير على هديتها لكن بدا لى من معلوماته الخاطئة عن النجوم أنه كان يوهمنا بخبرته ليس غير ، والحقيقة أنه كان فزعا مضطربا هو ورفيقه ، ولبثنا نسير بالسيارة يمنة و يسرة زهاء ساعتين فى غير طائل فخشينا أن ينفد البنزين فتكون القاضية ، فأجبرناه أن نقف حتى الصباح لعلنا على ضوء الشمس وميلها نهتدى إلى الطريق السوى . صور نفسك فى هذا الموقف ، وليس لديك من زاد ولا ماء وسط بادية مترامية لا ترى بها إلا بقايا عظام لدابة هلكت أو فضلات لسيارة احترقت ، صمت رهيب خلنا معه القوم نياما ولكن كيف ينام الضال القلق ؟ نزلت أجيل البصر فى ذاك السكون الرهيب وتلك السماء التى أخفت خفاف السحب بها بعض النجوم حتى لم يبد الدب ولا النجم القطبى . و بينما كان يجول الخاطر فيما عسى أن يجىء به الغد و إذا



(شكل ١٣٤) فى « الرطبة » وسط البادية بين العراق والشام
وليس بها إلا معسكر ونزل

بشعاعة ضوء كأنها وهج يتحرك بدت قرب الأفق ثم أخذت تخبو وتظهر فخلناها سيارة تمر فى الطريق ، فولينا شطر تلك الناحية وسرنا نحو خمسة كيلو مترات بدون جدوى ، فوقفنا ثانية نرقب الأفاق عسانا نتلمس شيئاً و إذا بضوء مصباح يفاجئنا فى ناحية أخرى فعدنا إليه ، و يظهر أنه أدرك حيرتنا فوقف وأشعل مصباحيه الكشافين وظل يثبتهما قبالتنا ونحن نسير إليه حتى إذا ماقاربناه خجل السائق من موقفه وخشى إن علم الآخر بضلاله عن الطريق أساء إلى سمعته ، خصوصاً وأنه كان يفاخر بأنه ابن تلك الصحراء ، و بينا كنا نتأهب لتحية هادينا وشكره ، و إذا بسائقنا ينعرج عنه كأنه على دراية بالطريق ، وكأنا نحن الذين هدينا صاحبنا الآخر ، فكان ذلك جحوداً منا يظهر أن السائق الآخر أدركه فانعرج إلينا وصاح فى وجهنا قائلاً (أنتوا ضايعين والا إيه ؟) فكانت صفعة قاسية لزميلنا السائق . تبينا بعد طريقنا ولبثنا كلما حاول السائق الشذوذ عنه نعيده إلى حظيرة الحق رغم مكابرته وحمدنا الله أن أنجانا من خطر محيق وقد كان حظنا حسناً لأن اليوم يوم سفر من العراق إلى الشام كثرت فيه السيارات العابرة و إلا لما عثرنا على سيارات أخرى فى تلك البيداء المترامية المخيفة .



(شكل ١٣٥) الميدان الرئيسى فى بيروت

فى الخامسة صباحا دخلنا دمشق بعـد أن سرنا أربعاً وعشرين ساعة سيراً متواصلاً لم يتخالله إلا فترات قهوة عنـد الحدود ، ثم وقفة الحيرة التى ضللنا فيها طريقنا ، وبعد جولة وداع قصيرة فى دمشق قمنا فى سيارة أخرى إلى بيروت مسافة مائة كيلو متر قطعناها فى ثلاث ساعات فى طرق مرصوفة وسط مزارع جذابة ثم أخذنا نعلو جبال لبنان ، وكانت مدن المصايف وقراها تنتثر على جنباتها فى بيوتها الحجرية وسقوفها الحمراء المتحدرة حولها تموج النجاد يكسوها الشجر فى مشاهد ساحرة .

وقد مررنا بصوفر وبحمدون ، وعند ما وصلنا الذروة وأخذنا ننزل الصفحة الغربية كانت المناظر أبهى وأروع ، وبدت بيروت مبسوطة فى زائدة من الأرض نائتة وسط مياه البحر الأبيض الذى امتد إلى الأفاق حتى اتصل ضبابه بسحاب السماء ، وقبيل دخولنا بيروت رأينا (علية) من خير مصايف لبنان ، ثم تجلت بيروت ثغراً خفيف الروح جيد الطرق نظيفاً يحكى جانباً من الإسكندرية إلا أن جوه كان أميل إلى الحرارة ، وهواؤه راكد رطب . هنا نال منى الجوع فآويت إلى مطعم وطنى أكلنا به قديداً (شورمه) من لحم شوى على سفود (سيخ) يدور

ومن حوله وهج النار وكلما نضجت طبقة منه أزالها الرجل بالمشرط وقدمها إلىّ وسط خضرة من النعناع ، و إلى جانب ذلك طبق من (الحمص) سحق فى الزيت والبهار فكان شهياً لذيذاً . فقمت بعد الظهر فى سيارة إلى حيفا : مسافة (١٦٠ ك م) فى خمس ساعات ونصف فى طريق يجانب البحر ، ولم يتخللها وقوف إلا عند الحدود زهاء نصف ساعة ، وقد مررنا من ثغور سوريا الهامة على صيدا وكانت عاصمة مملكة كنعان ثم صور ، ومن ثغور فلسطين على عكا ، وقد كنت إخالها تقوم على ربوة منيعة لكنى ألفيتها مبسوطة السطح ولم تشعرنى بالمنعة التى قرأنا عنها أيام صلاح الدين ونابليون ، وعلمنا أن بها قبر نبى الله صالح ، وفى المساء كنا فى حيفا : وهى مدينة يبدو على مبانيها القدم والإهمال إلا أن الإنجليز بدأوا يعبدون طرقها و يصلحون ميناءها فى أرصفة هائلة ستجعلها من الثغور الرئيسية ، و يظهر أنهم يميلون إلى اتخاذها قاعدة حربية للجيوش والأساطيل والمطارات ، ومن ورائها يقوم جبل الكرمل الذى أخذت المبانى المستحدثة تقوم على مدرجاته وفوق سطحه المبسوط ، وهو هناك الحى الارستقراطى ، وجل ملاكه من اليهود . وهنا بدء سكة الحديد إلى الجنوب ، وللبلدة محطتان محطة حيفا ومحطة الكرمل . قمت عائداً إلى بلدنا العزيز فى قطار الصباح ، فكان جل الطريق يجانب البحر فى سهول زراعية ، ثم أخذت الأرض تتغضن وكثرت بها منابت الفاكهة ، و بعد غزة سادت الرمال وكثبانها الناعمة إلى الآفاق ، ولما دخلنا الحدود المصرية زادت كثافة وحف النخيل شاطىء البحر كله ، وقد لبثنا نجانبه طويلاً ثم أوغلنا فى طور سيناء حتى دخلنا القنطرة مساء .


﴿ تمت الجولة بعون الله ﴾

فهرس الكتاب

فهرس الخرائط والصور

الجولات المطبوعة للمؤلف

جولة فى ربوع أوروبا

بين مصر وايسلندة

عن طرائف المدنية الأوروبية ومشاهدها ونظمها الاجتماعية

جولة فى ربوع آسيا

بين مصر واليابان

عن بدائع الشرق الأقصى ومدهشاته (اليابان والصين والهند الخ)

جولة فى ربوع افريقية

بين مصر ورأس الرجاء الصالح

من عجائب القارة الغامضة وغابات جوفها وأسرار همجها وأخطار وحوشها

جولة فى ربوع الشرق الأدنى

بين مصر وأفغانستان

عن مميزات بلاد إيران والعراق والأفغان والأناضول والشام

جولة فى ربوع الدنيا الجديدة

بين مصر والأمريكتين

عن مدهشات بلاد الدنيا الجديدة ونفائس بلاد المغرب والأندلس

مطبوعات مكتبة النهضة المصرية

اسم الكتاب	اسم المؤلف	الثمن
		مليم
الانجليز فى بلادهم	للدكتور حافظ عفيفى باشا	٤٠٠
أديب	« طه حسين بك	١٠٠
حافظ وشوق	» » » »	١٠٠
الشوقيات — الجزء الثالث	للمرحوم أحمد شوقى بك	٨٠
مناجاة	للأستاذ حسين عفيف المحامى	٥٠
وحيد	» » » »	٥٠
جولة فى ربوع أوروبا		٨٠
» » » آسيا		٨٠
» » » إفريقيا	للأستاذ محمد ثابت	٨٠
» » » الشرق الأدنى		٨٠
» » » الأمريكتين		٨٠
حياة الفراعنة	للأستاذ محمد صابر	٧٠
من غورالمحيط	« يوسف فهمى	١٠٠
الجمعة اليتيمة	للدكتور سعيد عبده	٦٠
باب القمر	للأستاذ ابراهيم رمزى	١٥٠
نابليون	« يوسف تادرس	١٠٠
عودة الروح (جزءان)	« توفيق الحكيم	١٠٠
محمـــــد	» » »	٢٥٠
المطبخ الشرقى	للآنسة بسيمة زكى	٢٠٠
مداعبات عفريت	للأستاذ فهيم حبشى	٦٠
جهاد الأمم فى سبيل الدستور	« محمد شوكت التونى	١٠٠
فتوحات العلم الحديث	للدكتور فؤاد صروف	٢٥٠
أساطين العلم الحديث	» » »	٢٥٠
الأمراض التناسلية	« يوسف عبد العزيز حموده	٤٥٠
رعاية الطفل	« أحمد خليل عبد الخالق	
كليلة ودمنة بالصور	للمرحوم محمد عبد الرحيم ترة	١٥٠